

UNIVERSAL  
LIBRARY

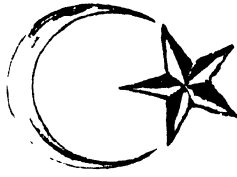
**OU\_190782**

UNIVERSAL  
LIBRARY









# عَلَمُ الدِّينِ

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية - ابنا

الجزء الاول

طبع في مطبعة جريدة المهرسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢



## بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مصور الأكوان ومدبرها ومقدر الأحوال ومسيرها وصلى الله على سيدنا محمد شمس الضحى ونور الهدى وعلى اله وصحبه مصابيح الدجى وكل من بنورهم اهتدى وبهداهم اقتدى وسلم تسليماً كثيراً دائماً وأبداً

وبعد فمن نظر في هذا العالم وسير أحواله وتدبر قوانينه التي فطر عليها الخالق جل اسمه بقدرته ودبرها بحكمته وجد بين أفراد كل نوع من الأنواع وبين كل نوع وغيره من العالم وكل جنس وآخر من اجناسه ارتباطاً تاماً يستدعيه كمال نظامه كما انه يجد هذا الارتباط بين العالم السفلي والعالم العلوي ايضاً الا ترى ان الشمس تشرق على الارض بانوارها فتنبث اشعتها في انحاءها واجزائها فينقل بواسطة الحرارة بخار يرتفع لخطفه على الهواء فينقلد سحاباً في جو السماء تنيره الرياح فتسيره الى حيث شاء الله من الاماكن القاصية والداية فيتراكم ويسقط على الارض ماء يخرج به الارض انواع النبات والثمرات رزقاً للعباد كما قال الله سبحانه وجعلنا سراجاً وهاجاً وانزلنا من المعصرات ماءً ثجاجاً لنخرج به حباً ونباتاً وجنات النفاق ثم يرى ان كل مخلوق حصل على شيء من هذا العالم ابا كان ما ينزل من السماء او يخرج من الارض صار ذلك الشيء اشبه بدين في ذمته مجبور على وفائه قضت عليه المحكم الازلية والاحكام العلية بتعويضه وادائه بعد حين الى الارض او السماء بواسطة التحليل والتركيب المتبادلين المتعادلين لاستمرار النظام وبقاء هذا الكون الى ان يشاء الله

فاذا علمنا ذلك في الامور النظرية والاحوال التفسيرية ناسب ان نراعي كذلك في احوالنا الارادية وافعالنا الاختيارية

فكل خير حصلنا عليه في هذه الحياة الزمنا انفسنا القيام بتعويضه ومقابلته بالمجهد على قدر الامكان وهل جزاء الاحسان الا الاحسان

مثلاً نحن قد تربينا في هذا الوجود حتى صرنا على حالة من احوال

الكمال وصلنا اليها ولم تكن نشأنا عليها فترتب علينا ان نربي غيرنا حتى  
يصلوا الى نحو ذلك ثم هم يربون غيرهم وهكذا ومن اعظم ما نرى انفسنا  
مدينين له مطالبين من جهته مغفورين بحقوقه المقدسة هذا الوطن  
الجميل الذي نشأنا به وعشنا فوق ارضه وتحت سائه ونعشنا بهوائه وروينا  
بماه واغندينا بشاته وحيوانه واستفعا بسائر اجزائه وهو في كل آن يدنا  
وبفيدنا ويعطينا ويزيدنا كما كان صبيعه مع ابائنا واجدادنا السابقين  
وكذلك يكون شأنه مع اسائنا واحقادنا اللاحقين فلزمنا ان نتدره حتى  
قدره ونأتي على اخر جهودنا واستطاعتنا في منفعة وخيره ولا شيء انفع له  
واجاب للخير والبركة اليه من تعليم اتانته وبث المعارف والقنون النافعة  
فيهم حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا بدأ واحدة في نفعه وخدمته وايصاله الى غاية  
ما يمكن ان يصل اليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك  
تزداد خيراته وبركاته عليهم وعلى سلمهم وعقوبهم وخلهم من بعدهم وهذا لا  
يكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية فان الجاهل لا يحسن نفع نفسه  
فضلاً عن نفع غيره لانه لا يميز بين المنفعة والمضرة ولو عرف المنفعة لا  
يعرف الطرق الموصلة اليها ولو عرف لا يهتدي لاحسنها واقربها للمقصود  
واسلمها من الآفات والمخدور بل طال ما اراد ان ينفع فضر وطلب الخير  
فاجتلب الشر فان الجاهل اعمى ولو كان بصيراً فهو يتخط في ظلمات الغي  
والخيرة لا يبصر الحقيقة ولا يهتدي الى الصواب ولا يدري حاله وما عليه  
ولا يعلم حقوق نفسه ولا يعرف حقوق غيره وان وقع على الغرض فبالصدفة  
والانفاق رمية من غير رام وصاحب الفضل والمعرفة يسير في اعماله مستهتراً  
بصباح علمه فيميز الخير من الشر والملج من القبيح ويرى الصواب واضحاً فيقتصد  
ونجح الحق نيراً فيسلكه ويعرف قدر نفسه وغيره وماله على غيره وما لغيره  
عليه ويرى حقوق وطنه فيما خذ نفسه بقضائها وحسن القيام بها عارفاً ان نفعه  
لوطنه مع كونه حقاً بقضيه ودينياً بؤديه اذ هو في الحقيقة نفع لنفسه لما لا رية  
فيه عند من ان خير بلاده وخصبها وبركاتها وتقدمها ورفعة شأنها كل  
ذلك فائدة له وعكسه بعكسه فلذا كان نفع وطه نفع نفسه كصاحب الارض

مثلاً ينتفع بخيراتها ويحني ثمراتها فيترتب عليه بازاء ذلك ان يقوم بخدمتها وإداء ما يلزمها وينفعها ويصلح شأنها من نقليات ونهصيب ونمهد ونسبب وري وطبي ونحو ذلك فاذا فعل ما ذكر فقد أدى ما عليه من جهتها في نظير ما انتفع به منها وبذلك تصلح الارض وتحسن وتعلو قيمتها فندرك عليه خيراتهما ونحو حاصلاتها فنعود عليه بنفع اخر وتزيد خيرا وهلم جرا

هذا واني لماعترف بفضل هذا الوطن العزيز عليّ فقد نشأت في ظلّه ونقلت في مهده وتربيت في حجر كفالته ونعمه حتى صرت من ابناؤه المعدودين ورجاله المعروفين وتمتعت صغيراً وكبيراً بكثير من خيراتهم وثمراته ولا ازال متعباً بطيباته فاجدني وان استوفيت الجهد وقضيت العمر في خدمته لم اقم بعشر معشار ما عليّ من واجباته وحقوقه ولكن عرفاني لذلك واعتراضي به لا يعني من بذل جهد المفل والانهاء لغاية الاستنطاعة ولهذا التزمت في كل ما نقلت من الاعمال وجميع ما نقلت فيه من الاحوال ان اخدم وطني بكل ما نالته يدي وبلغه امكاني ما اراه يعود عليه بالفائدة والمنفع قل او جل كالسعي في استكثار المكاتب والمدارس وتعميم التربية والتعليم ونشر الكتب المفيدة اما بالاشتغال في تأليفها بنسبي او المحث والتحريض عليها لمن ارى فيه اهلية القيام بها

وقد رأيت النفوس كثيراً ما تميل الى السبر والتقص ولح الكلام بخلاف الفنون البعثة والعلوم المختصة فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان لا سيما عند السامة والملال من كثرة الاشتغال وفي اوقات عدم خلو البال فجداني هذا ايام نظارني لديوان المعارف الى عمل كتاب اضمته كثيراً من الفوائد في اسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها الى مطالعتها ويرغب فيها رغبته في ما كان من هذا القبيل فيجد في طريقه تلك الفوائد يناها عفواً بلا عناء حرصاً على نعيم اللائق وبك المنفعة

فشرعت في جمع هذا الكتاب مستهدداً من عناية الله مستعيناً في تهذيب عبارته ونحسين اشارته ببعض جهابذة الاساتذة لا سيما العالم الفاضل السيد الاجل عبدالله باشا فكري وكييل ديوان المعارف فانه صرف عانيته الى تنقيح

ما اطلع عليه من هذا الكتاب وليس بالقليل فهدب معانيه وشذب مبادئه وقرب مجانيه فجاء كتاباً جامعاً اشتمل على جملة شتى من غرر الفوائد المنفرقة في كثير من الكتب العربية والافرنجية في العلوم الشرعية والفنون الصناعية واسرار الخليفة وخرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر وما تغلب نوع الانسان فيه من الاطوار والادوار في الزمن الغابر وما هو عليه في الوقت الحاضر وما طرأ عليه من تقدم وتقهتر وصفاء وتكدر وراحة وهناء وبؤس وعناء الى غير ذلك من الشؤون بنقلب الدهور ونصرف الامور مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين احواله وعادته في الاوقات المتفاوتة والانحاء المتباينة ليطلع مطالعه على ما يشهد خاطره وينبه فريجه ويستنهض فكرته ويدرجه لاعمال عقله وامعان نظره واستعمال بصر بصيرته في نقد الامور وسبرها وتدبرها ومقارنتها والموازنة بينها والتميز بين الخير والشر والنفع والضر ونخب النافع والانع والحسن والاحسن منها على نمط يسوعن السامة ولا يبلل الى الملالة مفرغاً في قالب سياحة شيخ عالم مصري وسم بعلم الدين مع رجل انكليزي كلاهما هيان بن بيان نظهما سمط الحديث لتاني المقارنة بين الاحوال المشرقية والاوروبوية

وكل ما وقع تحت نظر الناظر وقرع السمع وشغل البال وحرك فؤاد من قوى النفس مدة السياحة يجده الناظر في الكتاب مستوفي البيان مشبة فيه الكلام بحسب المقام وقد قسمه الى مسامرات يتنقل فيها الفارئ تنقل المسافر ويجد فيها فكاهة المسامر كما يتتبع به المعلم والمتعلم فيكون للاول مفكراً منجماً وللتاني معلماً مفقها والله المستول ان يعم النفع بهذا الكتاب وان يجعل ذخيرة عندك ليوم المآب



بِكَ اسْتَعِين

المعاصر الاولي

العصر

حكى انه كان بقرية من قرى مصر فيما سلف من العصر  
 رجل من فتهاء الريف كان يصلي بالناس في جامع القرية  
 ويعلم اطفالهم كتاب الله عز وجل وكان من اهل الفضل  
 والصلاح رزقه الله على الكبر بولد سماه علم الدين تفاقولا بان  
 يكون من اعلام العلماء المجتهدين ثم انه رباه في كتابه وادبها  
 بحسن آدابه الى ان ترعرع الغلام وحفظ عن والده كتاب الله  
 العظيم وبعض متون صغيرة ومبادئ فنون يسيرة فرأى في  
 والده اثار الذكاء ومخائل النجابة وحسن التريجة ومحبة العا  
 والقبول لما يلقي عليه والقابلية لما يساق اليه فاراد اكمال تربيت  
 وتعليمه في اوان شببته حتى يلحق برتبة اكابر العلماء فقد قال  
 الحكماء علوا اولادكم صغارا تتفعلوا بهم كبارا وقابلوا من لم يتعا  
 في صغره لم يتقدم في كبره وقال الشاعر

قد ينفع الادب الاحداث في صغر

وليس ينفع بعد الكبرة الادبُ

ان الغصون اذا قومتها اعندلت

ولن تلين اذا قومتها الخشبُ

فوقع في نفسه ان يوجهه الى الجامع الازهر لما يعرفه في تلك البقعة الطاهرة من المحاسن الزاهرة والبركات الظاهرة فانه منبع الفضائل ومجمع الافاضل وموضع حسن التعلم والتعليم ومرجع طلاب العلم من الاقاليم فاراد ان يكمل فيه ولده دراسة العلم الشريف بملازمة دروس عظمائه من افاضل علمائه لينال ببركتهم الارب ويكتسب بصحبتهم العلم والادب وكان الشيخ قد تقارب عمره ولم يكن له ولد غيره فاستخار الله تعالى على هذه النية فانشرح لها صدره ومال خاطره فركن اليها وصم عليها واعاد لولده ما يلزم من الزاد والذخيرة وان كانت يسيرة وكتب معه مکتوباً الى صديق له في مصر القاهرة من مشاهير تجارها واعيان مشاهيرها يرجوه ان يكون لولده في جميع مهاته كالوالد وان يكون واسطة في اجتماعه على الصالحين من العلماء الاماجد ويقربته منهم ليسحوا بهذيبه ويذلوا النصيحة في تاديبه واوصى ولده بالطاعة والامثال لمعلمه فيما يعود نفعه عليه وان يصرف جميع اوقاته في تحصيل ما يرشدونه اليه وان يجنب المناهي واماكن الملاهي وان يكون في الغدوة والرواح مع اهل الصلاح ومن

لم شهرة بفعل الخير وحسن السير فقد قال العلماء اصطفى  
 من الاخوان ذا الدين والمحسب والراي والادب فانه رده لك  
 عند حاجتك وركن عند نائبتك وانس عند وحشتك وزين  
 عند عافيتك وقال الشاعر

تخيّر من الاخوان كلّ ابن حرّة

يسرّك عند النائبات بلاؤه

وقارن اذا قارنت حرّاً فانما

يزين ويزري بالفتى قرناؤه

وقال عديّ بن زيد

اذا كنت في قوم فصاحب خيارهم

ولا تصحب الاردي فتردى مع الردي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه

فكل قرين بالمقارن يتندي

ويحكى ان جماعة من اللصوص وقع القبض عليهم فاخذوا

الى السلطان فامر بتعلمهم جميعاً فتقدم احدهم وقال انا لست منهم

وانما كنت مغنياً لهم ولم افعل افعالهم فقال السلطان فغنّ حتى

نسمع فلم يجز على لسانه غير البيتين المذكورين لعدي بن زيد

فغنّى بها فلما بلغ الى قوله ( فكل قرين بالمقارن يتندي ) قال

السلطان سجان من انطقت وانا اول من صدّقك ثم امر به

فقتل معهم وهذه عاقبة من بصاحب الاشرار وبخالط الفجار

فإنه ان لم يفعل كافعالم نسب الى احوالم ثم ان الشيخ رحمه الله  
 ختم وصيته لولده علم الدين بتعليمه وظائف طالب العلم وما  
 يلزمه من الاداب التي يتوقف عليها كمال الوصول الى المطلوب  
 والحصول على تمام المرغوب فقال اعلم يا بني ان آداب المتعلم  
 كثيرة يطول تعداد تفاصيلها ولكن اخصرها لك في عشر جعل  
 تلقيتها عن المشايخ تكون لها كالاصول يتفرع عنها ما عداها

### الوظيفة الاولى

تقويم النفس من رذائل الاخلاق ومذموم الاوصاف  
 كالغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر وامثالها فكلها من  
 موانع التحصيل وقواطع السبيل

### الوظيفة الثانية

ان يقلل المتعلم علائقه من الاشتغال بالدنيا ويعد عن الاهل  
 والوطن فان العلائق صارفة وشاغلة وما جعل الله لرجل من  
 قلوب في جوفه ومما توزعت الفكرة فصرت عن ادراك الحقائق  
 ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك والفكرة  
 المتوزعة على امور متفرقة كجدول تفرق! ماؤه فنشفت الارض  
 بعضه واخطفت الحرارة بعضه فلا يبقى منه ما يجتمع ويبلغ  
 الزرع

## الوظيفة الثالثة

ان يداوم في تحصيل العلم على الاجتهاد والمجد ويصبر على المشقة والكد وينذل غاية الوسع والمجهود وي طرح الكسل والملل ولا يقطع الامل ولا يترك العمل ولو طال الامل وبعد المدد فقد حكى عن بعض المشائخ انه اثنى في اول امره الى الجامع الازهر لطلب العلم فمكث فيه مدة لا يصل الى فائدة ولا يحصل على عائدة حتى كلت قوته وفترت همته وادته الحال الى قطع امله وعزم على ترك الطلب والرجوع الى بلده واهله فقام ليخرج من الجامع تاركاً للتحصيل قاصداً للرحيل فلما قرب من بابه انفق انه راي دويبة من حشرات الارض تحاول الصعود في محل من حيطان الجامع وكان المحل صعب المرتقى عليها عسر الصعود بالنسبة اليها فصعدت مقداراً يسيراً ثم زلقت ارجلها فوقعت ثم قامت وصعدت مرة ثانية فوصلت الى ارفع ما كانت قد وصلت اليه اولاً ووقعت ولم تنزل كذلك تقع وترتفع مراراً حتى وصلت الى اعلى المكان حيث ارادت فقال في نفسه والله لا اكون العجز من هذه الدويبة الضعيفة فهذه من الله لي اشارة لطيفة ولحمة ظريفة فانها لما صبرت على مداومة العمل ظفرت بغاية الامل ثم انه عاد الى الطلب والتحصيل بنشاط جديد وهمة قوية وعزيمة ثابتة ونفس صابرة فما زال يجهد ويجتهد ويكد الى ان صار وحيد اوانه وفريد اقرانه وشيخ الاسلام في زمانه وصار حديثه عبرة لاولي

الالباب وقد قال الله سبحانه انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب

### الوظيفة الرابعة

ان لا يتكبر على العلم ولا يتامر على المعلم بل يلتقي اليه زمام امره في التعليم ويدعن لنصيجه اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق وينبغي ان يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب والشرف بخدمته فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس من اخلاق المؤمن التملق الا في طلب العلم فلا ينبغي لطالب العلم ان يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم ان يستنكف من الاستفادة من يراه خامل الذكر عديم الشهرة ولا يرغب في التعلم الا من المشهورين واصحاب المظاهر وهو عين الحماقة فان العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطلب مهراً من سبع ضارٍ يفترسه لم يفرق بين ان يرشده الى طريق النجاة رجل مشهور او خامل وضرر الجهل اشد من ضرر السبع والحكمة ضالة المؤمن يفتنهما حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها اليه كائناً من كان فلذلك قيل العلم حرب للفتى المتعالي \* كالسيل حرب للكان العالي فلا ينال العلم الا بالتواضع والتقاء السمع قال الله تعالى ( ان في ذلك لذكرى لمن كان له قلب او اتقى السمع وهو شهيد ) ومعنى كونه ذا قلب ان يكون قابلاً للعلم فهياً ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى ياتي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كلما

التي اليه بحسن الاصغاء والضرعة والشكر والفرح وقبول المنة  
فيكون المتعلم لمعلمه كارض مينة نالت مطراً غزيراً فشربت بجميع  
اجزائها واذعنت بالكليّة لقبوله وقد قال عليّ رضي الله عنه من  
حق العالم الا تكثر عليه السؤال ولا تعته في الجواب ولا تلح عليه  
اذا كل ولا تاخذ بثوبه اذا نهض ولا تنشي له سرّاً ولا تغتابن  
احداً عنده ولا تطلبن عثرته وان ذل قبلت معذرتة وعليك ان  
توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ امر الله تعالى وان كانت له حاجة  
سبقت القوم الى خدمته

#### الوظيفة الخامسة

ان يجتاز الخائض في العلم في مبدء الامر من الاصغاء الى  
اختلف الناس سواء كان ما خاض فيه من علوم الدنيا او من  
علوم الآخرة فان ذلك يدهش عقله ويحير ذهنه ويفتر رأيه ويؤيسه  
من الادراك والاطلاع بل ينبغي ان يتقن اولاً الطريقة الواحدة  
الحميدة المرضية عند استاذه ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب  
والشبه واختلف الاراء فان لم يكن استاذه مستقلاً باختيار راي  
واحد وانما عاداته نقل المذاهب وما قيل فيها على اختلافها فليحذر  
منه فان اضلاله اكثر من ارشاده فلا يصلح الاعى لثود العميان  
وارشادهم ومن هذه حاله يعد في عى الحيرة وتيه الجهل

#### الوظيفة السادسة

ان لا يدع طالب العلم فناً من العلوم المحمودة ولا نوعاً من

انواعه الا وينظر فيه نظراً يطلع به على مقصده وغايته ثم ان ساعده  
 العمر طلب التجرفيه والاشتغال بالاهم منه واستوفاه ونظر من  
 البقية فان العلوم متفاوتة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منه في  
 الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس  
 اعداء ما جهلوا قال تعالى (واذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا افك  
 قديم) وقال الشاعر

ومن يك ذا فمٍ مريـضٍ \* يجدُ مرأً به الماء الزلالا

#### الوظيفة السابعة

ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب  
 ويبتدىء بالاهم فان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالباً  
 فالحزم ان ياخذ من كل شيء احسنه فقد قال علي رضي الله  
 عنه وكرم وجهه العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شيء  
 احسنه وانشا يقول

ما حوى العلم جميعاً احد \* لا ولو مارسه الف سنة  
 انما العلم بعيد غوره \* فخذوا من كل علم احسنه

#### الوظيفة الثامنة

ان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان  
 العلوم مرتبة ترتيباً ضرورياً وبعضها طريق الى بعض والموفق من

راعى ذلك الترتيب والتدرج وذلك كترتب علم المعاني على النحو  
وعلم الهندسة على الحساب فمن خاض في فن وحاول تحصيله  
قبل ان يعرف الذي قبله فقد أحبط عمله وإضاع وقته في  
الباطل ولم يخرج بطائل قال الله تعالى ( الذين اتيناكم الكتاب  
يتلوننه حق تلاوته ) اي لا يجاوزون فنا حتى يحكموه علماً وعملاً  
وينبغي ان يكون قصده في كل علم يتجره الترقى الى ما فوقه

### الوظيفة التاسعة

ان يعرف السبب الذي يدرك به اشرف العلوم وذلك يراد  
به شيان احدهما اشرف الثمرة والثاني وثاقه الدليل فعلم الحساب  
وعلم الطب مثلاً اذا نسبتها لبعضهما وجدت علم الطب اشرف  
باعتبار ثمرته فان ثمرته حفظ البدن وثمره الحساب حفظ المال  
ووجدت علم الحساب اشرف باعتبار قوة ادلته فانها يقينية  
وملاحظة الثمرة اولى ولهذا كان الطب اشرف وان كان كثير منه  
بالتحمين والحساب مبني على اليقين وعلى هذا فاشرف العلوم علم  
الدين لان ثمرته حفظ الارواح ونجاتها من الوبال الابدي والشتاء  
السرمدى ولا ينبغي ان يفهم من هذا الاطراء والممدح لعلم الدين ذم  
غيره من العلوم ولا ينبغي ان ينظر اليها بعين الحقارة كعلم النحو واللغة  
وغيرها من الفنون المدوحة ولا يظن من تعظيم علم الدين وتفخيمه  
تହିين غيره من العلوم وتسيحها فان المتكفلين بالعلوم والقائمين عليها

كالمكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله  
 فمنهم المقاتل ومنهم المدد ومنهم الذي يجلب لهم المؤنّة والذي  
 يستقيم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويعدّها ولا ينفك احد  
 منهم عن اجر اذا كانت نيته حسنة وكذلك العلماء قال الله  
 تعالى ( يرفع الله الذين امنوا منكم والذين اتوا العلم درجات )  
 وقال تعالى ( هم درجات عند ربهم ) والفضيلة نسبية وكون  
 السلطان مثلاً اعظم من وزيره لا يدل على حقارة الوزير في ذاته  
 وكذا من دون الوزير وهكذا وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة  
 خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره ومن قصد وجه الله  
 وسبيل الخير بالعلم اي علم كان نفعه ورفعته لا محالة وينبغي ان  
 لا يحكم على علم بالفساد لوقوع الخلف بين اصحابه فيه ولا  
 بخطاء واحد او اّحاد فيه ولا يخالفتم موجب علمهم بالعمل فتري  
 جماعة تركوا النظر في العقليات والقهيات متغلبين فيها بانها لو  
 كان لها اصل لادركه اربابها وتري طائفة يعتقدون بظلال  
 الطب لخطاء شاهده من طيب وطائفة اعتقدوا صحة التنجيم  
 لصواب اتفق لواحد وطائفة اعتقدوا بظلاله لخطاء اتفق لآخر  
 والكل خطاء بل ينبغي ان يعرف الشيء في نفسه فلا كل علم  
 يستغل بالاحاطة به كل شخص ولذا قال علي رضي الله عنه  
 لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرفه اياه

## الوظيفة العاشرة

ان يكون قصد المتعلم التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة والتقرب الى الله عز وجل والتوصل الى تحصيل المنفعة المحمودة لنفسه باكمل الوجوه واعظها واحسن الطرق واسلمها والنفع لاخوانه واهل وطنه وسائر عباد الله تعالى فان احب الناس الى الله انفعهم لعباده ولا يتصد بتحصيله المفاخرة والمباهاة والمحاسدة للناس ومزاحمة ارباب الوظائف في وظائفهم ومضايقتهم في مناصبهم فان هذه المقاصد ذميمة وطلب العلم وان كان ممدوحاً في نفسه الا ان من قصده بنية ذميمة كان مذموماً بالنسبة له ففعل الصلاة مثلاً ممدوح في نفسه وطاعة الله سبحانه وقربة ولكن اذا اراده شخص بنية الرياء والسمعة والمختر كان مذموماً بالنسبة لذلك الشخص وهكذا العلم فينبغي لطالبه ان يحسن نيته ويخلص طويته ويتصد وجه الله وطريق الخير ينفعه الله ويرفعه في الحال والمآل ويبلغه غاية الكمال

ثم ان الشيخ بعد ان اتم نصيخته وانهى وصيته جمع عشيرته الاقربين وفيهم زوجه والدة علم الدين وقال لم وهو بيكي اني قضيت جميع عمري في اداء ما فرضه الشرع علي في حق الوالدين والاقارب ومن اتى الي وقد من الله تعالى علي بولدي هذا في اخر عمري واود ان يخلفني ويكون لكم بفضل الله عوناً من بعدي وجاهاً قائماً بحق صلة رحمه عاملاً بامر الله العام واتقوا الله الذي

نسالون به والارحام وبقوله تعالى وبالوالدين احسانا ولكن  
مقصودي هذا لا يتم الا بطلبه للعلم فانه الكاشف للبصيرة والمنور  
للسريرة والمأجى للجهل والمبلغ صاحبه درجة اهل الفضل وهو  
المؤنس في الوحشه والمحدث في الخلوه والمجلس في الوحدة  
والصاحب في الغربة والدليل على السراء والمعين على الضراء  
والزينة عند الاخلاء والسلاج على الاعداء وبالعلم يبلغ العبد  
منازل الاخيار في الدرجات العلى ومجالسة الملوك والكبار في  
الدنيا ومراقبة الابرار في الآخرة ولذا قال الشاعر

لا تدخر غير العلو \* م فانها نعم الذخائر

فالمرء لو ربح البقا \* مع الجهالة كان خاسر

قال الله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا

يعلمون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الدنيا

والآخرة مع العلم وشر الدنيا والآخرة مع الجهل ثم انه التفت الى

ولده في الآخر وخاطبه بقول الشاعر

العلم انفس شيء انت ذاخره

من يدرس العلم لم تدرس مفاخره

اقبل على العلم واستقبل فوائده

فاول العلم اقبال وآخره

ثم قال لمن عنده هذه قطرة من بحر وقطعة من قطر وللعلم

من المزايا الفاخرة في الدنيا والآخرة ما لا يحاط به ولا يدخل

تحت عد ولهذا قد استخرتُ الله تعالى وصممت النية على ارسال ولدي هذا الى محروسة القاهرة لطلب العلم وتحصيله في الجامع الازهر وتجده فيه لينتفع به مدة دهره الى اخر عمره وفي يوم حشره وقد هيئت جميع ما يلزم لسفره فلا تحزنوا لفراقه وادعوا له عسى ان يفتح الله عليه ويحسن بتنوير بصيرته اليه فابتهلوا جميعاً بالدعاء له وان يفتح الله عليه ويتقبل عمله وكانت والدته من ذوات الحسب مصونة العرض اصيلة النسب قد اعندت عليها الايام وصدعتها الامراض والاستقام فكف بصرها واختل امرها فرفعت راسها الى السماء وطلبت من الله القبول ونيل المامل وان يرده لبلده في صحة وسلامة مجهلاً باوصاف اهل الكمال متحلياً بمجال ارباب الجلال لينتفع به اهل بلده وليكون ردا لاقاربه وعشيرته وتضرعت الى الله بصوت خاشع وقلب خاضع وامن الشيخ وبقية الحاضرين ثم انهم ودعوا علم الدين وهم في نحيب وبكاء من حرقة الفرقة وبعد الشقه ومشوا معه الى ان انزلوه في مركب كان متوجهاً الى مدينة مصر واوصوا عليه ارباب المركب ورجعوا الى منزلهم بعد ان قبلوه وودعوه وقبل هو ايضاً يدي والده ووالدته وسار على بركة الله تعالى



## المسامرة الثانية

## سفر وعودة

فكان في مبدء سفره تارة يبكي لفراق اهله وبلده ولم يكن فارقم من قبل وتارة يفرح لميل قلبه الى العلم والرغبة في تحصيله لانه كان حافظاً للقرآن وكان يرى في نفسه ان فيه استعداداً لاتساع دائرة معارفه ولذلك كان دائماً يطلب من والده ان يرسله لطلب العلم حتى تم هذا الامر وكان احياناً يتكدر خاطره بسبب ركوب البحر وما يخشى من اخطاره لانه لم تكن سبقت له عادة به الا انه كان يتاسى بغيره ممن كان معه في المركب ويتسلى باختلاطه بهم والمحادثة معهم في اخبار مدينة القاهرة وما فيها من الغرائب فصار ينجلي ذلك الحزن عنه شيئاً فشيئاً حتى غلب عليه الفرح وطاب خاطره وانشرح خصوصاً وقد كان بالمركب في ضمن المسافرين رجل صالح لبيب من اهل القاهرة كان قد نزل الى الريف لقضاء بعض مصالح فقضاها ورجع وكان ذلك الرجل صاحب معرفة وتجربة يعلم من احوال الناس كثيراً لكثرة ممارسته لهم واختلاطه بهم فاتحد علم الدين معه وصار الرجل يصف له حال المدينة واهلها ويقفه بما يلزمه في الاقامة بها ويبين له كيف يكون سيره مع الناس اذا وصل وحاله اذا اخلط باهل الازهر واتصل ووعدته انه بعد الوصول الى مصر يزوره ورخص له في التردد عليه اي وقت احب ووصف له منزله وحراره فتسلى

الولد بذلك وقرناظره وطاب خاطره حتى انتقضت ايام السفر  
ودخلوا مصر آمنين فاخذ ذلك الرجل الى منزله واكرمه فبات  
عنده تلك الليلة وكان من جملة ما جرى بينهما من المحادثة ان  
حكى علم الدين للرجل ان معه مكتوباً لبعض اصدقاء والده  
وعرفه اسمه فوعده الرجل بان يده عليه فلما اصبح الصباح قام معه  
وتوجه به الى صاحب والده وسلمه المكتوب فلما قرأه فرح بالولد  
لان بينه وبين ابيه مودة عظيمة وصداقة قديمة فرحب به وتعهد  
له بان يكون له كوالده وامره بان يخبره بكل ما يحتاج اليه ليقضيه  
له وفاء بحق صحبة والده لانه من اعز الناس عليه فشكره علم  
الدين على معرفته وسأله ان يرشده الى كل ما يلزمه لانه مامور  
من والده ان لا يخرج عن رأيه وطاعته فقال له لا تعجل ففي  
غد ان شاء الله اتوجه معك واسلك لاحد الاساتذة واوصيه  
بك واتكلم معه بما تعود منافعك عليك وانتفا على ذلك ثم ان  
الرجل صديق والده خيره بين الاقامة في منزله او في مكان  
قريب من المسجد فاختر الاقامة في مكان قريب من المسجد  
ليسهل عليه حضور مجالس العلم في اول اوقاتها فاستحسن صاحب  
والده رايه ورأى بذلك من الامارات على مزيد اجتهاده ورغبته  
في تحصيل العلم وحرصه عليه ولما جاء الغد مضى معه الى الجامع  
الازهر وجمعه على شيخ من مشاهير علمائه كان بينه وبينه صداقة  
ووداد وله فيه حسن اعتقاد فوصى به ورغب اليه في القاء نظره

عليه ورعاية شأنه والعناية بأمره وإرشاده الى سواء السبيل في  
امر الطلب والتحصيل وترجاه كثيراً في ذلك وذكر له ما بينه  
وبين والده من المودة الاكيدة فقبل الشيخ رجاءه وامر علم الدين  
بمحضور الدروس في اوقاتها وبين له سبيل التحصيل ونهاه عن  
الكسل والتعطيل فصار الولد من وقتئذٍ ملازماً للدروس طول  
نهاره واذا جاء الليل ذهب الى بيته واقام غالب ليله يطالع  
الدروس المستقبلية ويتذكر الدروس الماضية ويحيي بعض الليل  
في تلاوة القرآن فما مضى عليه الا قليل من سنين حتى بلغ في  
علوم اللغة والنحو والصرف والعروض وفروع الفقه مبلغاً لا  
يصل اليه غيره في سنين كثيرة ثم اخذ يتعلم علوم البلاغة  
والاصول والتفسير والحديث وهكذا كان يتقل من فن الى اخر  
ومن درجة الى ما فوقها حتى برع في العلوم الثقلية والعقلية وصار  
يشار اليه بأطراف البنان ويضرب به المثل بين الاقران وما  
ذاك الا بدعاء والديه ورضى مشايخه واخوانه عنه وكثرة  
اجتهاده ونور بصيرته وقوة فؤاده وامثاله امر مشايخه واخوانه  
وحرصه على كل ما سمعه من مشايخ زمانه وكان من ذوي  
الالباب كامل الاخلاق والاداب اذا قعد في مجلس لا يتكلم فيما  
لا يعنيه واذا سئل احسن الجواب واصاب الصواب محباً لمجالسة  
اللطفاً ومجانسة الادياء حميد الخصال حسن الصفات والافعال  
شاعراً ادبياً فصيح اللسان لبيباً محمود الخلق والمخلق عند العام

والخاص يشهد له بذلك العلماء والأكابر والخواصّ وقد حاز جميع هذه الاوصاف المحمّدية والمزايا الفاتمة الفريدة في مدة يسيرة واعوام غير كثيرة لم يسافر فيها الى وطنه ولم يحنّ الى مسقط راسه وعطنه الى ان جاءه الخبر بموت والديه ومن يعزّ فراقهم عليه فتوجه الى البلد ليأتي باخواته الى مصر وكنّ ثلاثا من البنات خلفن ابوه بعد سفره الى مصر فاحضرنّ معه وقد باع كل ما تركه ابوه على اهل البلد وكان شيئاً قليلاً وذلك بعض اعزّ وحجارة وأنية فخاروشيء يسير من اثاث الدار فبلغ ثمن ذلك كله نحو اربعمائة قرش واشترى منه ما يحتاجه من الزاد ولوازم السفر وفي مدة اقامته في البلدة اجتمع عليه مشائخها ومشادوها والمجيران وتكلموا معه ان يقيم في وظيفة ابيه اماماً بجامعهم فشكر فضلهم وتنى عن ذلك قائلاً اني احب ان اتم دراسة العلم وبعد ذلك ان شاء الله تعالى اعود لبلدتي ومقر راسي فقالوا له جميعاً ان الذي حصلته انت من العلم الآن اكثر مما كان يعلمه ابوك فقد درست النحو والفقه وغيرها وبرعت في علوم كثيرة كما سمعناه من الناس كثيراً فضلاً عن حفظ القرآن وحسن تلاوته وكان ابوك لا يحسن غير تلاوة القرآن وشيء من العلم على قدر ما يلزم للإمامة وعقد النكاح بل انت الان فيك كفاية لان تتولى نيابة القضاء في القرية فلو بقيت عندما توجهنا بك الى قاضي الولاية وسعينا في توليتك نيابة القضاء في البلد والحول عليه فاني واعذر لم بان القضاء يحتاج

الى معرفة علوم شتى غير التي حصلها وانه لا ينبغي ان تعرض  
للقضاء وفصل قضايا الناس الا من كان متجراً في العلوم الشرعية  
متضلعاً من اصولها وفروعها واثقاً من نفسه بعدم الميل عن اتباع  
الحق في الحكم بين الخلق وانه لا يرضى ان يكون مسؤولاً يوم القيامة  
عما يحكم به خصوصاً اذا كان بدون ثبوت فقد قال صلى الله  
عليه وسلم لياتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى ان  
لم يقض بين اثنين في تمرة قط لاسيما وانه يخشى ان يغيره الطمع  
وحب الدنيا فيقع في حبال الشهوات النفسية فيظلم ويحكم على  
خلاف الطريقة الشرعية والعمر يتقضي ومتاع الدنيا قليل فالأولى  
بالعاقل ان يتمسك بعري التقوى فانها السبب الاقوى وامثال  
هذا الكلام فما كان يزيدهم تمتعاً الا رغبة فيه فلما لم يجد له مخلصاً  
من ذلك قال لهم عما قريب ان شاء الله تعالى يتم المقصود ويهدينا  
الله لما يريد وكان في المجلس رجل ضرير من اهل القرية يحفظ  
القران ووظيفته ان يملا ميضأة الجامع وكانوا بعد موت الشيخ  
جعلوه اماماً لهم في صلاتهم موقفاً الى حضور علم الدين من الجامع  
الازهر وتوليه وظيفة والده فلما حضر وابي فرح الضرير بذلك  
في نفسه بسبب انه يصير حينئذ مستقلاً بهذه الوظيفة ومحتاجاً من  
عقد نكاح وغيره وكان بعض مشايخ البلدييل الى الضرير فقالوا  
الشيخ سويلم يعنون الضرير رجل من الصالحين وحمله كتاب الله  
ونعرفه حق المعرفة فهو اولى من غيره فانفقوا جميعاً على تقليده هذه

الوظائف وقد كان ثم ان علم الدين توجه باخواته الى مصر  
واستأجرهن بيتاً في ربيع وانزلهن فيه وصار كل يوم ياتهن بجرايته  
المرتبة له بالازهر ولكنها لما لم تكن كافية لقوت اربعة نضايق  
فقصده بعض مشاهير اهل الازهر وشرح لهم حاله وحال اخواته  
ولكونه محبباً اليهم ومقرّباً لديهم سعلوا له في ترتيب جراية اخرى من  
المحلول ومع ذلك لم يكن فيما رتب له من الجرايتين كفاية لنفقته  
ونفقة اخواته فضايق من ذلك صدره وتحير في تدبير المعيشة امره  
والجائته الضرورة الى القراءة مع اولاد الليالي في الختمات وغشيان  
منازل اهل الخير والصدقات وقدر في نفسه ان ذلك وان كان  
فيه هتك المرات الا ان الضرورات تبيح المحظورات فكان  
يذهب معهم في بعض الليالي لقراءة الختمات ويتبعهم في الذهاب  
الى بيوت الامراء لاختذ الصدقات فحصل له من ذلك بعض  
اتساع في احواله وتخلص بعض التخلص من ضيق الفقر  
واحواله



## المعامرة الثالثة الزواج

ومضى على ذلك اربع سنوات يصرف نهاره في طلب العلم  
 وليله في قرأة الحتمات لكنه لصغر سن اخواته وعدم من يعولهن  
 ويقوم باصلاح شأنهن كان دائماً مشغول البال بهن فرغب في  
 الزواج ليستريح فؤاده من جهتهن ويتفرغ لطلب العلم والسعي في  
 تحصيل معيشتهم الا انه كان اذا تفكر في امر الصداق وكلفة  
 الزفاف ونفقة الزوجة وما يتبع ذلك من حقوق الزوجية وفي  
 أن ما يرد له في هذه الحالة لا يفي بذلك كله قلت رغبته  
 وضعفت نيته واذا ذكر قوله تعالى ( وما من دابة في الارض الا  
 على الله رزقها ) وقوله صلى الله عليه وسلم من تزوج يريد  
 العفاف فحق على الله عونته ) وقول عمر بن الخطاب اني لا تشعر  
 من الشاب ليست له امرأة ) كثرت في الزواج رغبته وقويت  
 نيته وهكذا فكان يتردد بين الامرين ولا يكشف له وجه الصواب  
 عن احد الحالين ثم انه قال في نفسه اين انت من الاستخارة وما  
 ورد فيها كقوله صلى الله عليه وسلم اذا هم احدكم بامر فليستخر  
 ربه فيه سبع مرات ثم لينظر الى الذي يسبق اليه قلبه فان فيه  
 الخير ) وقول بعض الصحابة كان صلى الله عليه وسلم يعلمنا  
 الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن ) فهلا استخرت او ذهبت الي

بعض المشائخ فاستشرت فاستخار واستشار وتبين له ان الزواج  
 هو الصواب ثم طراً له تحير اشد من الاول ولم يدرك على ماذا  
 يعول وهو انه هل يتزوج بفقيرة او غنية وهل الصواب ان  
 تكون ثيباً او بكرًا قال فكتت ذا قلب معذب وعزم مذبذب  
 لا اهتدي الى صواب ولا اميز بين التبر والتراب فنظرت في  
 كتب الاداب وما قيل فيها من هذا الباب فرأيت لكل مزية  
 وليست واحدة منها عما يجذر منه عرية لان البكر وان كانت درة  
 مخزونة وبيضة مكنونة لم يدنسها لامس ولا استغشاها لابس ولا  
 مارسها عابث ولا وكسها طامث الا انها ابية العنان بطيئة  
 الاذعان مؤنتها كثيرة ومعونتها يسيرة تقول انا البس واجلس  
 واطلب من يطلق ويحبس واما الثيب فهي وان كانت الصانع  
 المدبرة والفظنة المخنبرة عجالة الراكب وانشطة المحاطب الا انها  
 اللباس المستبدل والوعاء المستعمل دابها كنت وكنت وظالما بغى  
 عليّ فنصرت وشتان بين اليوم وامس واين القمر من الشمس  
 وامثال هذا مما قرأته في الاسفار وطالعت من منشور الاخبار  
 ومنظوم الاشعار ورايت ان الفقيرة وان كانت ترضى بالقليل  
 وتفتن باليسير الا ان ما يرد لي من الصدقات والحراية وقراءة  
 الختمات انما يكفي لاقواتنا على قدر اللازم فلا يفي بما يزيد لاجل  
 الزوجة من اللوازم وان الغنية وان ساعدت زوجها في امر  
 المعيشة الا ان لوازمها كثيرة ويجب لها من المحقوق ما لا يجب

لغيرها لا عنيادها على السعة في بيت اهلها وربما كانت المساعدة  
 التي تحصل منها لا تقابل بعض ما يجب لها خصوصاً وغالب  
 من اراه من اغنياء مصر في هذا العصر لا يقوم علم الزوج عندهم  
 مقام غناه بسبب جهلهم فربما قصد العالم الفقير بعضهم فردوه  
 واستهزؤا به ولم يريدوه لان الانسان عدو ما جهله ومن جهل  
 شيئاً عاداه وما زلت اقلب في مثل هذه الافكار والخواطر واتردد  
 بين الموارد والمصادر فازداد لي التخيير وتشعبت علي طرق التخيير  
 ووقعت من الحيرة في ليل بهم ولم ادري في اي واد اهم فرجعت  
 الى كتب الحديث والاعبار وما ورد عن السلف الصالح من  
 الاثار فقرات ما ورد عن جابر رضي الله عنه قال قال لي  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم أتزوجت قلت نعم قال ابكراً  
 ام ثيباً قلت ثيباً قال هلاً بكمرا تلاعبك وتلاعبها وامثال  
 هذا الحديث فرجعت البكر على الثيب ثم قرأت ما رواه الامام  
 احمد بن حنبل رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 قال اعظم النساء بركة ايسرهن مؤونة فقلت الفقيرة بالنسبة لحالي  
 ايسر مؤونة وبالنسبة لعيالي اكثر معونة واقرب للقناعة بقليل ما  
 لدي وابعد عن الترفع والتعاضم علي فصممت النية على البكر  
 الفقيرة بعد ان استخرت الله تعالى وكان لي صديق له اخت  
 فقيرة باللغة اسمها ثقيفة فخطبتها منه فاجاب وسميت له ما تيسر من  
 الصداق فرضي به وما عاب فاحضرت الشهود واولمت علي قدر

الموجود وعمدنا العقد وميزنا بين المؤجل والتد



### المعامرة الرابعة العيلة

قال الناقل فلما استقرت عنده وحلت بالمكان الذي  
اعده وجدها ذات ذكاء وبهاء راضية بما قسم الله لها تشكر على  
القليل ولا تنسى الجميل فبلغ علم الدين بها مناه وحمد الله سبحانه  
على ما اولاه حيث كفته المؤنة في تربية اخواته وتفرغ هو لطلب  
العلم وقراءة ختماته وكانت صاحبة فطنة تدبر بها منزلها وتحسن  
التصرف فيما عليها ولها وتعرف بعض صنائع كالحياطة والتطريز  
وكب الحرير وكلما تسر لها من ذلك تصرفه في لوازم المنزل  
من غير اسراف ولا تبذير ولما رأت ان اخوات زوجها لم يعرفن  
شيئاً من اللوازم المنزلية التي لا يستغني عن معرفتها النساء شمرت  
عن ساعد الجهد واخذت تعلمن جميع ما يلزمهن اذا تزوجن  
فاخذن في التعلم وصرن لها كبناتها فممن بخدمة المنزل وتفرغت  
هي لصنائعها وكلما تسر نصرفه في مساعدة زوجها فحسن حاله  
وراق باله ومكتوا على هذه الحالة اياماً متطاولة وليالي متوالية  
لا يخطر لهم اله بال ولا يحدث بينهم قيل ولا قال ثم انه وجد  
عندها ميلاً لتعلم العلم فصار يلتقنها منه قواعد الدين شيئاً فشيئاً

ويعلمها الكتابة فكتبت وحفظت القرآن وتعلمت من العتائد ما  
تحتاج لمعرفة ثم سألته ان لا يكتف عنهما شيئاً ما يعلمه فعلها  
العلوم الادبية والفقه والحديث والتفسير الى غير ذلك من  
المعتول والمتقول وهي مع ذلك مؤدية جميع ما يجب عليها من  
حقوق الزوجية فكان اذا دخل المنزل كانت له احسن جليس  
والطف انيس واذا خرج تفرغت لاشغالها وللطالعة في مطولات  
الكتب من التفسير والحديث والادب والفقه والاثار وقصص  
المتقدمين والخبار حتى جارتها في كل مضار واخذت معه في  
اودية العلم حيثما سار ولم تنزل سالكة طريق السداد حتى رزقهم  
الله باربعة من الاولاد فتعطلت عن مساعدته في امور المعيشة  
بسبب تربيتهم واشتغالها بخدمتهم لصغرهم وكثرتهم ومع هذا فكان  
يرى ان نعم الله عنده واحساناته غمرته فكان دائم الشكر لمولاه  
حامداً له علي ما اولاه الا انه كان يرى ان ما يرد له من الجراية  
والقرأة شيء قليل بالنسبة لكفاية العائلة لا يبرى لهم غليلا ولا  
يروى لهم غليلا لانهم صاروا تسعة هو واخواته الثلاث واولاده  
الاربعة وزوجه فيخشى الوقوع فيما فر منه والعود لما نزع عنه  
ويتامل في الحكمة الالهية والقسمة الربانية من كثرة العيال وضيق  
الحال ولا يجد لتفريج ما به من الضيق سبباً ولا للعلم باسرار الحكمة  
الالهية مطلباً ولكنه كان لورعه وتقواه يفوض امره الى مولاه ويقول  
مخاطباً لنفسه اذا كان بقسمة الله تجبري الامور فالصبر عليها

شكور مستوجب الاجور ومن غرس الصبر اجنى الظفر والصبر  
على الغصه ربما أدى الى الفرصه ومن فوض امره لمولاه كفي مؤنة  
لمولاه وعدم الرضا معاداة للقضا ويتذكر قول شهاب الدين في  
تهذيبه الجامع وتصنيفه النافع اذا لم يمض الزمان معك على ما  
تريد فامش معه على ما يريد فان الانسان عبد الزمان الى غير  
ذلك من المواعظ التي مرت به والمحكم التي تلقاها ايام طلبه وعند  
ذلك يرضى بحاله ويصبر على ابتلائه بكثرة عياله ولكن كان  
اذا مر باسواق المدينة ورأى الفواكه على ارجائها صفت واصناف  
الماكولات والمشروبات باكتافها اخفت او دخل بيتاً من بيوت  
جهلة الاغنياء والاوزاد الاغنياء ورأى ما لديهم من النعم والتوسع  
في المشرب والمطعم تذكر عياله وفقره واضمحلاله وكانت زوجته  
ايضاً بهذه الحالة الا انها كانت تبالح في كتمان امرها وتحذر من  
افشاء سرها خوفاً على تشويش خاطر زوجها كما كان هو كذلك  
يكتتم امره ولا يبدي سره واذا لاح له منها امارات الضجر سالها  
تطبيياً لحاظرها عن اسباب ضجرتها فتعلل بان ذلك لامر حدث  
بين اخيها وزوجنه او بينه وبين بعض قرابته فياخذ الكلام على  
ظاهره ولا يدقق عليها خوفاً من ان تخبره بالحقبة فيزيد تشويش  
فكره بلا فائدة الى ان دخل عليها مرة فوجدها في بكاء ووله لم  
يسبق في العادة لها وله فلم يسعه الاّ الاحجاج عليها في طلب  
الافصاح عن سبب بكائها ووجه حزنها وعنائها واقسم عليها

بالمودة التي بينه وبينها ان تخبره عن اسباب تغيرها والبكاء الذي  
 اضربها وقال لها ان كان ذلك عن امر حصل مني اعذر اليك  
 منه وانت تعلمين اني لا اريد غير ما يرضيك عني ومعاذ الله  
 ان اكون دنست في عشرتك او قصدت غير مسرتك فان كان  
 ذلك لامر فرط مني ولم اعلمه اعذرت اليك منه وان كان من  
 طبع لي كرهته نفسك بذلت غاية جهدي في التباعد عنه فاماطت  
 عن مكنون سرها الجلباب ونضت عن مستر ضميرها التمام  
 وقالت

---

### المسامرة الخامسة محاوره

استغفر الله لي ولك واساله ان يصلح عملي وعملك وينجح املي  
 واملك واقول لك الحق وامحضك الصدق ان البكاء الذي  
 عراني والنحول الذي اعتراني ليس لك فيه سبب وانما هي امور  
 جلبتها الى نفسي وخواطر اذهبت راحة عيشي وانسي فقال وكيف  
 ذلك قالت نظرت لبقرة حالنا وكثرة عيالنا فاسفت من ضيق  
 عيشهم في حياتنا وخفت من سوء حالهم بعد ماتنا وذهلت عن

قول الله تعالى ( وما من دابة في الارض الا على الله رزقها )  
فهذا الذي اجرى عبرتي واضرم نار لوعتي وارجوك ان لا تواخذني  
في ذلك فانك تعلم ان النساء اكثر من الرجال شفقة واعظم  
منهم رافة ورقة فقال لها ان الذي قام بفكرك قد اوقعني الشيطان  
فيه من قبلك فاجدني لا ادخل ولا اخرج الا حوقلت ولا ارى  
سوقاً ولا بيتاً مزخرفاً الا استرجعت وسجلت لما اراه من ضيق  
دويرتنا وشدة عيلتنا وارى الكثير من المنعمين في الدنيا وشهواتها  
مجردين عن العلوم الشريفة وادواتها وغالب اهل العلم والكمال  
في معزل عن السعة والمال فاجد العلم مقروناً بالفقر والجهل  
ملازماً للسعادة واعتقد ان الصواب ما ورد في الكتاب من قوله  
تعالى ( وبشر الصابرين ) وامثال ذلك لكن الحواس لا ترى  
الا ظواهر الاشياء والعقل ان لم تدرك صاحبه الطاف ربه بحكم  
بما شاهدهته وشهدت به فهذا الذي كان يعتريني فكنت اجتهد  
في اخفائه عنك واسأل الله دواء هذا الداء فانه وهن عظمي  
واوهي جسي وشغل فكري وحيرني في امري فقالت وانا ازيدك  
على هذا ان شئت ولا تواخذني ان اسأت فقال هاتِ قالت ان  
اكبر الفضلاء والمتقدمين من الحكماء قد اطالوا القول في مدح  
العلم واهله وربما جملوه باباً للرزق واصله حيث قالوا انه نور  
تستضيء به حواس الانسان فينظر بها الى ان تنكشف له مخدرات  
حقائق الاكوان فيكسر صاحبه حلال الجمال والهيبة والاجلال

وان الجهول يطمس بصيرة صاحبه ويهوي به في ظلمة الغي  
ومعاطبه ويحجبه عن مشاهدة الاسرار الربانية ويمنعه عن ادراك  
ما اودع في الاكوان من اللطائف الخفية ويقوده الى وادي الخبال  
ويكسوه ثوب المهنة والاذلال فلا يرى الا ظواهر الاشيا فيحكم  
عليها باحكام باطله واوهام عاطلة فيكون بمعزل عن الارادة  
الربانية والحكم الالهية فلا يميز على الحقيقة ما ينفعه مما يضره ولذا  
يقال في الامثال (الجاهل عدو نفسه) ومن كان عدو نفسه  
كان عدو ربه ومقتضى القياس الذي حرره اهل الميزان وقرروا  
والمفهوم الذي استتجوه من هذا المثل وقدروه ان يقال العاقل  
حبيب نفسه ومن كان حبيب نفسه كان حبيب ربه وذلك لان  
من عرف نفسه عرف ربه الى غير ذلك مما لا يعول في استخراج  
نتائجه الا عليك ولا سند لي فيه الا اليك ولكن اذا تقرر هذا  
فيه اشكال اريد ان استمد فيه رايتك واستطلع ما عندك قال  
وما هو قالت اذا كان العالم حبيب نفسه وحبيب ربه والجاهل  
عدو نفسه وربه كما قلنا وراينا الغنى والسعة عند اهل الجهل  
والفقر والقلّة مع اهل العلم والفضل كما تقول فما الحكمة في ذلك  
وكيف يكون الحبيب محروماً من نعم حبيبه المتقلب فيها عدوه  
فقال هذا قضاء الله السابق في مكنون علمه وهو الفعال لما يريد  
لا يسأل عما يفعل ولا معتب لحكمه وانما علينا الصبر والرضا  
بكل ما يجري به القضا لكي لانخرم الثواب في الآجل اذا حرمتنا

بعض المطلوب في العاجل فقالت مهلاً فهذا شيء عرفناه قديماً  
 وفرغنا منه تعلمًا وتعليمًا وأنا لا ريب عندي في ان الصبر سبيل  
 كل عاقل فضلاً عن الكمل الافاضل كما اني لا ارتاب في  
 ان كل شيء بقضاء الله وقدرته وحكمه ومشيئته ولكن مع ذلك  
 اعلم ان الله علت كلمته وجلت حكمته لا تخلو افعاله عن اسرار  
 عليه وحكم خفية او جلية فان الانسان من خلقه اذا اتاه حظاً  
 عظيماً من العقل وقدرًا وافراً من المحكمة وولاه جانباً من حسن  
 البصيرة والنظر في حقائق الأحوال وعواقب الامور والاطلاع  
 على غوامض الاشياء نجده ترفعت نفسه عن الباطل وتنزهت  
 أفعاله عن العبث وخلت اموره عن اللغو حتى لا يكاد يخلو  
 حال من احواله وشيء من أقواله وافعاله عن حكمة يريدتها  
 ونكتة يقصدها اذا امده الله بالعصمة وايده بالتوفيق ليمتضى المحكمة  
 فما ظنك بالصانع التقدير الحكيم الخبير الذي لا يغرب شيء عن  
 علمه كما لا يشذ شيء عن أمره وحكمه أيجوز لمن رزق لمحة من الفضل  
 او بلعة من العقل ان يظن به جل جلاله وتقدس كماله ان  
 يتطرق العبث الى ساحة شيء من امره او يخلو عن الحكم الجليلة  
 شيء من قضائه وقدره حاشا وكلاً ثم حاشا وكلاً نعم نعم مع  
 ذلك ان عقل العاقل وان جل امره وعظم قدره لا يمكنه  
 الوصول الى الاحاطة بحكم الله كلها ولا جملها وانما يصل الى  
 معرفة اقلها فان حكم الله المنطوية في تضاعيف المقدور المنبثة في

تصاريف الامور تابعة لما علمه بعلمه المحيط بكل شيء قل او كثير خفي او ظهر حضر او غبر اذ لا يخفى عليه شيء من صغير او كبير الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وعقل العاقل انما يحكم بحسب ما يراه في الاشياء المحاضرة من ظواهرها او ما يقرب الى الظهور من بواطنها وسرائرها فاما بواطنها المستكنة وسرائرها الغامضة ومستقبلاتها الغائبة التي لا سبيل اليها ولا دليل عليها فهو بعيد منها ومعزول عنها فمن اين له علمها وكيف يتألى له فهمها ومصداق ذلك اننا نجد في بني نوعنا من آثره الله علينا بمنزلة مزيد العقل ونور البصيرة وكثرة التجربة فاذا تفقدنا جميع احواله وانتقدنا كل افعاله ظهر لنا السر والحكمة في بعض اموره وخفي علينا ذلك في البعض الاخر من اعماله وربما رأينا بعضها خلواً من الحكمة في بادىء النظر ثم يظهر لنا اخر الامر ما كان قد خفي علينا اولاً من حكمته وانه فهم بكثرة عقله ما لم نفهم وعلم بزيد تجربته ما لم نعلم فان كان لنا حسن ثقة بعقله وفضل اعتماد على فضله بسبب كثرة موافقة الحكمة فيما علمنا سره من فعله لم يحملنا عدم معرفة السر والحكمة في امر من اموره على سوء الظن به والتدحج في حكمته او الجزم بخلو ذلك الامر عن الحكمة والسر في نفس الامر بل نحمل ذلك على قصورنا عن درجته وعدم وصولنا لما وصل اليه بكثرة معرفته وطول تجربته وقد يشير علينا بالشي من هو اكثر منا عقلاً وتجربة فنسفه رايه ونخالف قوله اذا لم يكن لنا فيه من الثقة مثل ما ذكر ثم نندم

على مخالفته ويظهر لنا بعد ذلك انه كان قد اشار علينا بما هو الصواب وظهر له ما خفي علينا فاخطانا بمخالفته وامثال هذا في كل عصر ما لا يدخل تحت حصر وكثيراً ما يتفاوت الناس في الآراء والانظار والاقوال والافكار فيرى الواحد منهم بفضله وتجربته ما يخفى على غيره لجهله وقلة خبرته ولولا ذلك لتساوى الفضلاء والجهلاء وانتقت الآراء والاهواء وقد يامر الرجل العاقل البصير ولده الصغير بشيء ينفعه ويعود عليه بعظيم الفائدة في حاله او استقباله فتكره ذلك الشيء نفس الصبي وينفر منه طبعه ولا يعلم له حكمة ولا فائدة لتصور عقله عن عقل والده هذا ولا شك ان نسبة عقل الصبي الصغير الى عقل الشيخ الكبير وعقل الغر الجاهل الى عقل الفطن البصير اعظم واجل من نسبة عقل العبد الذليل الى علم الرب الجليل بكثير فان الصبي الصغير والغر الجاهل لم يخرجوا عن كونهما من جنس الشيخ الكبير والفطن البصير ومن نوعهما وان قلّا في درجة العقل عنهما بخلاف العبد وربّه الذي ليس كمثل شيء فلا شبه ولا مناسبة بينهما فظهر ان العقل وان انكشف له بعض الحكم الالهية واطلعه الله سبحانه على شيء من اسرارها فلا سبيل له الى الاحاطة بجميعها ولا باكثرها فله عز شانه حكم مصونة واسرار مكنونة تتلاشى انظار البصائر دونها وتنفاني هم الاكابر عليها فلا يصلونها الا ان له مع ذلك حكماً ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار لا تخفى على احد من

ذوي الابصار فلا يجهلها غير صبي او من يقارب منزله من فاقد البصيرة غبي وبين ذلك حكم واسرار ليست كهذه في الظهور ولا كالاولى في الاستتار فمنها ما يعرف بيسير من التفكير ومنها ما يتوقف على كثير من النظر والتدبر ومنها ما ينكشف بالرياضة والمجاهدة والتقوى والعبادة ومنها ما يظهر لبعض الافهام دون بعض الافهام وما يظهر للخواص ويخفى على العوام يشهد لذلك المشاهدة والتجربة بما يغني عن اطالة الكلام في تفصيل المقام وكل ما ظهر لنا من ذلك فمن فيض الله وفضله وما طواه عنا فبحكمته وعدله فاذا كان كذلك فلا يحسن بنا اذا لم يظهر لنا السر في شيء من افعاله جل جلاله باديء بدء ان تقطع الامل من معرفته ونياس من روح الله في الوصول الى حكمته بل نطلب الحكمة على قدر الاستطاعة باشغال الفكر واعمال البصيرة والالتجاء اليه بحسن السيرة والسريرة حتى يعلمنا ما جهلنا خفاياه ويفيض علينا من بخر عطاياه فما افاض علينا علمه من ذلك شكرناه عليه وما لم يظهر لنا سره صبرنا على الطلب حتى نصل اليه فيحصل لنا بذلك مزيد الاجر والثواب من وجوه اما او لا فباستعمال النظر والفكر في مصنوعات الله سبحانه وتعالى والتماس حكمته فقد امرنا بالنظر والتفكير في مصنوعاته كما نهينا عن التفكير في ذاته وقد تقرر ان اليسير من فكر الجنان افضل من كثير من عمل الاركان واما ثانياً فبالشكر على ما يفيض علينا علمه والله

سبحانه يقول ( ولئن شكرتم لازيدنكم ) واما ثالثاً فبالصبر على  
الطلب وقد قال ( انما يوفى الصابرون اجرهم بغير حساب )  
ونستفيد مع حسن الاجر والمثوبة في الآجل ما ينكشف لنا من  
المعرفة والحكمة في العاجل وذلك نعيم الروح ولذة النفس ونزهة  
المخاطر ومسرة السرائر ولا ريب في ان معرفة الحكمة او شيء منها  
فيما يتأني للعقول البشرية ان تصل الى سر حكمته الزاهرة من  
افعال الله وعجائب مصنوعاته الباهرة ادعى الى تعظيم الله سبحانه  
ومحبته والخضوع له والاتجاه اليه والتقرب من حضرته والاعتراف  
بحسن حكمته واجلب لسكون المخاطر واطمئنان القلب وراحة  
السر ومزيد التسليم وحسن الرضا بالقضا وكل ذلك لا يخفى ولم  
يكن ما ارتكبت من اطالة المقالة قصداً الى تفهيمك فان كل ما  
عندي ليس الاً من ثمرات تعلبك ولكني لما سألت ذلك السؤال  
واوردت ما اوردت من الاشكال خفت ان يتطرق اليك سر  
الظن في اعتقادي فاردت ان اعرفك بحقيقة ما انطوى عليه  
فؤادي ولهذا اطنبت فيما قررت ورجع حاصل ما ذكرت الى  
خمس امور الاول اني اعلم ان كل شيء بقضاء الله وقدره الثاني  
ان افعال الله سبحانه لا تخلو عن حكمة وسر الثالث ان العقول  
البشرية لا يتأني لها الاحاطة بجميع حكم الله سبحانه وانما يمكن  
ها الوصول الى بعضها الرابع ان حكم الله سبحانه كما ان منها ما  
لا تصل اليه عقولنا كذلك منها ما هو في غاية الظهور والوضوح

لا يجناح الى طول نظر وتدبر ومنها ما هو بين هذا وذاك الخامس  
انا اذا لم يظهر لنا السر والحكمة في امر من اول وهلة فلا تقطع  
باليأس منه بل ننظر فيه ونلتبس بالحكمة له بقدر الاستطاعة  
وحيثئذ فلا باس بنا في النظر فيما اخذنا بصدده من المقام الذي  
بسبه انساق هذا الكلام وهو البحث عن الحكمة في ضيق عيش  
الفضلاء وفقير حالم ورجد عيشة الجهلاء وكثرة ما لم فان كان  
عندك في ذلك وجه حكمة فمك نستفيد والّا فلينظر كل منا  
بعقله حتى يفتح الله بما يريد فقال الشيخ احسنت فيما ابنت وتطولت  
بما طولت ولكن بقي عليك شيء كان يستدعيه استيفاء البيان  
واتمام الكلام ذلك انا اذا نظرنا في شيء من الامور الواقعة  
بقضاء الله وقدرته والتمسنا له وجه حكمة وسر استنبط بواسطة  
العقل على حسب ما يصل اليه الادراك وينفذ فيه الفكر فهذا  
لا يخلو من مزية بالنسبة اليها من سكون الخاطر وارتياح النفس  
كما قلت ولكن لا ينبغي لنا ان تقطع القول به ونجزم بان ذلك  
الوجه الذي لاح لنا هو في الواقع ونفس الامر عين الحكمة التي  
ارادها الله تعالى بذلك الامر والسر الذي بنى عليه وقدر بل  
يقول الانسان اظن الحكمة في هذا الامر كذا او لعل السر فيه  
كذا وكذا ويجوز ان يكون له في هذا الامر اسرار وحكم اخر  
وربما كانت الحكمة غير ما ذهبنا اليه بالكلية اذ لسنا معصومين  
من الغلط والوهم والخطاء فقطع القول في ذلك والنجزم به ان لم

يرد به دليل شرعي ونصّ قطعي اقدم على الحكم على مرادات الله سبحانه بالتخمين وهذا ينافي ادب العبودية اما الاخبار باننا نظن كذا فلا باس به لانه اخبار بالواقع وهو صدق لا محذور فيه مع تفويض علم الحقيقة الى العليم الخبير واما ما سالت عنه فللناس فيه اقوال كثيرة منها ان الله لما رزق العلماء ما رزقهم من كمال العقل والمعرفة والفضل جعل للجهلاء في مقابلة ذلك ما منحهم من رغد العيش وسعة المال وكثرة الغنى فكان الغنى للجاهل في مقابلة الفضل للفاضل لتعتدل القسمة ويتساوى الفريقان في الحكمة ولذلك قالوا . ذكآء المرء محسوب عليه . ومنها ان الله لما رزق الجاهل سعة المال تأتى للعلماء ان يتكسبوا من بعض اموالهم بواسطة علمهم وتعلم واحتيال الجاهل اليهم للانتفاع بعلمهم ولو في بعض الاحيان ولو كان الامر بالعكس وكان الامان مع اهل العلم والفضل ما كان للجهال وجه ينالون به من اموالهم فيختل الحال ويهلك الجاهل والله دراي تمام حيث قال  
ولو كانت الارزاق تاتي على الحجي

هلكن اذا من جهلن البهائم

ومنها ما يحكي عن بزرجمهر انه قال وكل الله الحرمان بالعقل والرزق بالجهل ليعلم ان لو كان الرزق بالحيلة لكان العاقل اعلم بوجوه مطلبه والاحتيال بمكسبه فدل على ان الامور تحري بفضائيه وقدرته لا يصنع ابن ادم وفكوته فكانت الحكمة في

هذا الهداية الى الله والدلالة عليه وارشاد العقول الى ان الامر  
كله منه واليه

نكد اللبيب وطيب عيش الجاهل  
قد ارشداك الى حكيم كامل  
وما ينسب للشافعي رضي الله عنه  
لو كان بالحميل الغني لوجدتني  
بنجوم اقطار السماء تعلمي  
لكن من رزق انجي حرم الغني  
ضدان مفترقان اي تفرق  
ومن الدليل على القضاء وكونه  
بؤس اللبيب وطيب عيش الاحق

فالت هذه وجوه خطابية ونكات ادبية يستانس بها في  
بعض المقال ولا تطرد في جميع الاحوال فكم راي الناس من  
عالم غني وفقير عني والذي يخطر بالبال ان العلم ليس من  
اسباب الفقر ولا الجهل من اسباب الغنى ولا ملازمة بين هذه  
الامور بل القضية على العكس والعلم احد موجبات الغنى والسعة  
والجهل احد اسباب الفقر والضعفة لولا عوارض واسباب اخر  
غير العلم وغير الجهل وذلك ان الله سبحانه لما جعل هذه الدار  
موضع الكسب والسعي والاختبار ربط الامور فيها باسباب عادية  
تحصل عندها وتوجد معها كحصول الشبع والري بالاكل والشرب

وامثال ذلك ما اجرى به العادة في خلقه ومن ثم امرنا بالسعي والعمل لا بالبطالة والكسل كما قال تعالى ( فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه ) وامثال هذا ما يطول بيانه ولا يخفى عليك تفصيله وبهذا يتضح ان الاخذ بالاسباب والتقلب في طلب الرزق والتشبث بوجوه تكسبه امثال لامر الله تعالى واتباع لجاري سنته وطلب منه بلسان المحال والافعال وهو اصدق من لسان المقال فهو اقرب الى القبول فكأن المتشبث بالاكل طالب من مولاه بلسان حاله وفعله افاضة الشبع والمتشبث بالشرب طالب كذلك للري والمصطلي طالب للدفء وهكذا الآخذ في اسباب الرزق طالب للرزق والله سبحانه جواد كريم فياض مطلق لا يخجل عنده ولا ضيق فيما لديه فهو يفيض على كل احد ما طله بلسان حاله وفعله الذي لا يدخله ما يدخل لسان القول من الكذب واذا تمهد هذا الكلام وتقرر الغرض في هذا التهيد قلت لك ان اهل العلم من لا مال عندهم لما قصروا جل افكارهم وعلقوا منتهى انظارهم على العلم والتشبث بوجوه تحصيله وكان ذلك طلباً له واستدعاء لافاضته كما ذكرناه افيض عليهم كما ان من لا علم عندهم من اهل الغنى لما سعوا في تحصيل المال واخذوا باسبابه وكدوا في طلبه افيض عليهم ذلك . نعم قد يرزق القاعد ويحرم الساعي المجد لاسباب اخر واسرار وحكم قد تعلم وقد لا تعلم الا ان كلامنا في العموميات والكليات لا في الخصوصيات والجزئيات فحق كل

فريق من هذين الفريقين اذا اسف على حرمانه ما عند الآخر  
 الا يوجه اللوم الألى نفسه ويرحم الله من يقول  
 وعاجز الراي مضياع لفرسته

حتى اذا فات امر عاتب القدرا

فقال الشيخ اراك قد سمت الكلام الى حد اردت به توجيه  
 الملامة على واتهامي بالتقصير في الطلب وان ما نحن فيه من قلة  
 المال وضيق الحال انما هو من تقصيري في الاخذ بالاسباب  
 قالت ينبغي ان لا يكون في هذا ارتياب وها انت قد حصلت  
 من العلم ما تعلقت به امالك ووصلت فيه ما لم يصل اليه امثالك  
 وانت الان بمحمد الله في صحة من جسمك وقوة من عقلك فاذا  
 عليك لو اخذت لنا فيما يكون فيه حسن الحال وراحة البال من  
 الرزق الحلال ففي علمك ان للعبد ذنوباً لا يكفرها صلاة ولا  
 صيام يكفرها السعي على العيال فقال الشيخ ومتى قصرت في  
 الطلب وكيف لنا تحصيل الارب فقالت طرق الوصول الى  
 الرزق غير محصورة واسبابه غير محظورة فمنها ما يوصل الى قليله  
 ومنها ما يوصل الى كثيره على حسب تفاوت الناس واخلاف  
 درجاتهم وتباين حالاتهم وانما الصعوبة في معرفة احسن الطرق  
 الموصلة اليه بالنسبة الى الشخص والاهتداء لسلوكها فان الانسان  
 في حال صغره الذي هو وقت تعلمه لا يتأني له معرفة ذلك  
 لضعف قوته العقلية كقوته الجسمية فهو اذ ذاك كل على اهله

مضطر للاقتياد لهم واتباع آرائهم فيوجهونه الى ما يوجهونه اليه مما يرونه نافعاً له وهو لا يدري اني ذلك خير له ام شر وعاقبته نفع له ام ضر فاذا ترعرع وكبر وبلغ اشده وملك زمام امره واخذ يحكم عقله في التميز بين ما هو نافع له او انفع وضار او اضر والترجيح بين ذلك والاختيار لما يراه خيراً له فحيثئذ اما ان يوافق رايه راي اهله فيما ارادوه له واخذوه بسلك سبيله او يختلف الراي فان خالف رايه راي اهله ولم يستحسن ما اخاروه من اجله كان يكون اهله قد اخاروا له من صغره صنعة الكتابة والزموا الاشتغال بتعليمها فلما كبر لم يستحسنها طبعه ورأى ان الاشتغال بصناعة الخياطة او الحياكة مثلاً خير له من الكتابة لكونه راي بعض المشتغلين بها احسن حالاً وانعم بالا من بعض المشتغلين بالكتابة فاذا كان كذلك ضاع عليه ما قضاه من عمره في تحصيل الكتابة وربما كان ما اخاره كالخياطة مثلاً وان كان انفع له في نفس الامر فرضاً يحتاج الى تعلم ويحتاج التعلم الى وقت قد لا يساعده عليه حاله ثم هو في وقت تعلمه الصنعة التي مال اليها هواه لا يمكنه التمسك منها فان ذلك لا يكون الا بعد اتقان معرفتها مع احتياجه في زمن التعلم الى النفقة وقد يشتغل بتعلمها مدة فيطول عليه زمن التعلم فيسأم ولا يجد فيها كسباً عاجلاً فيندم والحاصل انه يخل حاله ويتذبذب امره ويخار فيما يخار ويكون حاله كما يحكى عن الغراب في الامثال المضروبة انه لم تعبه مشيته

الموروثة عن ابيه فاراد تقليد بعض الطير في المشية فاخذ يمرن  
 نفسه على ذلك ففسي مشيته الاصلية ولم تحصل له المشية التي  
 ارادها وبقي يججل في مشيه كما نراه وهكذا حال من ذكرناه من  
 خالف رايه راي اهله فيما علموه له في صغره فلا هو حصل الغرض  
 ما اراده ولا انتفع بما كان قد تعلمه بل ربما نسيه بالكلية وضاع  
 عليه ما قضاه فيه من عمره وساء حاله وتحير في امره وربما كان  
 من الاغرار فينضم اليه جماعة من الاشرار فيلعبون بعقله ويزيدونه  
 ضلالاً الى ضلاله وخبالاً على خباله فان كان عنده بعض مال  
 ورثه عن ابيه احتملوا على فنائيه فذهبوا به من مكان الى دكان  
 واتقلبوا معه من خان الى خان الى ان يصبح فقيراً معدماً نادماً  
 سادماً وان كان من اصله فقيراً حسنوا له اموراً قيحة قل ان  
 يحصل منها على الكفاية وربما آلت به الى الفضيحة وعلى كل  
 حال يندم حيث لا ينفعه الندم ويبقى على اسوء الحالات الى  
 ان يدركه العدم واما ان وافق رايه راي اهله واختار ما الزموه  
 بسلوك سبيله فانه تعود عليه منفعته ما تعلمه ويحني ثمرته ولا يضيع  
 عليه ما قضاه فيه من عمره ولا يفصل فاصل بين العلم والعمل  
 وبهذا يحسن حاله ويبلغ الامل واذا تقرر هذا على وجه العموم  
 فلنتقل الى الكلام على وجه الخصوص فنقول لاشك ان اهلك  
 حين ارسلوك الى الجامع الازهر لم يقصدوا لك الا الخير فان  
 كنت راضياً بالطريق الذي رسموه لك فلماذا عرضت عن

مقصودهم وزهدت في مرغوبهم فقال لها وكيف ذلك فقالت  
 انت اخبرتي ان والدك المرحوم كان قفيا وامامًا بمسجد قريته  
 فبالضرورة اراد حين ارسلك الى الجامع الازهر ان تكون مثله  
 لتقوم مقامه فلا يخلو حالك الان من احد امور ثلاثة اما ان تكون  
 دونه او مثله او فقت عليه فان كنت دونه كان لك في الاقامة  
 وجه الا أنك اذا فارزت ما مضى من العمر بما بقي منه وجدت  
 الباقي ليس وقت تحصيل وان كنت مثل الوالد او اعظم فلا وجه  
 للاقامة حينئذ بل الواجب عليك ان تتفوا اثره فيما كان عليه  
 وتنبع راي والديك فتتخلص انت وعيالك من ضيق المعيشة  
 واقامتك في الارياض على اي حالة احسن لان النقة هناك اقل  
 والمؤنة ايسر والهواء انقى واحسن والصحة اكمل ومع هذا يتنفع منك  
 اهل البلد بتعليمك لم امر دينهم وتتفنع منهم انت بما تستعين به  
 على امور المعيشة ما يقسمه الله ويجريه لك على ايديهم وتستفيد مع  
 ذلك ثواب الله بتعليمهم ولا يخفى عليك مزيد ثواب التعليم وان  
 الله سبحانه كما امر العباد ان يتعلموا امرهم ان يعلموا غيرهم ( واذ  
 اخذ الله ميثاق الذين اتوا الكتاب ليعيننه للناس ولا يكتمونه )  
 وقد قيل العلم كالشجرة فكما ان الشجرة زيتها ثمرها كذلك العلم  
 زيتته العمل به وتعلمه وهذا الذي ذكرته لك مبني على انك راض  
 بما قصده لك اهلك فان كان الامر بخلاف ذلك وانك قصدت  
 متصدًا لم يتصدوه ورغبت في امر لم يريدوه فقد ضيعت العمر في

الطلب ولم تدرك ثمرة التعب مع ان من واجب العلم تعليمه للغير  
والا كان صاحبه كمن لم يعمل بعلمه وقد علمت الوعيد لمن هذه  
صفته نعوذ بالله من ذلك

فقال الشيخ انا بحمد الله لم اترك تعليم العلم من حين وجدت  
في نفسي القدرة على ذلك فاني مواظب على التدريس في الجامع  
الازهر لطلبة العلم مجتهد في تعليمهم على قدر الاستطاعة

قالت لا يخفى عليك ان احتياج اهل الريف للتعلم اكثر  
وليس فيهم مثلك يعلمهم واما طلبة العلم في الازهر فانهم  
يجدون كثيراً من العلماء يعلمونهم ولعل فيهم بعض مشائخك  
الذين تعلمت منهم فاهل الريف احوج اليك واولى بك فاقامتك  
بينهم انسب وتعلمك لم اصوب واعلم انه اذا كان في يدك  
مال تريد ان تصدق به ووجدت رجلاً فقيراً بين قوم اغنياء  
من اهل الخير يوالونه بنققاتهم ويبرونه بصدقاتهم وعلمت برجل  
اخر مسكين بين قوم فقراء لا يجد من يتصدق عليه بما يسلك  
رتمه ويحفظ حياته من القوت الضروري فمن مقتضى الحكمة  
وحسن الراي ان تؤثر بصدقتك هذا المسكين الذي لا يجد  
من يتصدق عليه وترجمه على ذلك الفقير المقيم بين اظهر المحسنين  
اليه وهكذا ايضا حال اهل الريف وطلبة العلم في الازهر من  
حيث الاحتياج الى التعلم وهب انك في مصر لا تفوتك هذه  
المزية من تعليم العلم الشريف فاين غيرها من باقي المزايا التي

## ذكرناها للاقامة في الريف

فقال لها قد اطلت في المقام واكثرت علي الملام ولكن  
 هناك اعذار واهوال واخطار لولا مناقشتك ما سمحت نفسي  
 باظهارها لك فقالت له هات ما عندك قال لو علمت حال اهل  
 الارياف وما هم عليه من الظلم والاجحاف لما رغبت فيه ولا رضيت  
 به فانهم لا يرحمون فقيراً ولا يوقرون كبيراً ولا يفهمون قبيلاً ولا  
 يهتدون سبيلاً فقهاؤهم دائماً تحت رايهم وامرهم ونهيمهم وان فهموا في  
 انفسهم غير ذلك فلجهلهم وان وصل اليهم شيء من الدنيا فانما  
 يكون بالالحاج وارقة ماء الحياء فهل يرضى بهذه المحالة والاقامة  
 مع اهل الجهالة من كان ذا فضل وعفة فان اارقة ماء  
 الوجه لا يرضى بها الا جاهل وكيف اعلم ذم ذلك واقع فيه  
 وكل ما اكتسبه منهم لا يقوم مقام بعض ما يضيع مني بالاقامة معهم  
 لان العلم يزيد بالممارسة وينقص بعدمها فمع من تكون الممارسة  
 هناك ولا يوجد بقري الارياف الا صاحب ارض فلا يتكلم الا  
 في حرثها وبذرها وحصدها ونجار فلا يتكلم الا في انواع الاخشاب  
 وما يصلح منها للسواقى والسقوف والابواب او صياد سمك فلا  
 يتكلم الا في شبكته وفي انواع السمك وبركته وهكذا دأبهم من  
 اول السنة الى اخرها فلا يقيم معهم الا من كان مثلهم فان اقام  
 عندهم عالم ضاع علمه وتبدلت صفاته المحمودة باضدادها لان الطبع  
 يسري كما قيل

طبع الفتى يُسرق من طبع من \* يصحبه فانظر لمن تصحب  
فقلت له اما ما ذكرته من سوء حال اهل الريف فهو حجة  
لي عليك لالك عليّ فان هذا ان كان كذلك فانما هو من  
شدة جهلهم فهم اذا احوج الى مثلك يقيم بينهم فيقوم بتعليمهم  
وتفهمهم ما يجوز وما لا يجوز وتوفيقهم على ما ينفع وما يضر واما  
قولك ان من يكون عندهم يصعب علمه فحسبك في هذا قوله  
تعالى ( واتقوا الله ويعلمكم الله ) واما ما ذكرت من ان من يقيم  
معهم تسري اليه طباعهم ومساوي اخلاقهم وقد خفت ذلك على  
نفسك فهذا ليس بالنسبة لك ولا مثالك الذين كملت نفوسهم  
ورسخت في المعرفة اقدمهم واستنارت بنور اليقين بصائرهم وانطبعت  
على الحق والهدى قلوبهم وانما يخاف من ذلك على الاحداث  
والاغرار الذين لم يبلغوا من الفضل تلك الدرجة ولا وصلوا من  
الكمال الى تلك الغاية اما الكاملون المكملون فلا يؤثر في حسن  
طباعهم سوء طباع غيرهم بل يعلو حتمهم على باطل سواهم ويسطو  
نور معرفتهم على ظلمات جهل غيرهم فان الريح العاصف اذا  
اقتلعت الشجرة والمدرة والصخرة فلا تقتلع الجبل الراجح ولا تزحزحه  
عن مكانه وقد علمت ما علمت من حال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم وغيره من الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم  
اجمعين كيف اقاموا بين قومهم من الكفار والمشركين الضالين  
المضلين بدعوتهم الى الحق ويرشدونهم الى الهدى وماخذون بايديهم

الى سبيل النجاة ويرشدونهم الى مكارم الاخلاق وينفرونهم عن  
 ذميم الاحوال وليس حال من احضك على تعليمهم واحثك على  
 الاقامة بينهم كحال اولئك الذين كان يقاسي منهم الانبياء ما  
 يقاسون وهم يدعونهم الى الله تعالى ويرشدونهم الى الخلاص من  
 الهلاك فقال الشيخ او نحن كالانبياء والمرسلين قالت قال الله  
 سبحانه ( لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة ) وقال جل  
 شاناه ( قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني ) وقال عز من قائل  
 ( قل هذه سبيلي ادعوا الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني ) فكما  
 اتباعه صلى الله عليه وسلم بالدعاء الى الحق وارشاد الخلق كما كان  
 دابه وديدنه طول حياته وقد اتبعه في ذلك من بعده جماعة  
 الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين فهدى الله كثيراً  
 من الخلق على يدهم فهم على الحقيقة ورثة الانبياء صلوات الله  
 وسلامه عليهم اولئك الذين هدى الله فيهداهم اقتده وعلى الجملة  
 والتفصيل فقد ظهر من قولك وفعلك مخالفة رأيك لرأي اهلك  
 فانك لو اقتصرت على ما كان حصل عليه الوالد من حفظ  
 القرآن الشريف وبعض خطب ومعرفة ما تدعو اليه الضرورة  
 ويكثر ميسر الحاجة اليه من فروع الفقه لتبعت رأيهم فيما قصدوه  
 ولكنك علمت اموراً جهلوا فكرهت ما احبوه وعدلت عما ارادوه  
 واذا لم تر ما راوه فاي طريق رضيت لنفسك وما هو المقصود  
 الذي تروم الوصول اليه فان كان مرادك من العلم امر الدنيا فما

انت لم تحصل منه على الغرض وان كان مرادك الدين والتقرب الى الله سبحانه فقد قلنا ان تعليمك المخاجين اشد الاحتياج للامور الضرورية من دينهم اولى واقرب الى الله واكثر ثواباً مما اراك تقضي فيه عمرك وتشغل به اوقاتك من البحث والمجدال والقتيل والقال والجواب والسؤال والحل والاشكال واعتراض واجيب وفيه نظرويرد عليه وقد يقال ولا يقال ونحو ذلك مما انت عاكف عليه ومنهمك فيه ومقتصر على تعليمه لجماعة من الناس في موضع معين من الجامع الازهر لا تتجاوزه ولا تتخطاه الى غيره كأنما جاء التنزيل والنص القاطع بان العلم لا يتجاوز ذلك الموضع من ذلك الجامع

قال الشيخ قد يوفق الله سبحانه من اعلمهم العلم في ذلك الموضع فيتعلمون وينشرون في الارض يعلمون الناس ويقومون بهذا المهم

قالت فما الذي يؤمنك ان الذين يعلمون علمك يكونون مثلك ويسلكون سبيلك في الاقتصار على طائفة في ذلك المكان المخصوص فيبقى العلم منحصراً فيه والمطلوب انتشاره وتعميم النفع به وهب انهم لا يكونون على طريقتك فاذا سلمت ان الذي اشرت به عليك افضل مما انت فيه فلم لا تختار الأفضل لنفسك أستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير

قال لا نسلم ان ما اشرت به افضل

قالت اسالك عن شيء واناشدك الله ان تقول الحق ولا تحاول في الجواب قال سلي عما شئت قالت اذا فرض رجل من العامة وقع بسبب جهله في عقيدة مكفرة لا يتم معها ايمانه فنبهته عليها حتى صحت عقيدته وتم ايمانه ورجل اخر منهم كان لا يحسن وضوءه مثلاً فصلاته بالضرورة فاسدة فعلته كيف يتوضأ فصار يحسن الوضوء الموقوف عليه صحة الصلاة ورجل من طلبة العلم كان يجهل مسألة من الصرف او النحو او البيان او المنطق مثلاً فعلته اياها حتى اتقنها غاية الاتقان فتواييك في اي واحد منهم اكثر وتعليم ابيهم عند الله افضل

قال الشيخ الحق الحق ان يتبع اللهم اني ارى ان تعليم الاول افضل من الثاني ثم الثاني افضل من الثالث

قالت فاذا لم يبق بيننا نزاع في ان الافضل تعليم هؤلاء المساكين المحتاجين لمعرفة الاوليات المهمة من دينهم وانت ترى التاجر في السوق اذا خيّر بين سلعتين من امور تجارته اخيار ما يعلم انه اكثرها له رجحاً وفائدة اذا كان له ادنى عقل فان كنت انت من تجار الآخرة فلم لا تفعل مثل ذلك ولم تخالف المقول فتترك الافضل وتقتصر على المفضول حتى انك ترى كثيراً من جيراننا ومن حولنا من اهل هذه المحلة جهلاء بكثير من الامور الضرورية لم في دينهم فمنهم من لا يحسن الصلاة ولا الوضوء ولا يفرق بين طهارة ونجاسة ومنهم من يعتقد بعض عقائد فاسدة مضرّة ومنهم

من يقول كلاماً يكفر به وهو لا يشعر ولا نجد من يعلمهم أو ينههم  
وتراهم على هذه الأحوال ولا تبالي بامرهم ولا تهتم بشانهم وهم جيرانك  
واخوانك وانت تعلم انه لو قصد احدهم الازهر على الفرض  
والتقدير ووقف على دروس العلماء فيه فانه لا يعقل ما يقولون  
ولا يتفجع بما يقررون فانهم يتكلمون بما لا يفهمه من الالفاظ  
الاصطلاحية بل انت تعلم ان الواحد منهم لا يدري بفساد عقيدته  
او عبادته حتى يسعى في تصحيحها فلو قصدت وجه الله سبحانه  
بعلمك وعملت بمقتضى محبة الله ورسوله واملته وامته لكنت تشفق  
عليهم وتنصح لهم وتواظب في وقت من اوقات الليل والنهار على  
مسجد محلتنا القريب من دويرتنا هذه فتعقد فيه بين المغرب  
والعشاء مثلاً وتعقد لمن تراه هناك منهم درسا تعلمهم به كيف  
يتوضأون ويصلون ويصومون وكيف يعبدون الله تعالى عبادة  
صحيحة وكيف يكون البيع صحيحاً وكيف يكون فاسداً ونحو ذلك  
من الامور الضرورية لهم في دينهم ودنياهم فمنهم من تنصلح على يدك  
عقيدته ومنهم من تصح بتعليمك عبادته ومعاملته وفي ذلك من  
الاجر والثواب والمنزلة عند الله سبحانه ما لا يقدر اللسان على  
وصفه وانت اعلم مني بقدره مع انه لا يقطعك عما انت بصدده  
فلم تعرض عنه وقد علمت ان الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة  
المسلمين وعامتهم فاعراضك عنه لا يظهر له وجه الا اذا قلت  
معمدة على حسن عنوك مغترة بفرط حالك راجية عدم المواخذه

من جهتك إن قصدك بالعلم مجرد التباهي به والتظاهر بالتبحر فيه والقدرة على التعمق في مسائله الدقيقة والحوض في بحاره العميقة فتقول لك نفسك إن تعليم هؤلاء العوام لا يحتاج إلى كثرة علم وجودة فهم فلا يظهر به فضل الإنسان وسعة علمه وحدة ذهنه فما لك به وليس لك فيه فائدة وإمثال ذلك مع أن فيه أعظم فائدة من ثواب الله ورضاه ورحمته والتقرب من حضرته فلا هذه المنزلة وصلتها ولا مقاصدك من أمور الدنيا حصلتها ولو اخلصت لله سبحانه النية والعمل لأنك الدنيا من حيث لا تحسبها واتقادت اليك عفوا على أن الاشتغال بأمور الدين وإبتغاء مرضاة الله لا ينافي الاشتغال بأمور الدنيا من وجوه الحلال فاعمل لاخرتك ودنياك معاً وابتغ فيما اتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك وقد تربيت في كفاية اهلك في صغرك فعليك أن تعول ذريتك وعيالك في كبرك وتسعى لهم بما يصلح حالهم وينعم بهم من المعاش الطيبة بالكسب والسعي في طلب الرزق الحلال وإبتغاء فضل الله سبحانه وقد قال جل جلاله ( فاتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله ) وقال ( وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله ) وقرأت في كتاب مرشد المؤمنين لمحمد بن عبد الكريم الحلبي بخطه نقلاً من مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنها قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن من الذنوب ذنوباً

لا يكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الحج ولا العمرة ولا الجهاد يكفرها  
 اللهم في طلب المعاش وما نقله منه عن أبي سعيد الخدري رضي الله  
 عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل الأعمال الكسب  
 من الحلال ومنه عن أنس رضي الله عنه قال رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك ديناه لاخرته ولا اخرته لديناه  
 حتى يصيب منها جميعاً فان احداها بلغة الاخرى ومنه عن أنس  
 ايضاً من لم يقيم في امر معيشته لم يقيم بامر دينه والنفس لا تكون  
 متفرغة للطاعة حتى يكون يكفها الكسرة التي تقوم بها فاذا استكملت  
 امور قوتها صدقت عند ذلك وسكنت وتفرغت للعبادة فاغدوا  
 وروحوا واطلبوا من فضل الله وامثال ذلك في الحديث الشريف  
 كثير . وروي ان عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال ما تصنع  
 قال اتعبد قال من يعولك قال اخي قال اخوك اعبد منك  
 وقال لقمان لابنه يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فانه ما  
 افتقر احد قط الاّ اصابه ثلاث خصال رقة في دينه وضعف في  
 عقله وذهاب مروءته واعظم هذه الثلاث استخفاف الناس به وقال  
 عمر رضي الله عنه لا يقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم  
 ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وكان زيد ابن  
 مسلمة يغرس في ارضه فقال له عمر رضي الله عنه اصبت استغن  
 عن الناس يكون أصون لدينك وأكرم لك عليهم وكان اصحاب  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرون في البر والبحر ويغرسون

ويعملون في نجيلهم وهم أئمة الهدى وبافعالهم يتتدى فما هذا التقاعد والتقاعد عن الكسب والسعي في طلب الرزق وما لك لا توسع على عيالك ومالي اراك تصرف جميع اوقاتك في المطالعة والبطالة وهلاً قسمت وقتك قسيتين قسم تصرفه في العلم والعبادة والقسم الاخر في طلب الرزق واذا كنت لا تطيب نفسك بالاقامة في الريف معاً ذكرت لك فلا باس عليك اذا تثبتت هنا بالسعي على العيال والكسب من الحلال مع الاشتغال بتعليم الطلبة وبعض العوام من الجهال

فقال وأي سعي تريدنه وما الذي ترينه

فقلت العاقل من اتدى باهل حرفته وامثاله وخرفته وقد علمت ان كثيراً من امثالك لهم مراتب ووظائف واقطاعات ولا أرى احدا منهم الا وهو ساعٍ في طلب الرزق ان كان فقيراً وفي زيادته ان كان غنياً فلو تصدبت لهذا الامر وسعيت فيه فما اظن ان سعيك يضيع عليك فقد قيل من جد وجد ومن لج ولج فاقصد من تتوسم فيهم الخير من ارباب الكلمة وتودد اليهم وتعرف بهم فان عرفوا كنه قدرك ووقفوا على حقيقة امرك اعترفوا بفضلك وعظموك ووقروك ولا ارى في ذلك من محرم ولا مكروه بل ربما كان واجباً فانا مامورون بالسعي والناس جميعاً غنيم وقهيرهم محتاجون لبعضهم وربما كان احتياج الغني الى الفقير اكثر من احتياج الفقير اليه لان الغني يغلب

عليه حب العظمة والترفع والترفة فلا يشتغل إلا بالامور المهمة الكلية ويكفل أموره الجزئية لخصارتها الى غيره فيحتاج للفقير ليقوم له بها ثم ان كان ذلك الغني صاحب مروءة ومعروف انتطع الفقير اليه ولازمه وان كان بخلاف ذلك تركه ولاذ بغيره وهكذا حال الفقراء والاغنياء مع بعضهم

فقال لها هذا الكلام في ذاته لاشك فيه ولا ريب يعتربه ولكني قد امتحنت جميع الوظائف واصحابها واخبرت حالم مع روائها ونظارها فلم اجد وظيفة عارية عن الذل والاهانة ولو قام صاحبها فيها بالصدق والأمانة ولا يقيم فيها الا من عدل عن الحق واتبع أهواء الخلق فان كل صاحب وظيفة لا يخلو عن أحد أمرين أما ان يتبع هوى الخلق واما ان يتبع أمر الخالق فان اتبع الخلق فقد استوجب غضب الله عليه وان اتبع الخالق فقد تسبب في امتداد السنة الناس اليه فيكرهونه ويذمونه ويشنعون عليه ويتقولون عليه ما لم يقل وينسبون اليه فعل ما لم يفعل ولا يزالون به حتى يعزل ولا يخفى ان الم العزل أضعاف لذة المناصب . قال الشاعر .

سكر الولاية طيب \* وخمارها صعب شديد

كم تائه بولاية \* ويعزله يغدو البريد

فبأي الحالتين ترضين واي الامرين تريدن وهل بعد هذا العروظهور الشيب يلقى بي ان اذل نفسي واسعى فبما يوجب

لها غضب الله او اطلاق السنة الناس عليّ فتضيع دنياي  
واخرتي واظن ان الحال الذي نحن فيه أحسن الاحوال  
لسلامتنا فيه من السنة الناس بالعزلة عنهم كما قيل  
فان تجنّبها كنت سلماً لاهلها

وان تجنّبها نازعتك كلاها

فانا وان كنا في ضيق من العيش فثنا كثير وربما كنا  
احسن من غيرنا وانا اعد نفسي من السعداء حيث زوجني الله  
بك فكنت موافقة لي في العلم والعمل ففي الخبر من سعادة المرء  
الزوجة الصالحة فهذه الحالة عندي أفضل من الرتب الموقعة  
في العنا والتعب واذا نظرنا الى غاية الأمر رأيناها في الحالتين  
واحدة فكما يموت الفقير يموت الغني ولو تأملنا حال كل منها  
في الدنيا لرؤينا بالفقر فان الغني في الدنيا دائماً في معاناة رسوم  
كثيرة غير مربوطة وملاحظة عوائد غير مضبوطة وحركاته  
وسكناته مشهورة واقواله وافعاله ماثورة مذكورة يلتقطها  
الناس ويحرفونها عن مواضعها ويحملونها على غير ما اريد بها  
ويستنجون منها شراً وربما كان قد اراد بها خيراً فتنطلق  
السنة العوام بسببه وذمه وعيبه وتصبر سيرته في الازقة شائعة  
وفي البلاد منتشرة ذائعة فلا يهنا بمنام ولا يتم له نظام ولا يدخل  
منزله الا وفكره مشغول قد آلمه السقم والم به التحول فبيت  
سمير الارق ندم الوهم والقلق فاين هو ما نحن فيه الآن ومن ذا

الذي يرضى استبدال الله وعناء بلذة راحته وهناك  
 فقالت له ان الذي قدرته بوهك وتخيلته بفهمك مسلم من  
 جنة واحدة تعارضها جهات متعددة منها ان الدنيا كما علمت  
 دار تب فكيف ترجو الراحة فيها ومنها ان الغنى نعمة من نعم  
 الله يخص به من يشاء من عباده فكيف يكون سبباً لدم  
 صاحبه وصرف النظر عنه وذلك يؤدي الى البطالة المؤدية  
 الى الفقر الموجب للذلة والمسكنة طول العمر واما قولك انا  
 في سلامة من السنة الناس بالعزلة فحن ان سلمنا السلامة بهذه  
 الحالة من السنة الناس فلا سلامة فيها من أسنة الفقر  
 والافلاس واين السلامة وانت تنظر كل وقت الى حالنا وضيق  
 عيس عيانا فكيف بطائن قلبك بالعزلة واولادك يشكون الم  
 الجوع والثقله افلا يكون ذلك مشوشاً لفكرك مهيجاً لحاطرك  
 فانك ان كنت مقطوعاً عن الخلق في منزلك فاموالهم واحوالهم في  
 قلبك فايست العزلة مجرد حسب الاجسام كما ان الصوم ليس  
 مجرد الامتناع من الشرب والطعام والا لكانت متحققة في اهل  
 السجن والجرائم العظام وسأذكرها هنا مقدمة أمهد بها للكلام ثم  
 اخوص معك في حديث المرام فاقول ان كل انسان لا يرى  
 الاشياء الا على حسب ما تظهر له فان وقف على حقيقة امرها  
 واطلع على ما كمن من سرها ظهرت له من جميع جهاتها فحكم  
 عليها بما تستحقه في ذاتها وبالنظر لعامة حالاتها والا ظهرت له

المسئلة من جهة واحدة فيحكم فيها بما تقتضيه تلك الجهة دون سائر جهاتها وقد قالوا ليس العلم الا ما كشف الغطاء عن الأسرار الربانية واطلع صاحبه على الحكم الالهية ولذا قال أسد الله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً حتى انهم شبهوا صاحب العلم برئيس الجيش هذا يفتح القلاع بخيله ورجله وذلك يملك القلوب برأيه وقوله ورئيس الجيش وان كان يكشف عن مكنون القلاع فالعالم يكشف عن حقائق الطباع ويفوض بحار اسرار المخلوقات ويستخرج ما استتر من عجائب المصنوعات فكما يستولي رئيس الجيش على الممالك بقوته فكذلك العالم يجذب القلوب بنور بصيرته فالخلق مفتقرة الى العلم في سائر البلاد كافتقار الظان الى الماء والمسافر الى الزاد لانه لا دوام للملك الا بحسن التدبير ولا تدبير الا بالعلم فانموه الحيوانيه محتاجة للنموه الروحانية والاولى مأمورة وتابعة والثانية أمرة ومتبعة فامور الدنيا لا تتظم الا بالعلم والعالم بالنسبة للعلم كاللسان بالنسبة لصاحبه فكما ان اللسان يترجم عما في القلب اذ لولاه ما علم احد ما في ضمير الاخر فكذلك العالم يفتح عن حقائق المعلومات وغرائبها ولا يحملها على غير ما اريد بها واضن ان غالب اختلاف الخلق من اختلاف نظرهم فمنهم من ينظر الى الشيء في اعم احواله فيحكم عليه بما يستحقه ومنهم من ينظر اليه من جهة فيحكم على كل جهاته بما

حکم به علی تلك أجهمة ومن ذلك الوجه كان ذمك للغنى فانك لم تنظر الا لما توهمته فيه من التعب والمشقة اما لكونك لم تله فلم تعلمه حق علمه واما لكونك لما حرمته كرهته فذمته وان كنت قد علمته ولو انك عملت بمقتضى علمك وما اعلمه من سعة فهمك لنظرت ايضاً لما فيه من الفوائد الجمّة والمزايا المهمة كالتوسعة على العيال والاقارب ومواساة الجار والصديق والصاحب واغاثة الملهوف واغاثة المحتاج وتنفيس كربة المكروب وايواء الغرباء وكفالة الايتام واطعام الطعام والاعانة على نوائب الايام وغير ذلك مما ينفع الانام ويوجب خلود الذكر ومزيد الاجر على الدوام وانت ترى ما لكثير من الاغنياء الموقفين من الخيرات والصدقات والمبرات والمكاتب والرواتب والمصاطب والمدارس والمساجد والتكايا والمعابد ونحو ذلك مما يطول استقراؤه ولا يمكن استقصاؤه فلو نظرت الى الغنى من هذه الجهات لحكمت بتفضيله وسعيت في تحصيله ولكنك نظرت اليه من جهة واحدة فعبته من اجلها وتحاميته بسببها ومن كان هذا حاله فمثله مثل من يعلم ان النار من ضروريات المعيشة على الاطلاق ويمتنع من ادخالها بينه خوفاً من الاحراق فلو تحفظ ما يوجب سريان شررها لاستعملها وامن من شرها فكذلك الغنى فانه وان كان قد يودي الى بعض مضرات لكن نفعه اكثر من ضرره ولا ينكر ذلك الامتجاهل او جاهل وحاشاك وليس الغنى للعلماء

بدعا ولا تحصيلهم له ممتنعاً فان العلم بانواعه يستعان به على  
مصالح الدين والدنيا وان الملك لا يستغني عن العلم واهله  
وانما يلزم العالم اذا كان في وظيفة ان يكون مع الخلق كالطبيب  
الماهر مع المريض فكما ان الطبيب يعاين احوال المريض ويامر  
له بالدواء على حسب ما يراه حتى يحصل الشفاء له فيثني عليه  
ويشكر فضله كذلك العالم الموظف يكون بين الناس ناظراً الى  
ما تقتضيه طباعهم وامزجتهم وما يناسبها من الاحوال والاقوال  
فيعامل كلاً منهم على قدر عقله وعلى حسب حاله وما يليق  
به من غير عدول عن الطريق التويم والصراط المستقيم فقد  
قيل

احمل الناس على اخلاقهم \* فيه تملك اعناق البشر  
فتميل عند ذلك قلوبهم اليه ويفدقون بالاحسان عليه  
ويتبدون بفعله وقوله ويخرج من مذمة من خالف علمه بعمله  
وهناك يغفر الله وزره ويضاعف أجره لان العامل بعلمه ينفع  
نفسه وينفع غيره وهو بين الناس كالغيث فكما ان الغيث يتنفع  
به الحيوان والنبات كذلك العالم العامل تغذى به ارواح  
الخلق ويتعلمون منه ما ينجم من غضب الحق ومن كانت  
هذه حالته فالاحسان اليه مبذول ودعاؤه عند ربه مقبول  
فقال الشيخ لا بأس بما قولين ولا شك في كثرة فوائد  
الغنى للعاقل البصير الموفق ولكن لو تيسر لي سلوك سبيله ما

قصرت في تحصيله ولو لم يكن من فوائده إلا رضاك وإبتهاجك  
 وحصول اغراضك لكان هذا لي كافياً في الرغبة فيه والإقبال  
 عليه ولكن كيف السبيل اليه . وابن الثريا من يد المتناول .  
 قالت السبيل الى ذلك ان تعمل بعلمك وتنفع الناس  
 بنفسك وفهمك

قال الشيخ سبجان الله واي عمل خالفت فيه مقتضى العلم  
 من أعماله وانت أعلم بجميع اقواله وافعاله واما التعلم فليس لي  
 اشتغال الا به ولا تعلق الا بسببه وتعلمك انت اقوى دليل  
 والله على ما تقول وكيل

قالت ما لهذا قصدت

قال وما الذي اردت

قالت من اخطأ الطريق ضل ومن عدل عن الصواب زل  
 اذا ما اتيت الامر من غير بابه

ضللت وان تدخل من الباب تهتدي

ومن عرف مقاصد العلم وصل الى مطلوبه وحصل على  
 مرغوبه ومن لم يدر ما يراد من العلم وقع في عناء مستمر ولا  
 يزال كذلك حتي ينتضي العمر فيلزم مرید ابي علم ان يعرف قبل  
 تبعه ثمره علمه وطلبه والا كان كراكب البحر من غير دليل فان  
 لم يفرق لا يصل الا بعد زمن طويل وقد علمت ان جميع  
 المخلوقات تنقسم الى جوهر وعرض يقوم به ويدخل في العرض

الالوان والاحوال والافعال ويدخل في الجوهر الحيوان والنبات  
والمعدن وتحت كل منها أنواع وتحت كل نوع افراد كثيرة  
بالغة في الكثرة الى حد يغلب العد ولها في وجودها وبقائها  
وفنائها قوانين عمومية وخصوصية وروابط كلية وجزئية اجراها  
عليها الخالق المحكم القادر جلّ شأنه ولكل منها في ذاته  
واحواله اللاحقة له والمتعاقبة عليه لفظ يعبر به عنه وخاصة  
تقوم به وحكم يحكم به عليه ولا يحيط بهذه الاشياء بجميع  
افرادها واحوالها كما هي عليه في نفس الامر الا العلم الخبير الذي  
خلقها وصورها ودبرها وقدرها وأودع فيها ما أودع من اسرار  
حكمته وغرائب صنعته وعجائب قدرته فعلمه هو العلم الحقيقي  
على الاطلاق لا يغرب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض  
ولا أصغر من ذلك ولا أكبر وهذا الحد لا يمكن للعقول البشرية  
ان تناله ولا تقرب منه بل تتلاشى وتضحل دونه واما علمنا بها  
فهو قسمان القسم الاول علم حقيقي بالنسبة للانسان وهو معرفة  
ما يتأتى للعقول البشرية ادراكه ومعرفته من افرادها واحوالها  
الاصلية والطارئة عليها بالصناعة والتركيب والتحليل وطريق  
تحصيلها وكيفية استعمالها والاتفاع بها وخواصها واحكامها وحلالها  
وحرامها ويدخل تحت هذا القسم علوم التاريخ والرياضيات  
والكيمياء والطبيعة والطب والشريعة وفروعها . القسم الثاني علم  
ملحق بالحقيقي ووسيلة له ويسمى علم الآلات وهو علم اللسان

فيدخل فيه الصرف والنحو والبيان والعروض واللغات بأسرها  
فمن اقتصر على العلم الملتحق بالتحقيقي لم يكن عالماً حقيقياً بل  
يكون كمن اكتفى باسم الخبز عن ذات الخبز ومن علم العلم  
التحقيقي كان له أن يجني الثمرة وينال البغية وانت بحمد الله قد  
أخذت من كلا العلمين بنصيب وافر وبلغت الى درجة شريفة  
فمن ذلك أنك عارف بالمذاهب الأربعة مستخضر لاصولها  
وفروعها وهذا علمك وفنك الذي كنت أكثر اشتغالاً به فلا  
أقول لك أترك الفقه وانقطع الى الطب أو الهندسة أو الفلاحة  
مثلاً بل أقول يلزم أن تكون موظفاً بوظيفة تعمل فيها بعلمك  
وتتفع وتتفع فيها بجودة فهمك وشدة حزمك فهذا الذي اشترت  
اليه وعولت عليه فتوكل على الله واجتهد في تحصيل وظيفة من  
الوظائف من غير أن تلتفت الى مربوطها ومرتباتها فقد قالوا  
وكاذب الفجر يبدو قبل صادق

وأول الغيث قطر ثم ينهمل

فان اجتهدت في ذلك وسعيت ولم تصل فاعلم ان الذي  
تعلمته غير ما كان يلزم ان تتعلمه او ان هذا البلد غير البلد  
الذي ينبغي لك ان تقيم فيه فاما ان تغير الفن او تغير البلد  
وغير ذلك لا أقول وفيما جرء بيننا من المناقشة كفاية  
قال الشاعر

على المرء أن يسعى إلى الخير جهدهُ  
 وليس عليه أن يتم المطالبُ  
 وقال آخر  
 لا تياسنَّ إذا ما كنت ذا ادب  
 على خمولك أن ترقى إلى الفلكِ  
 فبينما الذهب الأبريز مختلط  
 بالترب اذ صار أكليلاً على الملكِ  
 فقال لما دعيني اتفكر في أي الأمرين أولى وهل ينشرح  
 خاطري لموافقتك أم لا



المسامرة السادسة  
 السائح الأنكليزي

وقام من عندها وتوجه إلى الجامع كعادته وهو متفكر فيما  
 جرى بينه وبين زوجته وكان قلبه يبيل لرغوبها لإدخال السرور  
 عليها وعلى أولاده لكن لا يدري كيف يصنع وكان يقارن في  
 نفسه أحوال أحد الأمرين بأحوال الآخر ويتدر ما في كليهما  
 من منفعة ترجى أو مضره تحذر ثم ترجع عنده الرحيل عن البلد  
 وكنتم هذا الأمر ولم يفشه لأحد واخذ في أسباب معرفة أحوال

البلاد والاقطار تارةً بالسؤال من اهلها وتارةً بمطالعة كتب  
 السّياحات والَاخبار واقام ينتظر الفرصة فلم تمض الا ايام قليلة  
 حتى اتفق ان رجلاً من مشاهير الانجليز المشتغلين في بلادهم  
 بتعلم اللسان العربي وقراءة علومه حضر الى مصر القاهرة ولقي  
 حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر واطلعه على بعض رسائله معه  
 من الامراء والكبراء تتضمن التنويه به وطلب رعايته وانهى اليه  
 انه من عشاق اللغة العربية وطلابها والمتعلقين باهدائها وان  
 عنده نسخة من كتاب لسان العرب في اللغة للعلامة محمد بن  
 المكرم ابن ابي الحسن الخزرجي الانصاري رحمه الله وانه لما  
 رآه في هذا الكتاب من كثرة فوائده وغزارة مادته وعظم نفعه  
 وجمعه من متفرقات اللغة ما لم يجتمع في غيره من كتبها المتداولة  
 يريد طبعه للتجارة فيه وتسهيل تناوله لطالبيه فان تحصيله بخط  
 القلم لا يتيسر الا للاغنياء واهل الثروة بسبب كبره وضخامته مع  
 قلة نسخه وندرة وجوده وانه حضر الى مصر بقصد تصحيح النسخة  
 التي معه من هذا الكتاب لاجل الطبع منها والتمس من حضرة  
 الشيخ ان يدلّه على استاذ من افاضل العلماء المتبحرين في تصحيح  
 الكتب ويقراً عليه بعض العلوم العربية ويجعل له في نظير  
 ذلك راتباً كافياً يرضيه ويعوض تبعه فان اقتضى الحال في اثناء  
 ذلك سفره من مصر الى بلاد الانكليز او غيرها استصحبه معه  
 بشرط ان يضاعف له مرتبه ويتكفل مع ذلك بمؤنّته ونفقته

ولوازم سفره حتى يرجع الى مصر فذكر له الشيخ جماعة من افاضل العلماء المتفنين المعروفين بمجدة الذهن وجودة الفهم والتمكن في الدين والعلم ودله عليهم وقال له اجتمع بهم وتكلم معهم واسترضهم بما امكن فمن رضي منهم ففيه الكفاية وزيادة فاجتمع الانكليزي ببعضهم وتكلم الشيخ ايضاً مع بعضهم فما سمع ذلك احد منهم الا امتنع واعتذر خصوصاً حين يسمع بالسفر فمنهم من اعتذر بكبر سنه وضعف بدنه ومنهم من قال انه لا يطيق مفارقة اهله ووطنه ومنهم من رأى ذلك لا يجوز في الدين بظنه وكان الشيخ علم الدين في جملة من ذكرهم الاستاذ شيخ الجامع الازهر للرجل الانكليزي فسأل عنه واجتمع به في مجالس متعددة فرأى منه ما اعجبه وجذب قلبه من سعة اطلاعه وحضور ذهنه وجودة قريحته وحسن اخلاقه وكرم طبعه فشغف بحبته ورغب كل الرغبة في صحبته وكلبه ذات يوم في ذلك ورغبه في موافقته على قصده وكان علم الدين في اجتماعاته مع الرجل قد رآه مهذب الاخلاق حسن الصحبة سخي الطبع يتودد للمسلمين ويظهر ميله اليهم وقلبه الخير لهم ومحبة العرب ولسانهم وعلومهم فانس به ولم ينفر من صحبته فلما كلمه في ذلك قال اني اجد نفسي لا تأبى ما ذكرته ولكن امهلني الى الغد حتى اتفكر في نفسي فان الراي اذا لم يبيت ويثبت فيه كان كالجنين المولود لغير وقت ولادته واريد ان استشير اهلي وبعض اصدقائي فاننا

مأمورون في ديننا بالاستشارة في أمورنا

فقال له الانكليزي لك ذلك وسترى مني ان رغبت في  
صحتي كل ما يسرك ويرضيك ويعجيك وموعدنا الغد في هذا  
المكان وفي مثل هذا الآن ثم قام وتركه فجلس الشيخ علم الدين  
يفكر في نفسه ويضرب اخماساً لأسداس ويشاور من يثق برأيه  
ومحبته له من الناس فترجح عنده موافقة الرجل على طلبته  
وواقفه على ذلك من استشاره من احبته وفي خلال ذلك أحس  
برغبته بعض طلبته وكانوا يحبون ان لا يفارقهم لكثرة افادته  
لم وترددهم عليه ورجوعهم في حل ما اشكل عليهم من المسائل  
اليه فارادوا ان يحولوا رأيه ويصرفوا عن هذا الامر نظراً واجمعوا  
رايهم على ان يبذل كل منهم غاية جهده في منعه وصدته عما هو  
بصدده فاجتمعوا اليه وجلسوا حوالبه وقالوا أدام الله ايها  
الاستاذ تمكينك وحرس دينك ودينك قد سمعنا من بعض  
الناس ان هذا الرجل الانكليزي قد استألك الى موافقته على  
مراده ومرافقته الى بلاده وغير بلاده فاعظنا ذلك واكبرناه ورددناه  
وانكرناه وقلنا حاشا لله ان يخطر لسيدنا الشيخ ببال او يتصور  
له في خيال ان يرضى بخدمة رجل على غير دينه يعطيه علوم  
الشريعة طمعاً في المال او في حال من الاحوال لما نعلمه من زهدك  
ورورك واستقامة رأيك وسلامة طبعك وقد علمت قول الله  
سبحانه في التنزيل (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم

اولياء تلغون اليهم بالمودة) الى قوله (ومن يفعله منكم فقد ضل  
سواء السبيل) ثم لا يخفى عليك ما في مفارقة الاهل والاطوان  
وما جاء من ان حب الوطن من الايمان ولا ينكر ما في ركوب  
البحر من الخوف والخطر وما جاء من ان السفر قطعة من العذاب  
او العذاب قطعة من السفر ويقال الغربة كربة والنقلة مثله لا  
سيما لذي قلة

ان الغريب الطويل الذيل ممتن

فكيف حال غريب ماله مال

وقالوا عسرك في بلدتك خير من يسرك في غربتك

لقرب الدار في الاقتار خير \* من العيش الموسع في اغتراب  
فقال الشيخ علم الدين اما الخدمة فليس مراد هذا الرجل ان  
اخدمه وانما هو تصحيح كتاب يعم المسلمين نفعه اذا كان يتم طبعه  
فان كثيراً من الناس انا من جملتهم يمتنون ان يحصلوه ولا يتيسر  
لهم ان ينالوه بسبب كبره واحياج استكتابه الى مدة كثيرة ونفقة  
غير يسيرة فاذا طبع كثر تداوله وتيسر تناوله وانا انما اخدم العلم  
والعلماء بذلك والاعمال بالنيات والله سبحانه مطلع على السرائر  
واذا علمت الرجل شيئاً من العلم فليس المعلم كالخادم فان من  
شان المعلمين التكريم والتوقير ومن شان الخادمين الاهانة  
والتحقير وليسوا سواء وربما كان في تعليم العلم لمن لم يكن على  
ديننا فائدة فقد يتف على خاتق ديننا فيجبه ويميل اليه ويرجمه

على غيره فيسلم . فان لم يسلم وبقي على دينه كان في بلاده وابناء  
 وطنه كالوكيل عنا يدافع عن ديننا برد الاقاول التي التي  
 يلقيها بعض علماءهم في حقنا وانا قد احسست في هذا  
 الرجل رغبة النظر في الادلة والاصغاء الى الحجّة والطلب للعلم  
 فلا ارى في تعليم مثله بأسا وقد قال الله سبحانه في سورة التوبة  
 ( وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم  
 ابلغه مأمنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون ) وقد نزلت في المشركين  
 الذين تقضوا العهد فبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم  
 عهدهم وأمر بقتالهم فقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 لما خرج الى غزوة تبوك وتحلف المنافقون وارجفوا بالاراجيف  
 جعل المشركون يتقضون العهد فبذ اليهم عهدهم وهذا الرجل  
 الذي نتكلم فيه من جملة المعاهدين لنا الذين لم نعهد نقضهم لعهدنا  
 فليس بمثابة اولئك المحاربين من المشركين ومع ذلك فقد جاز بمقتضى  
 هذه الاية الشريفة اسماعهم كلام الله عز وجل وهو منبع العلم  
 والدين قال الامام فخر الدين الرازي على هذه الاية في تفسيره  
 الكبير نقل عن ابن عباس رضي الله عنه ان رجلاً من  
 المشركين قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه  
 اذا اردنا ان ناتي للرسول بعد انتضاء هذا الاجل لسمع كلام الله  
 او لحاجة اخرى فهل نتقل فقال علي لا ان الله تعالى قال ( وان  
 احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ) قال

والمقصود من هذا الكلام بيان ان الكافر اذا جاء طالباً للحجة  
والدليل او جاء طالباً لاستماع القرآن فانه يجب اماله ومحرم  
قتله ويجب ايصاله الى مأمنيه ودل هذا على ان النظر في دين  
الله اعلى المقامات واعلى الدرجات فان الكافر المحارب الذي  
صار دمه مهدراً لما اظهر من نفسه كونه طالباً للنظر والاستدلال  
زال ذلك الاهدار ووجب على الرسول ان يبلغه مأمنيه ثم قال  
المذكور في هذه الاية كونه طالباً لسماع القرآن فنقول ويلحق به  
كونه طالباً لسماع الدلائل وكونه طالباً للجواب عن الشبهات  
والدليل عليه ان الله تعالى علل وجوب تلك الاجارة بكونه  
غير عالم لانه قال ( ذلك بانهم قوم لا يعلمون ) وكان المعنى  
فأجره لكونه طالباً للعلم مسترشداً للحق وكل من حصلت فيه هذه  
العلة وجبت اجارته ( انتهى ) وهذا كاف في جواب ما عرضتم به  
من الاعتراض على تعليمه واما الطمع في المال فالله سبحانه العليم  
بمخائيق الاحوال المطلع على نيات القلوب وخفيات الغيوب على  
ان الحالة محرجة والعيشة محوجة وما ابرى نفسي ان النفس لامارة  
بالسوء الا ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم واما قوله تعالى يا ايها  
الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء الى اخر الاية فقد  
نزلت في حاطب ابن ابي بلتعنة لما كتب الى اهل مكة ان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للفتح فخذوا حذرکم ثم ارسل ذلك  
الكتاب مع امرأة مولاة لبني هاشم يقال لها سارة كانت قد جاءت

الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها عليه السلام امسلمة جئت  
قالت لا قال امهاجرة قالت لا قال فما جاء بك قالت قد ذهب  
الموالي يوم بدر ابي قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة  
فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فاتاها حاطب  
واعطاها عشرة دنانير وكساها برداء واستعملها ذلك الكتاب الى  
مكة فخرجت سائرة فاطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك  
فبعث علياً وعمرو عماراً وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان فادركوها  
وسالوا عن ذلك فانكرت وحلفت فقال علي رضي الله عنه والله  
ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسل سيفه فاخرجت الكتاب  
من عنقها شعراً فجاؤا به الى رسول الله صلى الله عليه وسلم  
فعرضه على حاطب فاعترف وقال ان لي بمكة اهلاً ومالاً فاردت  
ان اتقرب منهم وقد علمت ان الله تعالى ينزل بأسه عليهم  
فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يا رسول الله اضرب عنق  
هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم ما يدريك يا عمر لعل الله  
تعالى قد اطلع على اهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم  
ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله اعلم فنزلت ويؤخذ من هذا  
دليل لما نحن فيه وهو ان سارة هذه لما جاءت الى النبي صلى الله  
عليه وسلم ولم تكن مسلمة ولا مهاجرة امر باكرامها وحث عليها من  
كسوها وحملوها وزودوها ويعلم من سياق الحكاية ان المنهي عنهم  
في الآية المحاربون للمسلمين لا كل من خالف دينهم كما يدل عليه

ما بعد هذه الآية من قوله تعالى ( لا ينهاكم الله عن الذين لم  
 يقاتلوك في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبرؤم وتسقطوا اليهم  
 ان الله يحب المتسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوك في الدين  
 واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم  
 فاولئك هم الظالمون ) وهذا الرجل وقومه لم يقاتلونا في الدين  
 ولا اخرجونا من ديارنا ولا ظاهروا على اخراجنا بل حالفونا  
 وعاهدونا وانصرونا على اعدائنا كما هو معلوم مشهور وسبب نزول  
 قوله تعالى لا ينهاكم الله . الخ . كما روي عن عبد الله ابن الزبير  
 ان اسماء بنت ابي بكر قدمت امها قتيلة عليها وهي مشركة فلم تقبلها  
 ولم تاذن لها بالدخول فامرها النبي ان تدخلها وتقبل منها وتكرمها  
 وتحسن اليها وفي تفسير الرازي قال اهل التأويل هذه الآية تدل  
 على جواز البر بين المسلمين والمشركين وان كانت الموالة منقطعة  
 (انتهى) وقد سئل المحافظ جلال الدين السيوطي في جملة اسئلة  
 وردت عليه من بلاد التكرور هل يجوز صحبة الكفار وتقبل  
 هديتهم فاجاب بجواز ذلك وقد استوصف رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم الحارث ابن كلدة طيب العرب دواء فوصفه له وكان  
 الحارث كافراً ومات على كفره كما نقل عن الاستيعاب لابن عبد  
 البر واذا تقرر هذا قلت انكم لا وجه لكم في توجيه الملامة الي على  
 الاجتماع بهذا الرجل وتعليه بل اقول فضلاً عن ذلك لا باس  
 بتعلم لسان هؤلاء القوم وغيرهم وان كانوا على غير ديننا ففي الحديث

الشريف من علم لسان قوم أمن من مكرهم وقد جاء ان النبي  
 صلى الله عليه وسلم امر كاتبه زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية  
 فتعلم قراءتها وكتابتها وجاء ( المحكمة ضالة المؤمن فليأخذها  
 حيث وجدها ) وجاء ( اطلبوا العلم ولو بالصين ) ومعلوم ان اهل  
 الصين كفار وامثال ذلك كثيرة وفوائد تعلمنا للغة هؤلاء  
 القوم لا تنكر فانا بذلك يتيسر لنا الوصول الى ما وصلوا اليه  
 من الفنون والصنائع الكثيرة المنافع وذلك لاننا بواسطة معرفة  
 لغتهم يتأتى لنا التكلم معهم واستطلاع ما عندهم والوقوف على ما  
 لهم في تلك الفنون والصنائع من الكتب والرسائل العديدة ثم  
 نخنار منها ما نراه نافعا لبلادنا ولازما لنا ولا بأس علينا في  
 ذلك فقد جاء ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما اخبره سلمان  
 الفارسي بان قومه وقد كانوا محبوسا يصطنعون الخنادق في بلادهم  
 امر بعمل الخندق في الغزوة المعروفة به وعمل فيه بنفسه صلى  
 الله عليه وسلم فلا يحسن بنا اذا رأينا عندهم امرا نافعا ان نتركه  
 لمخالفتهم لنا في الدين بل نتفع به وما علينا من دينهم فلذا ديننا  
 ولم دينهم واما ما يترتب على السفر من مفارقة الاهل والوطن  
 ومكابدة الاهوال والمشقات فلا يعد مانعا منه بالنسبة لما فيه من  
 الفوائد التي ذكرها العلماء والبلغاء في كل عصر مما لا يدخل  
 تحت حصر . قال الشاعر

سافر تجرد عوضاً من تفارقه  
وانصب فان اكتساب المجد في النصب  
فالاسد لولا فراق الغاب ما افترست

والسهم لولا فراق القوس لم يصب  
لا سيما اذا كان اكتساب الانسان في اقامته غير كافٍ  
للوامم معيشته فانه يترجم في حقه السفر على الاقامة اذا كان  
فيه رجاء الغنى والكرامة فالسفر مع العز والغنى حضر والمحضر  
مع القلة والذلة سفر قال الزبيدي

القدر في اوطاننا غربة \* والمال في الغربة اوطان  
والارض شيء كلها واحد \* والناس اخوان وجيران  
ولا ينال المني الا بالغنى ولا الراحة الا بالتعب ولا تدرك  
معاني الاحوال بمجرد الاماني والامال بل باقتحام الاخطار  
وركوب الاهوال ويرحم الله ابا الطيب حيث قال  
تريدون ادراك المعالي رخيصة

ولا بدّ دون الشهد من أبر النجل  
وايضاً المسافر في حفظ الله وكفنه اذا كان متوكلاً عليه  
ومفوضاً اموره اليه طارحاً نفسه بين يدي قدرته فهو ارف به  
من نفسه

الله أكبر من ان تستعدّ له \* بعدّة او ترجي دونه سبباً  
اذا اصطفاك لامر هيئتك له \* يد العناية حتى تبلغ الارباب

وكما يكون التعب او المرض في السفر يكون في الإقامة  
والحضر ومن يموت بعيداً عن بلده كمن يموت بين أهله وولده  
فجميع ارض الله جعلت لخلقه ورحمته وسعت كل شيء لا  
تخص بلداً دون بلد ولا بقعة دون اخرى بل ينبغي لكل عاقل  
ان يطوف ما استطاع من البقاع ليرى ما لاهلها من الاحوال  
والعادات وما يترتب على كل حالة وعادة من المضار والنوائد  
ويقارن بينها وبين ما هو جار في بلاده وبين اهل وطنه  
وينبهم على ما رأى نفعه وما علم ضرره فاذا رأى اهل جهة من  
الجهات اعظم ثروة وقوة وراحة نظر بعين التأمل في منابع ثروتهم  
وموارد راحتهم وقوتهم فعرف بها اهل وطنه واذا رأى اهل  
صنع من الارض بعكس ذلك اجتهد في معرفة اسبابه بالنظر  
والتأمل والمقارنة بين احوال ذلك الصنع وغيره حتى اذا علمها  
وتحفظها حذر منها اهل بلاده بقدر اجتهاده ويكون اذا اخبر بشيء  
من ذلك مخبراً عن عيان ويقين لا عن سماع وتخمين فيحصل  
بذلك على فوائد جلية منها زيادة علمه ومنها انتفاع غيره بما  
يعلمه ومنها ما يكتسبه من المال ومنها وهو اعظمها رضا ربه  
ومزيد ثوابه بنفعه لعباده وأحب عباد الله الى الله انفعهم لعباده  
وكذلك باتعاظه باحوال الناس واعبارها بامورهم واطلاعه في  
سياحه على الاسرار المكنونة والتوانين المدبنة المصونة التي دبر  
الله بها امر المخلوقات واحكم بها صنع الكائنات فمن وقف على

سر صنع الخالق زاد في تعظيمه وتقرّب اليه بالطاعة والإمتثال  
 لاوامر ونواهيه واستمسك بحبال حبه ومراضيه اذ كلما انكشف  
 الغطاء وزالت ظلمة الجهل انكشفت الأسرار المودعة في الاشياء  
 فبزيد تعظيم مودعها والاجتهاد في التقرب الى مبدعها فمن سافر  
 واطلع على احوال غير بلاده كمن عاش زيادة على عمره لانه  
 يعلم بالاسفار اضعاف ما يعلمه بالاقامة او بمطالعة الاخبار كما  
 قالوا مثل ذلك فمن طالع كتب اخبار البلاد واحوال اهلها  
 فهذا أولى لان علمه بالمشاهدة والنظر وذلك علمه بالسمع والخبر  
 واما ما ذكرتم من حبّ الوطن فليس حبه خاصاً ببلادته وعدم  
 مفارقتها وليس المقام به دليلاً على حبه ولا الرحيل عنه دليلاً  
 على بغضه فكم من مقيم ببلدة وهو لها كاره وراحل عنها وهو لها  
 محب ومن احب الوطن حقيقة سعى في نفعه ونفع اهله بما امكته  
 سفراً او حضراً وقد شرحت لكم بعض ما اراه في السفر من  
 الفوائد الجميلة والمزايا الجليلة وفي علمكم كثير مما وقع للانبياء  
 والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصالحين من التنقلات  
 والاسفار في القرى والامصار وما جاء في القرآن والاخبار من  
 الحث على السير في الارض للنظر والاعتبار فكفوا عن الملامة والله  
 الامر في السفر والاقامة فلما سمعوا كلامه وعلموا مرامه قطعوا  
 أملهم من تحويله عن قصده وانصرفوا من عنده فقام من وقته  
 ومضى الى بيته فدخّل على زوجته وحكى لها ما صار من امره وما

دار في سره وسالها عما تراه

فقات اذا عزمت فتوكل على الله

يس ارتحالك في كسب الغنى سفرا

لكن مقامك في ضرر هو السفر

فقال لها اذا قبلت ما اشترطه هذا الرجل من السفر معه

الى بلده والى ابي بلد اراد فقد تطول مدة السفر ويمتد امس

الفراق فهل يلزم تعيين المدة ام لا

فقات ارى ان تعيينها وعدمه على حد سوا وربما كان

عدم تحديدها اولى لانه متى حصل على ما يرغبه منك كانت

اقامتك معه في بلده او في غيرها موكولة لرأيك وارادتك فان

كتما مدة الاجتماع على طبع حسن وخلق جميل مستحسن وفعلت

ما يجذب قلبه اليك ازداد حبه لك ورغب في طول عشتك

واجتهد في نفعك فطول المدة وقصرها يتبع ما يتبع بينكما في

مدة العمل من القول والفعل فان وجدت في الاقامة معه

خيراً فافعل ما تطول به المدة من تشويقه للعلم والاجتهاد

في تعليمه والصنع عن زلاته والاغضاء عما عساه ان يتبع من هفواته

اذا كنت في كل الامور معاتباً

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فمن ذا الذي نرضي سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً ان تعد معائبه

فحسن الخلق تدوم المودة وبسوء الخلق تكون المباغضة  
والمباعدة فقل ما يرجح زنتك وافعل ما يجلب قيمتك فمن قوم  
لسانه زان عقله ومن سدّد كلامه ابان فضله كما هو معلوم  
لديك ولا يخفى عليك فاعثم صفو الزمان وانتهز فرصة الامكان  
وان وجدت الخيرة في قصرها فافعل ما يوصلك الى الخلوص  
من ضررها لكن يكون ذلك باللطف والمعروف والظرف لا  
بالشدة والعسف فقد يدرك باللطف ما لا يدرك بالعنف وكل  
ذلك لا يعلم الاّ عند الاجتماع ولا عبرة بما يؤخذ بالظن والسمع  
لان الحب كما علمت حالة للنفس تنبعث عند مشاهدة المطلوب  
وتضعف عند فوات الامر المرغوب لا سيما اذا وقع بين المتحابين  
ما يجلب بمقام المحبة من قول او فعل ولو من احد الجانبين وربما  
أدى الى بغض وعداوة واما ما يكون من امر الفراق فهذا علينا  
جميعاً شيء شاق لكن كما يقال الضرورات تبيح المحظورات واذا  
نظرنا لما يترتب عليه من المنافع فلا محذور فيه ولا مانع اذ ركوب  
الاهوال افضل من ذل السؤال والصبر درج يفضي بمن درج  
الى الفرج ومتى كانت مكاتبتنا متصلة والاخبار بيننا متواصلة  
دامت المحادثة واستمرت وحلت عيشتنا بعد ما مرت واطلع كل  
منا على ما في ضمير صاحبه وبذلك يحصل الاطمئنان ويستريح  
الخطاير وينشرح الجنان فقد قالوا ان المراسلة نصف المواصلة  
ولا يخفى عليك ان البعد حالة تجدد في نفس المتحابين زيادة

شوق تؤدي الى انتشار الافكار وكثرة التذكار فيكون بين المتحايين حبل ود متصل لا يقطعه بعد وعنوان ذلك هو المكتاتبة فعلامة القطيعة من الصديق ان يؤخر الجواب ولا يتديء بكتاب وارو ان لا ترى في هذا كله غير ما ارى فافضل الرأي ما لم يفوت فرصة ولم يورث غصة فاختمس الدهر اخلاصاً فطالما سر ثم اسأ الى غير ذلك من المرغبات ثم قات له اني ارى ان تستحب أكبر اولادك لتكون تربته على يدك ويشاهد البلاد التي تقصدونها وتمرون بها ويكون تحت نظرك فتحسن اديه فقد قيل من ادب ولده صغيراً سر به كبيراً وربما تحتاج اليه في بعض امورك ولكن هذا انما يكون برأي صاحبك ورضاه فاعرضه عليه وانظر ما يراه فسمع ذلك منها وقبله وباتا ليلتها بتجاذبان أهذاب المحادثة والنظر في اطراف هذه المحادثة الى ان ادبر الليل واقبل النهار فقام ومضى لموعده الانكليزي فوجده في الانتظار فاخبره بانه رضي بملازمته وصحبته فسر بذلك لما كان اشرب قلبه من محبته ثم مضيا الى حضرة شيخ الجامع ليعرض الأمر عليه ويبرما الشروط بينها على يديه فمثلا عنده وقبله يده واخبراه بما دار بينها اولاً و آخراً من الكلام وانها يريدان اتمام الشروط على يديه لهذا المرام

قال لا بأس ولا ضير والله يقضي بكل خير ثم اتنى على الشيخ علم الدين عماسن فضائله وعرفه بانه من أكبر علماء الزمان

وإفاضله وإن اللطف أخص خصائله والبراعة بعض سمائله  
 والبلاغة طوع لسانه وإنامله والعلوم العربية نصب ناظره والفنون  
 الأدبية رهن خاطره وإنه بين العلماء مرفوع المكانة معروف  
 بالصدق والاستقامة والأمانة لم يسمع فيه قدح قادح ولا يبلغ ما  
 فيه مدح مادح وقال للانكليزي استوصي به لاجل خاطري  
 ولما يستحقه وكل ما وصفته به سيظهر إن شاء الله صدقه وهام  
 ما تريد ليقرر ويضبط بالكتابة وبحرر

فقال الانكليزي أما أكرام حضرة الشيخ فعلى العين والرأس  
 وله عندي كل ما يسره ويرضيه ويحمله على الرغبة في دوام  
 صحبتي وأماً ما وصفتم به حضرته فهو أهله ومحله فإني قبل أن  
 اجتمع به ما ذكرته لأحد إلا أنني عليه غاية الثناء ومدحه بأحسن  
 أنواع المدح فلما اجتمعت به بعض مرات يسيرة ظهر لي فضله  
 وبراعته وجلالة قدره وإن كانت معرفتي بالعلوم العربية قليلة  
 فإن القليل يدل على الكثير والقدم يدل على المسير وأنا كنت  
 قد اقمتم في بعض بلاد المغرب نحو أربع سنين تعلمت فيها  
 طرفاً من العلوم العربية ثم حضرت إلى هذه الديار المصرية  
 ولأن أكثر اقامتي في القاهرة والاسكندرية إلا أنني في كل سنة  
 أتوجه إلى بلادي أو غيرها من البلاد الأوروبية أقضي فيها زمن  
 الصيف بسبب شدة الحرارة فيه في أرض مصر وأرغب أن يصحبني  
 الشيخ في السفر والإقامة ففي مدة اقامتي بمصر يتردد عليّ كل

يوم في وقت معين فاذا سافرت كان معي فان شاء تردد عليّ  
 في اوقات معينة كحالنا بمصر وان شاء لازمني ولازمته ليلاً ونهاراً  
 حيث كان لا يعرف هناك احداً غيري وفي اوقات اجتماعنا يصحح  
 كتاب لسان العرب معي واقرأ عليه شيئاً من العلوم العربية  
 وله عليّ في نظير ذلك مدة اقامتنا بمصر عشرون جنياً انكليزياً  
 وفي اُمدّة السفر اجعل له ضعف ذلك وهذا ما عدا مصاريف  
 التنقلات والسكنى والمؤونة فكلها عليّ لا يلزمه منها شيء وقد  
 قرب وقت سفرنا فان الصيف قد حان اولانه فليتمياً له فارتضى  
 الشيخ بذلك وطابت نفسه به غير انه طلب ان يكون معه ابنه  
 في السفر فرضي الانكليزي وقال لا بأس بذلك وعليّ مؤنته  
 ايضاً ففرح الشيخ علم الدين وقرّ ناظره وسرّ الانكليزي ايضاً  
 وطاب خاطره وانتقا على ذلك وكتبا بينهما المكاتبه اللازمة وشكر  
 الشيخ علم الدين حضرة شيخ الجامع وقبل يده واظنب في الثناء  
 عليه وانشده

واحيت لي ذكري وما كان خاملاً

ولكنّ بعض الذكر أنبه من بعض

ثم قام مع الانكليزي وتوجه به الى داره ليعرفها وانتقا على  
 تعيين الوقت فصار الشيخ يتردد عليه كل يوم في الوقت المعين  
 يقيم معه مدة من النهار في تصحيح الكتاب وقرآه بعض العلوم  
 العربية والمحادثه فيما تستدعيه المناسبه وما ينساق اليه الكلام مع

اللطف والادب والكمال فظابت الصحة وزادت المحبة وتمكنت  
 الالفة وارتفعت الكلفة وصار كل منها يكثر التردد على الآخر  
 ويسال عنه اذا غاب ويأنس به اذا حضر وفي اثناء ذلك كان  
 الشيخ يستعد للسفر ويتدارك ما يلزم له ولولده ليسافر معه حسبما  
 اتفقا عليه الى ان قال له الانكليزي قد عزمنا على السفر في اليوم  
 الغلاني فارجوك ان تشرف داري صبح ذلك اليوم في الساعة  
 الغلانية وليكن معك ولدك الذي تريد ان يكون معك حسبما  
 اتفقتنا عليه تجديني في انتظاركما لسير معاً فوعده الشيخ بذلك وعاد  
 بالمخبر الى زوجته

فالت له على بركة الله تعالى وفي حفظه ورعايته ودعت به  
 بالسلامة والعز والكرامة والعود اليها بالصحة والعافية والراحة  
 والرفاهية واكدت عليه في عدم انتطاع مكاتباته عنها ومكاتبات  
 ولده فوعدها بذلك ولما كان اليوم الموعود ودّعها وودع بقية  
 اولاده واخوانه ووصاهم بتقوى الله والاعتماد عليه في كل امر وقراً  
 ( والعصر ان الانسان لفي خسر الا الذين امنوا وعملوا الصالحات  
 وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر ) ثم اخذ ولده الاكبر معه وكان  
 اسمه برهان الدين فمضى به في الساعة المعينة الى دار الانكليزي  
 فوجده في انتظارها فسلم هو وولده عليه ثم توجهوا جميعاً الى محطة  
 سكة الحديد

المسامرة الصابغة  
سكة الحديد

فلما وصلوا المحطة جلسوا برهة ثم ان الانكليزي اخذ الورق المعتاد بعد ان دفع الاجرة المقررة للسفر من مصر الى الاسكندرية في سكة الحديد ولم يكن سبق للشيخ ولا لابنه فيها سفر فلما دق الجرس اول مرة قال الشيخ ما هذا وما المراد به . قال الانكليزي هذا يدق ثلاث مرات للتنبيه على قرب وقت المسير ليستعد كل من اراد وياخذ محله حيث يريد ان يجلس وبعد الثالثة يسير يكون المسير ثم استصحب الشيخ وابنه ونزل بهما في عربة من عربات الدرجة الاولى فجلسوا فيها ينظرون من طاقاتها الى ان سارت فلما اشتد السير وزادت السرعة اضطرب قلب الشيخ بعض اضطراب وداخله شيء من الخوف لكونه لم يسبق له بذلك عادة كما قدمنا الا انه كان قد سمع بها وراى معه غيره من الناس غير منزعجين فعلم انها حالة معتادة فزال روعه وسكن قلبه وجلس مطمئناً معتمداً على خالق الورى و اشار للعربة يقول  
سيرى على اسم الله واسم الذي

علامة الايمان ان يذكرنا

وكذلك برهان الدين ابن علم الدين في اول الامر كاد

يزعجه الحال لعدم اعتياده إلا أنه ناسى بوالده وغيره وقرس فيه  
 أبوه الخوف فزال رعبه وسكن قلبه وقعدا ينظران فيما يليهما من  
 الشبايك الى ما يمران به من الجهات متفكرين في عجائب الكائنات  
 والانكليزي ينظر اليهما فاراد ان يعلم ما لديهما وقد عرف انها اول  
 مرة فيها ركبا سكة الحديد ورايا هذا الاثر الباهر والاختراع الجديد  
 فقال للشيخ ايها الاستاذ كيف ترى . قال وماذا ارى ارى ان  
 الارض تطوى كطي السجل للكتاب وهذه العربات بما عليها كما  
 قال الله وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب وهذا  
 الدخان قد انتشر في الجو كالسما اذا انفطرت وتطير الشرر في  
 الهواء كالنجوم اذا انتثرت وكثر الزحام كالمخلائق اذا حشرت وقد  
 فُتشت اوراق المسافرين كالصحف اذا نشرت فتذكرت بهذه  
 الاحوال أهوال القيامة فنسأل الله في الدنيا والاخرة حسن  
 السلامة قال ففيا تفكر

قال الشيخ اتفكر في هذه الباخرة المجارة لهذه العربات وانامل  
 فيما لها من الحركة العميقة وشدة السرعة الغربية التي حملت  
 الأغرار من بعض العامة على ان يقولوا انها انما تسير بقوة جماعة  
 من الجن والشياطين مسخرين لها بواسطة العزائم والسحر والطلاسم  
 وامثال ذلك مما حلم عليهم غرابة الامر وعدم علمهم بحقيقة السر  
 وقد عرفت انها تسير بواسطة النار التي ارى كثرة دخانها وافواج  
 شررها المتطايرة ورأيت قبيل ركوبنا رجلاً مشتغلاً باضرارها

وتتقد امرها في تلك الباخرة ولكني لم اعرف صورة استعمالها في هذه الحالة وكيفية الانتفاع بها في تحريك تلك الآلة فانا اجيل في هذا الامر العظيم فداح التخمين واراني لا اصل في علم حقيقته الى محجة اليقين فاني ما رايت ولا اشتغلت به قبل هذه المرة بسبب اشتغالي بعلوم اللغة العربية واحكام الشريعة المطهرة وكان قد خطر لي ان اوجه السؤال في ذلك اليك لعلي اجد علمه لديك ولكن خشيت ان اتعب خاطرك وما اريد ان اشق عليك

فقال الانكليزي اخبرك اولاً ايها الاستاذ ان لطفك وكرم اخلاقك وحسن معاملتك لي مع عظم فضلك ورفعة قدرك قد جعل في قلبي لك منزلة عالية ومحبة عظيمة تجعلني ابتهج بقضاء ما تريده والقيام بما تأمر به من غير ان اجد بنفسي ادنى حرج حتى لو كلفني بما فيه مشقة في نفس الامر فارجوك الا تكتم عني امراً تريده ولا تخشمن من شيء تسأل عنه لانك على سفر قد كلفتك به الى بلاد لا تعرفها ولا تعرف اهلها فانا اريد راحتك وانشرح خاطرك ففي ذلك سروري وراحتي وهذا الذي سألت عنه ليس في بيانه مشقة علي ولا كلفة وانا وان كنت لم اشتغل بهذا صناعة الا اني عاشرت المشتغلين به وقرات بعض الكتب المصنفة فيه وصار لي به معرفة كافية لامثالي وهو فن واسع وفيه كتب كثيرة مطولة ولكني احكي لك منه على سبيل الاجمال والتلخيص ما لا يمل سماعه لتقطع به مسافة الطريق

وبعد هذا اذا عرفت لغتنا وتعلت رغبتك بالتعرج فيه والتوسع  
في معرفته فالامر اليك

قال الشيخ قد سررتي سر ك الله بما يجعل فيه اسعاديك  
وكافاك على ما وجهت اليه فوادك فارشدني عما سالت عنه  
تولى الله ارشادك

قال الانكليزي انما تحرك تلك الآلة بالنار بواسطة قوة  
بخار تحلله حرارة النار من ماء موضوع في اناء محكم ينفذ منه  
البخار في منافذ معلومة الى الات مخصوصة فيجرها

قال الشيخ نعم اعلم ان الحرارة اذا سخنت الماء حلت منه  
اجزاء تكوّن بخاراً فترتفع منه وتختلط بالهواء ويتصق بقدرها  
من الماء كما يشاهد عند غليان القدر وكما يعلم من تجفيف الثوب  
في الشمس فان حرارة الشمس تحلل منه الاجزاء المائية فترتفع في  
الهواء ويبقى الثوب جافاً ولكني اريد زيادة الشرح والايضاح

قال الانكليزي من المعلوم ايضاً انه اذا وضع مقدار من  
الماء في اناء محكم الغطاء من كل طرف بحيث لا يكون فيه  
منفذ وكان فيه جزء فارغ من الماء واوقد تحته النار تصاعد البخار  
المتحلل من الماء بجملة النار الى ذلك الفراغ الذي في اعلى الاناء  
سواء كان فراغاً محضاً اي ليس فيه شيء من الهواء الجوي او  
كان فيه مقدار من الهواء المذكور فاذا استمرت النار تحت ذلك  
الاناء فلا يزال يتجدد بخار يتحلل من الماء ويختلط بالموجود منه من

قبل وبارد يهد البخار تزداد قوة تمدده حتى تصل الى حد معين بينه وبين درجة حرارة الماء نسبة معلومة فعند ذلك تثبت قوة البخار على ذلك الحد ولا تجاوزه ويتمتع تولد بخار جديد من الماء وهذا الحد الذي ذكرناه يسمى القوة النهائية للبخار عند اهل الفن ويقال حينئذٍ للفراغ المنحبس فيه البخار انه تشبع قال الشيخ قد قلت في كلامك ان البخار يصعد الى ذلك المحل الفارغ من الماء سواء كان فراغاً محضاً او كان فيه شيء من الهواء الجوي وقد قيل في وجود الخلاء المحض وعدمه كلام كثير وخلاف طويل مذكور في المواقف وغيرها ليس هذا محله ولكن اريد ان اعرف هل وجود هذا الهواء له فعل واثر في القوة النهائية المذكورة ام لا

قال الانكليزي ليس لذلك الهواء اثر في القوة المذكورة وانما يضعف سرعة تحلل البخار ويجعله بطيئاً فاذا كان ذلك المحل الخالي من الماء فراغاً من الهواء الجوي فلا يجرد البخار ما يزاحمه ويصادمه فيتحلل بسرعة شديدة حتى يصل الى قوته النهائية في مدة قليلة بخلاف ما اذا كان به شيء من الهواء فان سرعة تحلل البخار تكون اقل من الحالة الاولى لان الهواء المذكور يضغط على وجه الماء فاذا تحلل البخار وطلب لارتفاعه الى الاعلى وجد الهواء المذكور معارضة له فهدافعه يعالجه حتى يفغله ويدخل بين اجزائه فيتأخر بهذا السبب

وفي هذه الحالة يكون الضغط على الماء حاصلًا من البخار والهواء المذكورين معًا فإذا كان الاناء الذي فيه الماء وتحت النار مكشوفًا لا يصل البخار الى قوته النهائية اصلاً فانه كلما تولد منه مقدار اتشر في الجو واخيلط بالهواء الموجود فيه فلا يبق مقدار منه مجتمعا في محل واحد محفوظاً به حتى يصل الى القوة المذكورة ثم كلما تحلل من الماء بخار وانتشر في الجو نقص بقدره من الماء الى ان لا يبق في الاناء شيء ويشاهد في اثناء ذلك ان سرعة تولد البخار تزداد على حسب ازدياد الحرارة فتمت وصلت الحرارة المذكورة الى حد تكون فيه قوة البخار الحاصل عنها قدر ضغط الجوي بقدر ضغط الهواء الجوي كانت سرعة تحلل البخار اعظم ما يكون لان البخار حينئذ لا يعارضه مانعة من جهة الجو فينفذ فيه بغير عسر ويشاهد في الماء فقاع تعلو على وجهه وهذه الحالة هي ما يعرف بحالة الفوران او الغليان ومن هذا يفهم ان حالة الفوران للماء تحصل اذا كانت القوة النهائية للبخار المتبالة لدرجة الحرارة ليست اقل من قوة الضغط الواقع على سطح الماء سواء كان هذا الضغط من الهواء او من البخار او منها معاً وقد علم ايضا ان البخار كلما انتشر وتفرقت اجزائه وتخلل بسبب اتساع المحل الموجود فيه ضعفت قوته وكلما انكس وانضم الى بعضه لضيق محله زادت قوته الى ان تصل الى القوة النهائية فاذا وضعنا مقدراً من البخار في اناء ليس به ماء ورأينا قوته اقل من القوة

النهائية فصغرنا حجمه بان كبسناه وحبسناه في محل اضيق مما كان فيه زادت قوته ولا تزال تزداد قوته من تنقيص حجمه بتضييق محله الى ان يصل الى القوة النهائية فان كبرنا حجمه بتوسيع محله ضعفت قوته وهكذا فالحاصل ان قوته تكون بالنسبة العكسية للمحل المحبوس فيه فكلما زاد كبر المحل نقصت القوة وكلما نقص كبره زادت القوة الى ان تصل الى الدرجة النهائية وهكذا الغازات

قال الشيخ فاذا وصل البخار الى هذه القوة النهائية فصغرنا حجمه بتضييق محله بعد ذلك فهل تزيد تلك القوة  
قال الانكليزي متى وصلت القوة الى تلك الدرجة فلا تتجاوزها بل تثبت عليها ولا تزيد عنها وإنما اذا صغرنا الحجم بعد ذلك استحال جزء من البخار الموجود الى ماء فلو كبرنا الحجم بعد ذلك عاد ثانياً ذلك الماء بخاراً كما كان

قال الشيخ قد بنيت ما ذكرته على كون المحل المحبوس فيه البخار ليس فيه ماء فهل تتغير تلك الحالة اذا كان فيه ماء  
قال الانكليزي لا تتغير القوة النهائية بوجود الماء وإنما اذا استحال جميع الماء الموجود بخاراً فعند ذلك تزيد القوة بنقل الحجم وتنقص بزيادة كالغازات

وقد وقف اهل الفن بتجارب عديدة على تعيين القوة النهائية لبخار الماء المقابل لدرجات الحرارة من الصفر الى مائتين

وثلاثين درجة وجعلوا لها جداول ترجع اليها اربابها المشتغلون  
بالالات البخارية وعادتهم ان ينسبوا قوة البخار الى الجوف يقال قوة  
البخار الفلاني جو واحد واثنان او ثلاثة مثلاً وهكذا

قال الشيخ وكيف ذلك

قال الانكليزي من المعلوم ان هذا الهواء الجوي الذي  
نعيش فيه ونستنشقه معدود من الغازات وهو موجود في جميع  
المحلات كبيرة وصغيرة مرتفعة ومنخفضة ومحيط بكرة الارض من  
جميع جهاتها ممتد فوق رؤسنا الى بعد عظيم الا انه محدود لا  
يزيد عن ستة وثلاثين الف متر وليست كثافة طبقاته وثقلها في  
درجة واحدة بل هي متفاوتة بحسب قربها من الارض وبعدها  
عنها فكل ما كان منها الى الارض اقرب كان اثقل واكتف  
بسبب ثقلها وثقل ما فوقها من الطبقات عليها وكلما كان منها  
عن الارض ابعد كان اخف والطف

وجميع الاجسام الموجودة في الهواء عليها ضغط من الهواء  
بحسب جرمها وقد ندر ذلك بالحساب وحرر نعلم ان كل مقدار  
سانتيمتر من سطح اي جسم عليه ضغط من الهواء الجوي بقدر ثقل  
كيلوجرام وثلاثة وثلاثين جراماً

قال الشيخ ما معنى سانتيمتر وكيلوجرام فهذه الفاظ  
لا اعرفها لانها ليست عربية  
قال الانكليزي سانتيمتر هو جزء واحد من مائة جزء من

المتري عشر المترو المتر هو ذراع وثلاث بالذراع المعماري  
المستعمل في مصر في مقاييس الابنية وكيلو جرام معناه الف جرام  
والجرام يقرب من ثلث درهم فكل مقدار سانتيمتر اي عشر عشر  
التر من سطح اي جسم من الاجسام عليه ثقل ٢٤٤ درهم مصري  
من ضغط الجوهو هو ثقل عمود من الزيتق قاعدته سانتيمتر واحد  
وطوله ستة وسبعون سانتيمتر او قدر عمود من الماء قاعدته سانتيمتر  
وطوله عشرة امتار وثلاث لان الزيتق اقل من الماء ثلاثة عشر  
مرة وستة اعشار مرة فلو ضربنا طول عمود الزيتق المذكور وهو  
ستة وسبعون من مائة في ثلاثة عشر وستة اعشار لحصل عشرة  
امتار وثلاث

فاذا كان الضغط الواقع من البخار او الغاز على قدر  
سانتيمتر من سطح اناء مثلاً مساوياً للضغط الواقع من الجوهو على  
القدر المذكور يقال ان قوة هذا البخار او الغاز تساوي جواً واحداً  
واذا كان بقدر ضغط الجوهو مرتين قيل ان قوته جوان وهكذا  
ولسهولة الاعمال حرراهل الفن جداول يعلم منها درجة  
الحرارة المتعاقبة للقوة النهائية المقدرة بقدر معلوم من الجوهو الواحد  
يقابله مائة درجة والجوان ( ١٢٠ ) درجة وستة اعشار وهكذا  
الى ثمانمائة وعشرين جواً يقابلها ( ٢٢٠ ) درجة وتسعة اعشار

قال الشيخ قد يوجد في كتب القدماء بعض مسائل تتعلق  
بفعل الحرارة في الماء والاجسام وبعض احوال البخار لكننا لم نجد

فيها كيفية استعماله بهذه الصورة الجارية الان وإنما كان يستعمل قديماً قوة الانسان والحيوان في نقل الانتقال وإدارة بعض الآلات كالسواقي والطواحين وكذلك استعملت قوة تيار الماء في إدارة بعض الآلات واستخدمت قوة الريح في سير السفن في الأبحر والأنهر وإدارة الطواحين الهوائية ونحو ذلك أما استعمال قوة البخار فيما ذكر بهذه الصورة فلا نعهد له ذكراً فيما وصل إلينا من الكتب القديمة فهل تذكر تاريخ الاهتداء لاستعماله

فقال الانكليزي غاية ما أمكن الوصول الى معرفته مما كان جارياً في ذلك بالأعصار القديمة ان اول من تنبه لاستعمال قوة البخار هارون الاسكندري المصري وذلك انه صنع كرة مجوفة تدور على محور افقي دورة رحوية وجعل فيها انابيب على خط واحد حولها وجعل اطراف هذه الانابيب معوجة الى جهة واحدة فتدور قوي البخار في جوف تلك الكرة خرج من تلك المعوجات فاجب حركتها فتدور على محورها كما تدور الرحا وهذا ايضاً يحصل بالماء لو وضع في تلك الكرة بدل البخار هذا غاية ما أمكن الاستدلال عليه ما حصل في الأزمان القديمة

ثم في سنة ١٦١٥ من الميلاد اعني سنة ١٠٢٤ من الهجرة استعمل رجل من الفرنسية قوة البخار في رفع الماء الى الاعلى وذلك بان صنع وعاء كروياً يعبر عنه بالذست والقزان وجعل له انبوتين لكل منهما حنفية تفتح وتغلق على حسب الإرادة واحدى هاتين

الانبوبين في اعلى الوعاء ليصب منها الماء وهي قصيرة والثانية طويلة متصلة باسفله صاعدة الى فوق متصلة بحوض مرتفع حيث يراد ايصال الماء . فيوضع الماء في ذلك الوعاء الكروي من الانبوبة المعدة لصبه ولا يلا كله بل يبقى اعلاه فارغاً لاجل تجمع البخار فيه وتوقد النار تحت الوعاء فيتخلل منه بخار يرتفع الى ذلك الموضع الفارغ فاذا اشتدت قوة البخار ضغط على الماء فيندفع الى الانبوبة الطويلة المتصلة بالحوض ويرتفع فيها بسبب شدة ضغط البخار عليه حتى يصل الى الحوض العالي وينزل فيه وكلما نقص الماء في ذلك الوعاء الذي تحته النار وضع فيه ماء جديد وهكذا حتى يبلى الحوض

ثم في سنة ١٠٢٩ من الهجرة جعل احد الطليانيين للدست الذي توقد تحته النار انبوبة ممتدة الى قرب طارة راسية لها كفات وان شئت قلت ريشات او الواح مثلاً كما في الطارة التي تشاهد في مراكب الناراغني الطارة التي يسير بها مركب النار ويقال لها جرخ وعجلة وتلك الانبوبة متوجهة الى الكفات المذكورة ولها حنفية تفتح وتغلق بالاختيار فتوقد النار على الدست وفيه الماء فيتخلل منه البخار فاذا اشتدت قوته تفتح حنفية الانبوبة فيمشي فيها البخار ويخرج منها بقوته متوجهاً الى الكفة التي تقابله من كفات الطارة فيدفعها بقوته فتنزل وتاتي الكفة التي بعدها فيدفعها كذلك وهكذا فتدور الطارة بسبب ذلك . وتلك الطارة متصلة

بقضيب طلومبة موضوعة في بئر فيتحرك قضيب الطلومبة بواسطة دوران الطارة فيخرج الماء بواسطة الطلومبة من البئر الى اعلاه وذلك كان المقصود من هذه الآلة

وفي سنة ١٠٧٤ من الهجرة كتب بعض الناس نبذة ذكر فيها انه اخترع آلة تيسر بها رفع الماء من اسفل الى اعلى بواسطة النار وهي عبارة عن دستانين كرويين مركبين على فرن وفي كل منهما انبوبة واصلة الى قرب اسفله نافذة منه وكل من الانبويتين يتصل بانبوبة افقية وكل من الدستانين في اعلاه انبوبة قصيرة غير ما ذكر يصب منها الماء في الدست ولها حنفية فاذا وضع الماء في احد الدستانين الى قرب نصفه مثلاً ووقدت تحته النار يولد منه البخار ويضغط على الماء فيبشي في الانبوية المتصلة باسفل الدست ويرتفع فيها الى اعلاه وهذه الآلة مثل الاولى التي استحدثت سنة ١٠٢٤ وانما هذه فيها دستان يستعملان بالتعاقب وفي كل منهما يستعمل جزء من الماء الى بخار يضغط على باقي الماء فيرفعه الى الاعلا

وفي سنة ١١٠٢ من الهجرة استحدث رجل من الفرنسيين يسمى (باين) آلة ذات مكبس يضغط عليه البخار فيرفعه وذلك ان هنالك وعاء على شكل الاسطوانة مفتوحاً من اعلاه مسدوداً من اسفله وفيه مكبس محكم مائل للوعاء المذكور قابل للحركة من اسفل هذا الوعاء الى اعلاه وعكسه وفي اعلى المكبس قضيب نعبر

عنه بالساق فيوضع في الوعاء الاسطواني المذكور مقدار من الماء قبل وضع المكبس ثم يوضع المكبس ويتكأ عليه باليد فينزل الى ان يمس الماء الموجود في الوعاء فيخرج الهواء الموجود من ثقب في سطح المكبس يسد بعد ذلك وتوقد النار تحت الوعاء المذكور فيتولد البخار ويضغط على المكبس فيرتفع الى اعلى الوعاء ويرتفع معه ساقه السابق ذكره وفي راس هذا الساق حبل ربط به طرفه وهذا الحبل يمر فوق بكرتين وطرفه الثاني طويل بحيث يمكن ان يربط به شيء ثقيل يراد رفعه وغير ذلك فاذا ارتفع ساق المكبس كما ذكر يضبط في محله بسمار يثبت به ثم تبطل النار من تحت الوعاء الاسطواني المذكور فتحصل البرودة ويتقطع البخار الدافع للمكبس فاذا رفع حيثئذ السمار المسك للساق سقط المكبس الى اسفل الوعاء بسبب ضغط الهواء عليه وسقوطه يسحب معه طرف الحبل المربوط به فيرتفع الثقل المربوط في الطرف الثاني من الحبل ونحو ذلك

ثم اشتغل الناس بتحسين هذه الآلة وغيرها من الآلات السابقة حتى صارت تستعمل في اعمال جسيمة كثيرة النفع واستحدثت آلات جديدة لرفع الماء احسن من الاولى بحيث صار الماء الذي يراد رفعه الى الاعلى يوضع في آنية غير التي تحتها النار فتميزت الآلات الجديدة على القديمة بهذه المزية ولكن مع هذا كان يضع جز كبير من البخار يذهب سدى وذلك انه عند توجيه البخار الى

الماء ليضغط عليه كان يذوب في الماء جز كبير من البخار فكان لا يرتفع الماء إلا اذا تشبع بالحرارة بحيث لا يقبل ذوبان بخار جديد فيه وحينئذ يضغط عليه البخار الوارد ويفعل فيه بكل قوته فيرتفع وبهذا السبب كان يضع جزء كبير من البخار كما ذكر واستمر هذا المحذور الى ان اجتهد (باين) المذكور في ازالته حتى ظفر بالغرض سنة ١١١٩ من الهجرة بان جعل البخار الوارد من الدست يضغط على مكبس كالسابق ذكره موضوع فوق الماء المراد رفعه فتم ضغط البخار على المكبس ضغط المكبس على الماء فيخرج في انبوبة مخصوصة يرتفع فيها الى حيث يراد رفعه

ولم يقتصر المذكور على ذلك بل احدث آلة تسمى آلة الامن تكون فوق الدست لمنع البخار من ان يصل الى شدة يتمزق بها الدست الذي هو فيه وسيجيء ذكرها

وزاد في تحسين الآلة المعدة لرفع الماء حتى جعلها تصلح للاستعمال في اعمال كثيرة وذلك انه بعد رفع الماء الى حوض موضوع على ارتفاع مخصوص جعل لذلك الحوض انبوبة ينصب منها الماء على طارة ذات كفات كالطارة السابق ذكرها في الآلة المستحدثة سنة ١٠٢٩ فتدور تلك الآلة بقوة وقع الماء الساقط على كفاتها وانتفع بدوران هذه الطارة في ادارة غيرها

ومن ذلك الوقت اخذت تلك الآلات في الاشتهار واشتغل خلق كثير في بلاد فرنسا والانكليز بتحسين امرها والزيادة فيها

وأكثر مزاياها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من الحسن والجودة وكثرة المنافع ودخلت في كثير من الصنائع والمعامل والمصانع واستقاء الزراع والمحراث وطحن الحبوب والسفر بمراكب النار في البحر وعلى سلك الحديد في البر حتى صار البخار اكبر مساعد للنوع الانساني فزادت به قوته وسرعته حتى عمل به ما كان يعد من المتع عمله بالوسائط الاولى

فقال الشيخ نعم قد عمل بواسطة هذا البخار اعمال كانت تعد من المتع في العادة ولا يتصورها احد من الناس فمن ذا الذي كان يتصور قبل ان يظهر هذا الامر انه يذهب من القاهرة الى الاسكندرية ثم يعود الى محله في يوم واحد . ولكن اريد من لطفك ان تخبرني عن اول وقت استعملت فيه هذه السكك الحديدية ان كان على ذكر منك ثم تم معروفك بان تشرح لي صفة الآلات البخارية المستعملة الان في سكة الحديد وغيرها مع بيان كيفية استعمالها على سبيل الاجمال والتقريب تميماً للاكرام فاتم ما مننت به واحسن \* فما المعروف الا بالتام

قال الانكليزي حياً وكرامه اما استعمال السكك الحديدية اعني السفر بواسطة الات البخار فوق قضبان من الحديد توضع على الارض كما تشاهده فلم يكن الا منذ عهد قريب فان اول تجربة عملت في ذلك ونجحت كانت في سنة ١٨٢٥ للميلاد الموافقة لسنة ١٢٤٦ من الهجرة في بلاد الانكليز وقبل ذلك كانت جرت

آلة بخارية في سنة ١٢١٦ بقصد استعمالها في السير على الأرض المعتادة فلم تنجح وظهرت صعوبات كبرى من حصول الاحتكاكات الكثيره فتركت وبعد ذلك اشتغل الفكر بوضعها فوق قضبان من حديد واستعمالها في محاجر الفحم الحجري فظهر منها فوائد وثمرات كثيره ولكن كانت سرعتها قليلة لثقله كفاية المقدار المتحصل من البخار فان كل دورة كاملة من دورات العجل تحتاج الى كمية من البخار تساوي ضعف حجم الاسطوانة البخاري فيها تأثير القوة الفعالة فلماذا بقيت سكك الحديد مدة لا تستعمل الا في نقل الفحم الحجري وبعض بضائع قليلة

وفي اثناء ذلك كان كثير من ارباب الفن يجتهدون ويفكرون في استنباط طريقة يتيسر بها زيادة مقدار البخار لما يترتب عليه من الثمرات الكبيره والفوائد العامة فكان الفخر في ذلك لرجل من الفرنسيه استنبط بفكره طريقة حسنة موصلة الى هذا الغرض وذلك بوضع جملة انابيب في الدست متصلة ببيت النار تنفذ فيها النار والحرارة فيكثر بسببها تسخن الماء ويزداد بذلك مقدار البخار الى الحد المطلوب وعند ذلك عملت هذه الطريقة في الآلة انشأها (ستيفنسون) الانكليزي في معمل له وجربت فنجحت . ومن وقتئذ اشتهرت وكثرت السكك الحديدية وصارت تزيد وتمتد في كل مملكة من الممالك الى ان صارت مستعملة في اكثر بقاع الأرض المعمورة وقد كانت الآلات التي

عملت من قبل لانتزيد سرعتها عن ثلاثة آلاف متر في الساعة الواحدة وكان ما يتقل من البضاعة في المرة الواحدة لا يزيد عن ثمانين طنًا ونعني بالطن ويقال له طونيلاته ايضاً ما يساوي مقدار اثنين وعشرين قنطاراً مصرياً وبعض كسر قليل من قنطار فثانون طنًا تساوي ألفاً وسبعائة وعشرين قنطاراً فهذا غاية ما كان يمكن نقله بواسطة الآلات القديمة مرة واحدة وإما الآن فلما دخل هذه الآلات من الاتقان والتحسين صار يمكن ان يتقل بها في المرة الواحدة لغاية ثمانمائة طن بسرعة عشرين الف متر في الساعة الواحدة هذا في قطارات البضائع وإما قطارات المسافرين فيمكن لها لختتها عن هذا المقدار ان تسير في الساعة الواحدة ستين الف متر فاكثر الى ثمانين الف متر فان سرعة الآلات البخارية تزيد وتنقص على حسب الاثقال مثل الحيوانات فان كانت الآلة تجر ثمانمائة طن في سرعة عشرين الف متر في الساعة الواحدة فلا تجر في سرعة ثمانين الف متر مثلاً إلا عشر هذا المقدار فانما وصلت السرعة الى مائة وستين الف متر مثلاً فانما تسير بنفسها ولا تجر حيث شياً مطلقاً

وإما صفة الآلة البخارية في سكة الحديد وغيرها وكيفية استعمالها فاشرحها لحضرتكم على وجه التلخيص والاختصار والتعريب فاقول الغالب فيما عدا باخرة سكة الحديد من الآلات البخارية ان يكون الاناء المتولد فيه البخار منفصلاً عن الآلة وإما باخرة

سكة الحديد فيكون فيها اناء البخار مع الآلة ويرى الجميع كثيرون  
واحد ويقال له هنا وابور البر وهو الذي تشاهده امام القطار  
يجر هذه العربات على قضبان الحديد الموضوعة فوق الجسر على  
مقتضى قواعد معلومة تخص بتحديد سعتها وميلها واخلاف اتجاه  
سيرها على جسر واحد او جسور متعددة متصلة ببعضها موصلة الى  
بلاد مختلفة ولتتكم على باخرة سكة الحديد وغيرها

فاما غيرها من الآلات المستعملة لسير السفن وري المزارع  
وإدارة المعامل المعروفة بالورش ونحو ذلك فعمل البخار فيها  
( وهو المعروف بالدست والقران ) يكون موضوعاً فوق الفرن  
بميت يكون اكثر سطحه مائلاً للنار حتى يحصل مقدار كثير من  
البخار من غير اتلاف واسراف في الوقود المستعمل وهو الفحم الحجري  
في الغالب ولا يكون شكل الدست والفرن كما اتفق بل يكون  
بمقتضى قواعد وقوانين هندسية لا بد من رعايتها والاجراء بموجبها  
لحصول النجاح فاذا اوقدت النار في الفرن تحت القران غلي الماء  
الموجود فيه فيتولد منه البخار ويدخل في انابيب من المعدن مخصوصة  
يخرج منها الى اوعية اسطوانية من اجزاء الآلة تسمى الاسطوانات  
لكل منها غطاء محكم وفي باطنها مكابس محكمة على قدرها كالتي  
تقدم ذكرها ولكل مكبس ساق ممتدة نافذة من غطاء الاسطوانة الى  
خارجها فاذا دخل البخار في تلك الاسطوانات حرك ما فيها  
من المكابس الى جهة اتجاهه فاذا ورد من الاسفل ابي من جهة

قاعدة الاسطوانة دفع المكبس الى اعلاها واذا جاء من الاعلى ابي  
من جهة غطاء الاسطوانة دفع المكبس الى اسفلها ففي الحالة الاولى  
يصعد المكبس من جهة قاعدة الاسطوانة الى قرب غطاءها وفي  
الحالة الثانية يهبط الى قرب قاعدتها وهكذا تستمر المكابس صاعدة  
وهابطة بتكرار ورود البخار عليها ودفعه لها من الاسفل الى الاعلى  
ومن الاعلى الى الاسفل وفي حركاتها هذه تعلق وتسفل معها سيقانها  
الخارجة من اعطية الاسطوانات كما مر ذكره انفاً وهناك قطعة  
مستطيلة ذات شكل مخصوص نسميها القبّ تشبيهاً لها بقب  
الميزان موضوعة بحيث يمكن ان تتحرك حول مركز وسطها كحركة  
قب الميزان يعلو احد طرفيها ويسفل الاخر ثم يعلو السافل  
ويسفل العالى وساق كل مكبس من المكابس المذكورة متصل راسها  
باحد طرفي هذا القب وقد رتب البخار الوارد على هذه المكابس  
بحيث يجعلها تتحرك على التعاكس بمعنى انه اذا كان احدها صاعداً  
كان الاخر هابطاً ثم يهبط الصاعد ويصعد الهابط وهكذا . وبحركة  
المكابس هذه الحركة التعاكسية يتحرك القب المذكور بالتبعية لحركة  
سيقانها المتصلة رؤوسها بطرفيه كما ذكر فيصعد طرف القب مع  
الساق الصاعدة ويهبط مع الهابطة وهكذا . وبحركة طرفيه تتحرك  
معها قضبان ثابتة فيها متصلة بمجاور موضوعة على الارض او غيرها  
فتوصل تلك القضبان حركة القب المذكور الى هذه المحاور  
فتجعلها تتحرك حركة دورية كحركة سهم الساقية فتدور بهذه الدورة

بأقي العدد الموجودة لما بينها من الاتصال ولكل آلة تركيب مخصوص موافق للغرض المطلوب منها ولها أشكال مختلفة وأنواع كثيرة بحسب ما يطلب منها فليس ما يطلب لأجل الغزل والحياكة أو صناعة الحديد مثلاً كالذي يطلب لسير السفن ولأما يراد به إدارة عدد كثيرة وكبيرة كالذي يراد به إدارة عدد قليلة وصغيرة بل كل على حسب ما يلزم له

وأما بواخر سكة الحديد فيكون فيها الآلة والقران والفرن جميعها مجتمعة مع بعضها في هذا الدست المستطيل الأسطواني الذي تراه أمام القطار موضوعاً على فرش من المعدن فوق العجل بكيفية معلومة ليس هنا محل شرحها

فجهة المؤخر من الدست حيث يقف سائق الوابور فيها بيت النار وهو الفرن وهناك جميع الآلات التي تدل على قوة تمدد البخار والتي يوقف بها الوابور حالة سيره وعكسه وفي جهة مقدم الدست أي أوله من الجهة التي يسير إليها يوجد بيت الدخان وفوقه تلك المدخنة القائمة التي تراها ينبعث منها الدخان إلى الجو وبين بيت النار وبيت الدخان المذكورين بيت الماء وفيه أنابيب من النحاس كثيرة يبلغ عددها مائة فأكثر إلى مائتين وثمانين وهي متصلة ببيت النار وبيت الدخان مارة من بيت الماء الموجود بينهما كما ذكر

وهذه الأنابيب موضوعة بقرب بعضها وبينها أخلية صغيرة

ببلاها الماء فتصير الانابيب المذكورة مغمورة فيه  
ثم فوق الدست مما يلي جهة النار بيت البخار وهو الذي  
تراه نائماً فوقه كالمحذبة على ظهره ويقال له طنبوشه  
فيوضع الماء في الفزان ابي في بيت الماء السابق ذكره ولا يبلا  
جميعه بل يترك جزء في اعلاه فارغاً من الماء ليتولد فيه البخار ومنه  
يصعد الى الطنبوشة المذكورة وتوقد النار في الفرن فيسخن بيت  
الماء المتصل به وتدخل الحرارة مع الدخان في تلك الانابيب فتسخن  
ايضاً وتشتد بها سخونة الماء لكونها مغمورة فيه فيتولد البخار بسرعة  
ويحصل منه مقدار كثير يكفي للمطلوب مجتمع في الطنبوشة كما  
مر ذكره فتشتد قوته وفي اعلى هذه الطنبوشة من داخلها فم انبوبة  
طويلة تمتد منها الى بيت الدخان مارة من بيت الماء من اعلاه في  
الجزء الذي يكون فارغاً من الماء وضعت كذلك لئلا تكون في  
الماء فتبرد وتضعف قوة ما يكون فيها من البخار وجعل فيها في  
اعلى الطنبوشة لئلا يدخل فيه بعض الماء عند غليانه فاذا اجتمع  
البخار واشتدت قوته كما ذكر يدخل في تلك الانبوبة من فيها  
الذي في اعلى الطنبوشة فيسير فيها الى بيت الدخان وهناك  
ينفصل في انبويتين يصل منها الى اسطوانتين في جانبي بيت  
الدخان احدها جهة اليمين والاخرى جهة اليسار وفي كل منها  
مكبس فاذا دخل البخار في كل اسطوانة دفع المكبس الذي فيها  
فحركه الى جهة اتجاه قوته وبحركة المكبسين تحرك عدد متصلة بها

وإصلة الى محور العجل الكبير الذي في وسط الفرش فتحركها  
 حركة مستديرة على الحديد الموضوع فوق الارض فتسير الآلة كلها  
 عليه وتجر خلفها العربات المرتبطة بها وبعد ان يتم البخار فعله  
 المطلوب منه ينصرف من تلك الاسطوانات بواسطة انابيب توصله  
 منها الى المدخنة فيخرج منها بقوة وصوت تسمعه مدة سير الوابور  
 فتساعد تلك القوة على اشتعال النار لانها تجلب اليها الهواء وفوق  
 القزان آلة تسمى آلة الامن تبين تغير مقدار الماء الموجود فيه  
 للاحتراز من زيادة قوة البخار عن المقدار اللازم فان قوة تمدد  
 البخار تزيد وتنقص بحسب زيادة الحرارة وتقصها والقزانات انما  
 تعمل لتحمل قوة محددة اذا زادت عنها قوة البخار يمزق القزان  
 وينكسر يحصل خطر كبير وضرر عظيم ففائدة آلة الامن الاحتراز  
 من ذلك الخطر والضرر وبالقرب من سائق الوابور آلة اخرى  
 ينظر اليها في كل وقت يعرف بها مقدار تلك القوة التي هي الاساس  
 في سرعة السير فان كانت زائدة عن الحد خففها وان كانت  
 ناقصة فعل ما يقويها . ثم آلة اخرى يسد بها الانبوبة الموصلة  
 للبخار الى الاسطوانات حين يريد توقيفها ويفتحها حين يريد  
 تحريكها وجميع تلك الآلات لها مقادير محددة وابعاد معينة  
 بحسابات طويلة ولها اشكال موافقة لما يراد منها وتركب مع بعضها  
 على مقتضى اصول وقواعد مقررة طويلة الشرح يوجد بيانها في  
 كتبها الخاصة بها يطلبها من يريد التبحر في معرفتها وانما هذا بيان

اجالي لصفتها على قدر الكفاية لتصورها لمن لا يريد الاشتغال بها  
واتخاذها حرفة

وقد كان استعمال سكك الحديد وانتشارها في مبداء ظهورها  
قليلاً لجهل الناس امرها فكان الموجود منها سنة ١٨٢٩ من الميلاد  
اي سنة ١٢٥٥ من الهجرة في بلاد الانكليز ( ٢٢٢٢٢ ) كيلومتر  
وكل كيلومتر الف متر وفي فرنسا ( ٥٧٢ ) كيلومتر وفي باقي  
اوروبا ( ٨٢٤ ) كيلومتر وكان اكثر هذه السكك مستعملاً في  
نقل الفحم ثم اخذت في الاشتهار والانتشار بالتدريج ورغبت فيها  
اصحاب الاموال لما علم من كثرة فوائدها وثمراتها فانعقدت شركات  
بين كثير من الناس اجتمعت فيها اموال عظيمة واشتغلوا بها  
فكثرت واشتهرت فلما مضى عشرون سنة من ابتداء ظهورها  
كان الموجود منها في اوروبا وفي باقي الجهات ( ٧٠٠٠٠ ) كيلومتر  
وفي سنة ١٢٧٢ من الهجرة احصي وقد ما حصلت المناقولة على  
انشائه وعقدت مشارطاته الى ذلك التاريخ فبلغت ( ١١٥٣٩٥ )  
كيلومتر منها في ايتازونيا من بلاد امريكا ( ٢٢٣٧١٠ ) كيلومترات  
وفي بلاد الانكليز ( ٢١٥٥٥ ) كيلومتر وفي بلاد فرنسا ( ١١٦١٥ )  
كيلومتر وفي المانيا ( ١٨٠٨٤ ) كيلومتر وفي باقي الجهات  
( ٢٠٤٢١ ) كيلومتر وكان الذي تم من ذلك واستعمل الى التاريخ  
المذكور ( ٧٧٣٢١ ) كيلومتر منها في بلاد الانكليز ( ١٤٠٢٥ )  
كيلومتر وفي امريكا ( ٣٩١٩٨ ) كيلومتر وفي المانيا ( ١١٩٧٥ )

كيلو متر وفي فرنسا ( ١١٦١٥ ) كيلو متر والباقي في سائر جهات  
 اوروبا وغيرها ومن ذلك في القطر المصري ( ٥١٨ ) كيلو متر  
 ثم بعد ذلك باقي ما عملت مشارطاته وزاد عليه كثير غيره  
 واذا قايستنا بين هذه المتبادروين اهل الجهات المذكورة نرى ان  
 كل مليون من الاهلين اي الف الف يقابله ٢٠٠٠ كيلو متر  
 من سكك الحديد في بلاد ايتازونيا والف كيلو متر في بلاد الانكليز  
 وخمسمائة كيلو متر في فرنسا ومانيا وما من يوم الا ويحدث فيه  
 انشاء سكك جديدة توصل بعض البلاد لبعضها فهي كل يوم في  
 تجديد وكل وقت في مزيد

قال الشيخ ان السكك الحديدية في مصر عملت على نفقة  
 الحكومة وهي تقوم بما يلزم من مصروفها وتأخذ ما يتحصل من  
 ايرادها فهل الجاري في سائر الجهات مثل ذلك

قال الانكليزي الجاري في البلاد الاوروبية على خلاف  
 ذلك فان انشاء سكك الحديد فيها يكون على نفقة شركات  
 تتالف من شركاء قليلين او كثيرين على حسب حالة السكة  
 المطلوب انشاؤها والتعود اللازم صرفها عليها فهم يصرفون عليها  
 وياخذون اجرة ما يحمل فيها من المسافرين والبضائع التجارية  
 وغيرها بمقتضى اقوانين موضوعة فيها حدود مقررة لا يقدرون على  
 تعديها وذلك لاجل راحة الناس وعدم تمكن ارباب تلك الشركات  
 من اطلاق التصرف بما يخل بالعرض الاصلي وهو تسهيل امر

اجمالي لصفتها على قدر الكفاية لتصورها لمن لا يريد الاشتغال بها  
واتخاذها حرفة

وقد كان استعمال سكك الحديد واتشارها في مبداء ظهورها  
قليلاً للجهل الناس امرها فكان الموجود منها سنة ١٨٢٩ من الميلاد  
اي سنة ١٢٥٥ من الهجرة في بلاد الانكليز ( ٢٢٢٢ ) كيلومتر  
وكل كيلومتر الف متر وفي فرنسا ( ٥٧٢ ) كيلومتر وفي باقي  
اوروبا ( ٨٢٤ ) كيلومتر وكان اكثر هذه السكك مستعملاً في  
نقل الفحم ثم اخذت في الاشتهار والانتشار بالتدريج ورغبت فيها  
اصحاب الاموال لما علم من كثرة فوائدها وثمراتها فاعتقدت شركات  
بين كثير من الناس اجتمعت فيها اموال عظيمة واشتغلوا بها  
فكثرت واشتهرت فلما مضى عشرون سنة من ابتداء ظهورها  
كان الموجود منها في اوروبا وفي باقي الجهات ( ٧٠٠٠٠ ) كيلومتر  
وفي سنة ١٢٧٢ من الهجرة احصي وقدر ما حصلت المناولة على  
انشائه وعقدت مشارطاته الى ذلك التاريخ فبلغت ( ١١٥٣٩٥ )  
كيلومتر منها في ايتازونيا من بلاد امريكا ( ٣٣٧١٠ ) كيلومترات  
وفي بلاد الانكليز ( ٢١٥٥٥ ) كيلومتر وفي بلاد فرنسا ( ١١٦١٥ )  
كيلومتر وفي المانيا ( ١٨٠٨٤ ) كيلومتر وفي باقي الجهات  
( ٢٠٤٢١ ) كيلومتر وكان الذي تم من ذلك واستعمل الى التاريخ  
المذكور ( ٧٧٢٢١ ) كيلومتر منها في بلاد الانكليز ( ١٤٠٢٥ )  
كيلومتر وفي امريكا ( ٣٩١٩٨ ) كيلومتر وفي المانيا ( ١١٩٧٥ )

كيلو متر وفي فرنسا ( ١١٦١٥ ) كيلو متر والباقي في سائر جهات أوروبا وغيرها ومن ذلك في القطر المصري ( ٥١٨ ) كيلو متر ثم تم بعد ذلك باقى ما عملت مشارطاته وزاد عليه كثير غيره وإذا قايستنا بين هذه المتادير وبين اهل الجهات المذكورة نرى ان كل مليون من الاهلين اى الف الف يقابله ٢٠٠٠ كيلو متر من سكك الحديد في بلاد ايتازونيا والف كيلو متر في بلاد الانكليز وخمسة كيلومتر في فرنسا ومانيا وما من يوم الا ويحدث فيه انشاء سكك جديدة توصل بعض البلاد لبعضها ففى كل يوم في تجديد وكل وقت في مزيد

فقال الشيخ ان السكك الحديدية في مصر عملت على نفقة الحكومة وهي تقوم بما يلزم من مصروفها وتأخذ ما يتحصل من ايرادها فهل الجارى في سائر الجهات مثل ذلك

فقال الانكليزي الجارى في البلاد الاوروبية على خلاف ذلك فان انشاء سكك الحديد فيها يكون على نفقة شركات تتألف من شركاء قليلين او كثيرين على حسب حالة السكة المطلوب انشاؤها والتعود اللازم صرفها عليها فهم يصرفون عليها وياخذون اجرة ما يحمل فيها من المسافرين والبضائع التجارية وغيرها بمقتضى اقوانين موضوعة فيها حدود مقررة لا يتدرون على تعديها وذلك لاجل راحة الناس وعدم تمكن ارباب تلك الشركات من اطلاق التصرف بما يخل بالغرض الاصلى وهو تسهيل امر

النقل والسفر لجميع الناس مع الراحة والامن باجرة اقل مما كانوا  
يصرفونه على ذلك في غير سكة الحديد

وقد قدر عدد المستخدمين في سكك الحديد في كل ميريامتر  
اي عشرة من الكيلومتر فوجد ٧٥ شخصاً في بلاد الانكليز و٧٣  
شخصاً في بلاد المانيا و ٧١ في فرنسا فكل شركة من الشركات  
المشغلة بهذه الاعمال تستعمل في الاقل نحو ( ٢٧٠٠٠ ) شخص  
وذلك عبارة عن جيش كل افراده مستعملة في توسعة دائرة الثروة  
البشرية وتمعيشة في ساحة الشركات المذكورة فلو حسبنا مقدار  
جميع المشتغلين بخدمة سكك الحديد التي ذكرناها لوجدناه يقرب  
من مليون اي الف الف من الناس

ولو نظرنا الى ما يصرف في هذه السكك لوجدناه يبلغ مبالغ  
تجاوز حد العهود فقد وجد متوسط ما يصرف في انشاء كل  
كيلومتر في بلاد الانكليز نحو ( ٢٣٧٣٠ ) جنيه انكليزي وفي  
بلاد المانيا ( ١١١٢٠ ) وفي امريكا ( ٥٠٤٠ ) جنيه وفي فرنسا  
( ٢٠١٢٠ ) جنيه من هذا ( ٢٤٠٠ ) جنيه ثمن الارض  
و ( ٥٦٠٠ ) جنيه ثمن القضيب من الحديد و ( ٢٤٠٠ ) جنيه  
ثمن الادوات ومصاريف الجسر والتركيب والباقي في المباني ويختلف  
المصرف كثيرة وقلة بحسب الجهات فيكون في قرب المدن كثيراً  
جداً فقد لزم صرف قدر مليون جنيه انكليزي في المرور من  
مدينة ليون وصرف على محطة باريس نحو ( ١٢٠٠٠٠٠ ) جنيه

انكليزي وغالب المحطات النهائية يلزم لها مصاريف هائلة فان بعضها يحتاج من الارض الى ما يقرب من مائة فدان مصري

فلو قدرنا متوسط هذه المقادير وجعلناه قيمة كل كيلو متر واحد في جميع الجهات وحسبنا به الجميع نجد ان ما صرف في انشاء ما سبق ذكره من السكك يبلغ تقريباً نحو ١٠٠٠٠٠٠٠ ١٠٠٠٠٠٠٠ جنيه انكليزي فما بالك لو حسبنا مصروف العامل الجاري فيها اعمال الات هذه السكك وادواتها

قال الشيخ فهل جميع السكك في جميع الجهات على نسق واحد ام هي مختلفة

قال الانكليزي ليست على نسق واحد في جميع الجهات ففي بلاد امريكا تجد غالب السكك على خط واحد فيه ميول ابي انحدارات كبيرة وغالب المحطات فيها من الخشب والاصل في ذلك رعاية قلة المصرف وعدم الاسراف وفي بلاد الانكليز وفرنسا جميع السكك على خطين والمحطات واسعة مشيدة صرف عليها مصروف كثير والاصل في ذلك رعاية كثرة رغبة الناس . وفي بلاد الالمانيين بعض السكك خط واحد وبعضها على خطين ولكن منذ قريب راوا لزوم جعلها كلها على خطين وبالجمله فاخلاف السكك تابع لدرجة تمدن البلاد ودرجة عمارتها وثروة اهليها

قال الشيخ ارى هذه السكك قد صرف عليها اموال هائلة

على ما ذكرت ولكن ربحها بالضرورة اعظم فان ارباب الشركات التي ذكرتها انما اشتغلوا بها طلباً للربح والمكسب فهل حسب ذلك او قدر

قال الانكليزي قد حسب مقدار المتحصل من اجرة السكك المذكورة سنة ١١٧٢ فكان في بلاد الانكليز اجرة المسافرين (١١,٢٦٠,٠٠٠) جنيه واجرة البضاعة (١١,٠٠٠,٠٠٠) جنيه ايضاً فيكون مجموع المتحصل من الاثنين (٢٢,٢٦٠,٠٠٠) جنيه وفي بلاد فرنسا اجرة المسافرين (٥,٥٢٠,٠٠٠) جنيه واجرة البضائع (٦,٠٤٠,٠٠٠) جنيه فيكون مجموعها (١١,٥٦٠,٠٠٠) جنيه وفي المانيا كانت اجرة البضائع ثلثي المتحصل كله فاذا قايسنا بين طول السكك والاجرة المحاصلة منها نجد انه يحصل على كل كيلومتر واحد في بلاد الانكليز ١٦٤٨ جنيه وفي فرنسا ١٩٤٠ جنيه وفي المانيا ١١٦٨ جنيه كل ذلك باعتبار الجنيه الانكليزي<sup>١</sup> وما يصرف سنوياً على سكك الحديد يختلف باختلاف البلاد والاشغال المرتبة لكل سكة بها والقائمين بادائها فهو في بلاد فرنسا اربعة واربعون من كل مائة من اصل المتحصل وفي بلاد الانكليز خمسة واربعون في المائة وفي المانيا اربعون وسكك الحديد في بلاد الفلمنك جارية على طرف الحكومة كما في مصر ويصرف عليها سنوياً خمسة وعشرون من المائة من اصل المتحصل وذلك في السكك الموجودة في جهاتها الشمالية

واربعة وخمسون من المائة في سكك جهاتها الجنوبية وخمسة وستون في جهاتها الشرقية واربعة وتسعون في جهاتها الغربية .  
 فقال الشيخ اظن ان ربح سكة الحديد هنا كثير جداً بسبب كثرة ما يتقل بها من المسافرين والبضاعة فقد سمعت انه يسافر في اليوم الواحد من مصر نحو ستة قطارات ومثلها من اسكندرية بعضها مشحون بالناس المسافرين وبعضها بالبضاعة وهذا غير جهات الفروع وجهة الصعيد

فقال الانكليزي لادري حاصل ايراد السكة بمصر ومصرفها فان هذا انما يعلم من نتائج تعمل عنه في كل سنة وما رأيت شيئاً من ذلك يتعلق بمصر وقد كان خطر بيالي ان اسال من حضرتكم عنه

قال الشيخ ومن ابن لي علم ذلك وهذه المرة اول مرة ركبت فيها هذه السكة فاني بحسب احوالي المعاشية واشغالي اليومية ما كنت اجد موجباً للسفر ولا خرجت من مصر منذ دخلتها الا مرة واحدة لامر مهم وذلك ان والدي توفي وترك ايتاماً فذهبت واحضرتهم ولم اسمح الى السفر قبلها ولا بعدها فلما لم يكن لي حاجة الى السفر في كل وقت لم يكن لي تفكر في مثل هذه الامور التي هي من لوازمه على انا في بلادنا ليس لنا عادة بالبحث عن مثل هذه الاحوال حتى ان من يضطر منا الى كثرة السفر لا تجد له عناية بمعرفة ذلك وانما يعرف مقدار الاجرة التي يدفعها في السكة

وفي غيرها كالداية والمركب مثلاً وبخار ما هو الأرجح له من غير  
 ان يبحث عن ربح صاحب السكة او الداية او المركب مثلاً فهذه  
 عادتنا وطريقتنا وان كان هذا الامر ربما عابه علينا غيرنا بالنظر  
 لعاداتهم وعلى الجملة فليس عندي شيء من معرفة ربح هذه السكة  
 او خسارتها فان كان عندك علم بمقدار ارباح سكك الحديد في  
 غير هذه البلاد فارجوك ان تبين لي منه نبذة فرها يمكن لنا ان  
 نقيس احوالها في هذه البلاد على غيرها

فقال الانكليزي ليس الحال في جميع الجهات واحداً فاعتدنا  
 في بلاد الانكليز كان الريح في بعض السنين اربعة في المائة تقريباً  
 وكان مرة سبعة ومرة تسعة في بعض الجهات بعد طرح جميع  
 المنصرف من اصل المتحصل وفي فرانس ابلغ مرة خمسة ومرة ستة  
 ومرة تسعة كذلك وفي المانيا بلغ الريح زهاء عشرة في المائة وفي  
 بعض جهاتها نحو اثنين وعشرين في المائة وفي ايتازونيا بلغ الريح  
 في بعض جهاتها عشرة وفي اخرى اثني عشر وخمسة عشر في المائة  
 وليست تدوم هذه الارباع على قدر واحد وحده معين بل تزيد  
 وتنقص بحسب الاسباب ومقتضيات الاحوال وكذلك المصاريف  
 قال الشيخ اني ارى محلات جلوس الناس في هذه السكة  
 مختلفة متفاوتة في الفرش والزينة والروثي فما وجه ذلك هل هو  
 بحسب اقدار الناس ومراتبهم ام كيف يكون  
 قال الانكليزي ذلك بحسب يدفعونه من الاجرة فان

العربات المعدة لركوب المسافرين في سكة الحديد تكون على ثلاث درجات احداها وهي اعظمها واكثرها اجرة الدرجة الاولى وهي التي نحن فيها . ثانياها الدرجة الثانية وهي دونها واقل منها اجرة . ثالثها الدرجة الثالثة وهي دون الثانية واقل منها اجرة فكل من رغب في واحدة من هذه الدرجات يدفع ما قدر لها من الاجرة وينزل فيها وثم عربات من غير هذه الدرجات الثلاث معدة لنقل الدواب والبضائع وغيرها

قال الشيخ الظاهر ما رايت ان الذين ينزلون في الدرجة الثالثة اكثر

قال الانكليزي نعم هذا هو الواقع وقد قرأت منذ قريب كتابا لله بعض الفرنسيين حديثا في احوال السكة الحديد يقول فيه قد دلت التجارب على ان كل مائة من المسافرين في سكة الحديد يكون منهم ٩ فاكثرا الى ١٣ في الدرجة الاولى ومن ١٦ الى ٢١ في الثانية ومن ٦١ الى ٧٣ في الثالثة ومتحصل اجرة الدرجات الثلاث يكون فيه نحو ثلاثين في المائة من الدرجة الاولى ونحو اربعة وعشرين في المائة من الدرجة الثانية والباقي من الدرجة الثالثة وهذا في فرنسا واما في المانيا فللدرجة الاولى خمسة في المائة وللثانية ٢٣ وللثالثة الباقي وقد قسم متوسط الاجرة على مقدار طول السكة فوجد انه يقع منه لكل كيلومتر من اجرة كل انسان ستة سنتيمات وثلاث سنتيم في فرنسا و٨ وثلاث في

بلاد الانكليز والسنتيم عشر عشر الفرنك والفرنك ثلاثة قروش  
واربعة وثلاثون نصفاً فضة بالمعاملة الديوانية الجارية بمصر وكل  
عشرين فرنكاً بتتو واحد وما يتحصل من اجرة البضاعة اكثر ما  
يتحصل من اجرة المسافرين فاذا نسبنا احدها للاخر وجدنا اجرة  
المسافرين في بلاد الانكليز نحو ٤٧ من المائة وفي بلاد فرانساً نحو  
٤٤ وفي المانيا نحو ٢٨ تقريباً وليست هذه المقادير ثابتة على الدوام  
بل تتغير باسباب كثيرة وعلى الجملة فحاصل البضاعة آخذ في  
الزيادة دائماً وعليه مدار سكك الحديد فانها لا تحتاج الى ما يحتاجه  
المسافرون من كثرة السرعة وزيادة المصرف وقد احصي ما نقل  
من البضاعة بواسطة سكك الحديد في جهات فرانساً سنة ١٢٥٩  
من الهجرة فبلغ ٢٥٠٠٠ طونيلاته وبلغ في سنة ١٢٦٧ من الهجرة  
١٢٢٠٠٠ وبلغ في سنة ١٢٧٢ للهجرة ٢٢٧٠٠٠ طونيلاته والان  
يبلغ ما ينقل في السنة الواحدة في فرانساً نحو (١٢٠٠٠٠٠٠)  
وفي انكلترة نحو (٦٢٠٠٠٠٠٠) طونيلاته

وهذا نتيجة احداث فروع جديدة وتقليل شيء من مقدار  
الاجرة فقد كان يؤخذ اولاً على كل طونيلاته ستة عشر سنتماً في  
كل كيلومتر من السكة والان لا يؤخذ الا سبعة سنتيمات وذلك  
في بلاد فرانساً كما حققه صاحب الكتاب المذكور

والذي دعا اصحاب الشركات الى تقليل الاجرة انهم راوا ان  
ما صرف في انشاء سكك الحديد من الاموال مع ما يحسب عليها

من الفائدة يدخل في المصروف السنوي بقدر ١٢٠٠ جنيه في كل كيلو متر ولا ينقص هذا القدر الا بزيادة ما ينقل من البضائع وغيرها اذ لو كان المتقول من البضاعة مائة الف طونيلاته مثلاً وكان المصروف على كل طونيلاته ثلاثين سنتيماً في كل كيلو متر فلا يزيد مصروفها عن ثلاثة سنتيمات اذا كان المتقول قدر الاول عشر مرات فعلوها ان تقليل الاجرة يستوجب كثرة ورود البضاعة وزيادة الربح ثم رأوا ان كل طرد من طرود البضاعة يحتاج الى بعض اعمال كالوزن والتخزين والكتابة ونحو ذلك وهذه الاعمال لا يحتاج اليها الا في المحطة التي يشحن منها والتي يرسل اليها ولا دخل لطول المسافة وقصرها في ذلك ومصاريف هذه الاعمال وان كانت تختلف باختلاف المحطات الا انها يمكن تقديرها ١٢٠ سنتيماً لكل طونيلاته فان كان طول المسافة عشرة كيلومترات فلا تكون الا اثني عشر سنتيماً لكل كيلو متر فان كانت مائة كيلو متر فلا يكون لكل كيلو متر الا سنتيم وخمس فان بلغت المسافة ٢٠٠ كيلو متر كانت قليلة جداً فلماذا رأوا ان ينجحوا اصحاب البضائع المرسلة الى مسافات بعيدة بعض امتياز على غيرهم في خفة الاجرة استجلاباً لازدياد رغبتهم ووجدوا في ذلك زيادة الربح والمكسب وكذلك التجار الذين لم ارسالات منتظمة اعطوهم من الامتياز ما منحوه لاصحاب البضائع المرسلة الى المسافات البعيدة فرأوا في ذلك ربحاً

كثيراً وثمر عظمة

ثم انهم رأوا ان كثيراً من العربات تكون في معظم المسافة فارغة ويذهب مصروف نقلها سدى ووجدوا مصروف القطار يبلغ ١٥٠ سنتياً في كل كيلو متر فاذا كانت البضاعة المحمولة ٢٥ طونيلاته مثلاً كانت الاجرة الحقيقية على حسب ذلك ستة سنتيات لكل كيلو متر فان كانت البضاعة ١٥٠ طونيلاته كانت الاجرة في كل كيلو متر ستياً واحداً فكما كان المتقول اكثر كانت قيمة الاجرة اقل فمن ثم رأوا ان المسألة التي يلزم التنبه لها هي منع الفوارغ بما يمكن فتوصلوا الى هذا الغرض بتخص اجرة اللوازم الأولية كالبحر والجبر مثلاً لتنتقل الى البلاد البعيدة والقرية والكيفية التي استعملوها في تقدير الاجرة مثل ذلك هي انهم عرفوا فرق ثمن الصنف بين الجهة التي يرسل اليها وجعلوه هو الاجرة للصنف

فحصل لهذه التديرات وامثالها ثمرات عظيمة وفوائد جمّة فزاد ربح اصحاب الشركات وزاد ايضاً انتفاع الناس بسكك الحديد زيادةً تذكر

وبينما هما يتجادلان في هذا الكلام وكانا قد وصلا الى قريب محطة بركة السبع اذ وقف القطار في غير موضع وقوفه وسمع في اخريات القطار جلية وبعض اصوات مختلطة ونظر الشيخ فلما بعض الناس ينزلون من محلاتهم وهو لا يدري السبب في ذلك

فسأل بعضهم فاخبره ان احدى العربات وجدت فيها نار والناس  
من خدم السكة مشتغلون باطفائها فحجاف الشيخ وقال لولده  
والإنكليزي قوما بنا نزل

فقال الإنكليزي لا تخف يا مولانا ولا تجزع فهذا امر يكثير  
حصوله في سلك الحديد ولا ضرر فيه ولا خطر وسنرى هذه  
النار انطفأت في بعض دقائق من الزمن وفي الواقع لم تمض  
برهة قليلة حتى انطفأت النار وسار القطار كما كان فاطمان  
خاطر الشيخ ولكنه اخذ يلوم على من يستعمل الدخان حيث  
ظن ان ذلك منه وينسب التنصير الى خدم السكة لعدم  
الفتاهم لمنعه

فقال الإنكليزي ليس هذا يا مولانا من استعمال الدخان  
وانما هو من شدة اخلاك الدناجل واللقم وليس من احد وهذا  
اصغر خطر يحصل في السكة ولها اخطار كثيرة غير هذه نعوذ  
بالله منها ولكنها الآن اقل مما كان يحصل في السابق بكثير فلا  
يحصل الا في النادر وذلك بسبب ما تجدد لسلك الحديد والآتيا  
من التحسين رعاية لسلامة المسافرين

قال الشيخ كان فيما سلف من الزمن قد حصل هنا في  
سكة الحديد عند كفر الزيات امر هائل شاع ذكره وانتشر  
خبره وعظم خطر ومات به خلق كثير فاكثر الناس وقتئذ  
بسببه من ذم سكة الحديد وتهويل امرها والتجريض على تركها

وتفضيل المراكب عليها ثم تنوسي ذلك

قال الانكليزي من دأب الخلق ان يشتغلوا بالامور عند وقوعها ويتركوها اذا تقدم عهدها ولو تأملوا في الامور حتى التامل وقارنوا بين الحوادث الواقعة وبعضها لحكموا بالصواب ولكنهم يخطون فيها خبط عشواء فيحكمون من غير روية ولا تدبر فمن ذلك حكمهم على سكة الحديد بمجاذبة مضرة حصلت او بعض حوادث وتفضيلهم غيرها عليها بسبب ذلك من غير حصر ولا نظر لما وقع من الاخطار والحوادث فيما ذهبوا لتفضيله ولو نظروا بعين الحقيقة لرجحوا سكة الحديد على غيرها فانها اقل خطراً وأكثر مزية واخف ضرراً

قال الشيخ وما آية ذلك

قال الانكليزي قد علم من دفاتر الاحصاء انه في مدة سنة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٢ من الهجرة ركب سكة الحديد في امريكا من المسافرين ٢٧٨ ٢٢٤ ٠٧٠ شخصاً مات منهم بحوادث السكة ١٨٧ وانجرح ٢١٥٥ ومن سنة ١٢٥١ الى سنة ١٢٧٢ من الهجرة سافر بسكك الحديد في فرانس ٧٦٩ ٢٤٥ ٢٢٤ من الناس مات منهم ١١١ وانجرح ٤٠٢ ومن سنة ١٢٦٨ الى سنة ١٢٧٣ للهجرة نقل بسكة الحديد في بروسيا ٨١٢ ٥٥٠ ٥٥٠ شخصاً مات منهم اثنان وانجرح اربعة فيكون جميع من ذكر من المسافرين في تلك الجهات ١٢٢ ٩٦٠ ١٢٥٠ مات منهم ٢٠٠

وانجرح ٢٥٢١ فيكون قد مات من كل ٤٥٠٠٠٠ من المسافرين شخص واحد وانجرح من كل ٢٨١٠٠٠ منهم شخص واحد وهذا قليل جداً بالنسبة لما حصل في غيرها فقد علم انه مات في ارض فرانسـة بسبب العربات المعتادة التي تجرها الخيل ١٠٢٢٤ شخصاً في ظرف ستة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٢ هجرية وما حصل من المحوادث في شركة السفن الفرنسية المسماة مساجري ايمريال يدل على ان السكة اقل خطراً من غيرها بكثير فان جملة ما نقلته سفن الشركة من المسافرين في ظرف تلك المدة اعني ستة عشر سنة قد بلغ ٢٩٨ ٧١٠ شخصاً بلغ عدد من مات منهم ٢٠ وعدد من جرح ٢٢٨ فيكون قد مات واحد من كل ٢٥٥٤٦٢ من المسافرين وجرح واحد من كل ٢٩٨٧٢ منهم وهو أكثر من الحاصل في سكك الحديد بقدر ١٢ مرة

فمن هذه المقارنة يظهر ما ذكرناه من قلة اخطار سكة الحديد عن اخطار غيرها من الطرق المستعملة في النقل والسفر ونسبة هذه الاخطار الى ما حصل من الفوائد كنسبة المعدوم الى الموجود

مثلاً كان المستعمل في بلاد اوروبا للنقل والسفر قبل ظهور سكة الحديد المراكب والعربات المعتادة وكانت لا تقطع في اليوم الا مسافة قليلة فكان يحصل بسبب ذلك للمسافرين تعب كثير

ومشتات عظيمة لا سيما اذا كان السفر الى جهات بعيدة يلزم  
 قطعها ايام عديدة واكثر ما كانت تقطعه هذه العربات في  
 اليوم ٤٠ كيلومتراً وهو ما يقطع بسكة الحديد في ثلاثة ارباع  
 ساعة ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة والراحة التامة  
 ومن ثم كثرت حركة الناس منذ وجدت سكة الحديد وزادت  
 عن الاول بكثير فصارت في بعض البلاد ثلاثة امثال ما كان  
 قبل وفي اخرى مثليه وفي جهات امريكا كالما احدثتها سكة  
 الحديد وكانت قبلها غير موجودة

وقرأت في الكتاب الذي سبق ذكره ان الذي كان يحضل  
 من نقل الناس بالعربات المعتادة في الجهة الشرقية من فرانسه  
 في السنة الواحدة ٢٤٠ جنيه وبلغ بوجود سكة الحديد ١٠٨٠  
 جنيه فلما رتبت قطارات مخصوصة للنزهة والتفسيح اقل اجرة من  
 القطارات المعتادة زاد ذلك حتى بلغ ٢٦٠ ١٦ جنيه

فاذا فرضنا ان المسافرين في السنة في سكك الحديد في  
 جميع مملكة فرانسه مثلاً وهم ٧٥٠٠٠٠٠٠٠ من الناس يسافرون  
 مسافة ٤٠ كيلو متر فلنا ان كل واحد منهم توفر له ثلاث  
 ساعات كانت تضي في السفر والحركة فان هذه المسافة يقطعها  
 الولايبور في ساعة وتقطعها العربات المعتادة في اربع ساعات فجملة  
 ما توفر لجميعهم ٢٢٥٠٠٠٠٠٠ ساعة فاذا فرضنا ان الساعة  
 لكل منهم قيمتها نصف فرنك كان المتوفر لهم في السنة

١١٢٥٠٠٠٠٠ فرنك اي ٤٥٠٠٠٠٠٠ جنيه وقبل حدوث  
سكة الحديد كانت نفقة المسافر الواحد من زاد وغيره في كل  
كيلومتر واحد تقرب من ١٢ سنتيما وهي الآن لا تزيد عن  
سبعة سنتيمات ونصف فتوفر لهم بهذا السبب ايضا ٤٠٠٠٠٠٠  
جنيه فيكون جملة ما توفر لهم من هذا وذاك ٩٩٠٠٠٠٠٠  
جنيه

فتبسم الشيخ وقال لو كان السفر على الدابة كالخمار والجمل  
مثلاً لكان مقدار الوفرة بالضرورة أكثر لان سير هذه الدواب  
اقل سرعة من العربات المعتادة فانها لا تسير في الساعة أكثر  
من ملثة فاذا كانت المسافة بعيدة لم يكن اللازم للمسافر في مونة  
نفسه وحده بل يلزمه ايضا مونة دابته واجرة حرسها اذا  
بات في احدى المدن

فقال الانكليزي اذا كان المسافرون على الدواب بالعدد  
الذي قدرناه لارض فرانسه كان الوفرة قدر ما مر ذكره سبع  
مرات وأكثر وما حصل بواسطة هذه السكك من السهولة  
والسرعة في النقل قد زادت حركة التجارة وكثرت نقل البضاعة  
وحصل منها ربح عظيم وبعد ان كان الحاصل من اجرتها لا  
يبلغ ثلث المتحصل من جميع المتقولات وصل بواسطة السكك  
الى ثلثيه وإلى ثلاثة ارباعه في بعض الجهات ثم صار المتحصل من  
البضاعة قدر المتحصل من المسافرين ثم زاد عنه وما زال يزداد

حتى صار قدره مرتين وثلاث مرات

وقد علم من نتائج الحساب في سنة ١٢٨١ هجرية ان مقدار البضائع المنقولة في ارض فرنسا الى مسافة الف متر كان يقرب من اربع مليارات طونيلاته اي اربعة الاف الف فلو قدرنا ان هذا القدر كان ينقل بالكيفيات التي كانت مالوفة في السابق وكانت ثلاثة مليارات منه تنقل بالعربات العادية ومليار واحد ينقل بالسفن في البحر قلنا ان نقل ذلك بواسطة سكة الحديد بدل الوسائط السابقة قد حصل منه وفر عظيم وذلك لان اجرة النقل بالوسائط المذكورة على كل طونيلاته مسافة الف متر تكون من اربعة عشر ستمياً الى ستة عشر فاذا حسب سبعة فقط كان الوفير في كل طونولاته اربعة ستميات ونصفاً فان سكة الحديد يؤخذ فيها ستميان ونصف فقط فيتوفر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة من المنقول بالعربات المعتادة ( ٤٨٠٠٠٠٠ ) جنيه ومن المنقول في البحر ايضاً يتوفر على كل طونولاته اربعة ستميات فيتبع من ذلك ( ١٦٠٠٠٠٠ ) جنيه فيكون مجموع ما توفر ما ذكر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة ( ٦٤٠٠٠٠٠ ) جنيه ويلزم ان يضاف الى هذا ايضاً مقدار النقص الذي حصل في اجرة المنقول بالمراكب بعد حدوث السكة غير ما ذكر لانها كانت السبب فيه فاذا حسبنا ذلك باعتبار ما نقل في البحر سنة ١٢٨١ هجرية يبلغ ( ٢٦٨٠٠٠٠ ) جنيه فيكون مجموع ما وفرته السكة على اهل

المملكة المذكورة في سنة واحدة نحو (٢٠٠٠٠٠٠٠٠) جنيه  
وقد علم بالاستقراء والاستقصاء ان حال الطرق الاولى لم  
تغير وحركة المراكب لم تنقص كما يزعم بعض الناس بل زادت  
فقد كان الموجود سنة ١٢٥٧ هجرية في ارض فرنسا من سكك  
الحديد (٨٨٤) كيلومتر وكان متوسط عدد العربات العادية  
الموجودة (٢٤٣) ولما بلغ طول سكة الحديد (٤٩٥٢) كيلومتر  
في سنة ١٢٦٩ هجرية كان عدد العربات العادية (٢٤٤) فلما  
وصل طول السكة الى (٨٦٧٩) كيلومتر سنة ١٢٧٥ هجرية  
كان عدد العربات (٢٤٦) ولما بلغ طولها (١٢٠١٨)  
كيلومتر سنة ١٢٨٠ هجرية كانت العربات (٢٢٧) فمن هذا  
ظهر ان سكة الحديد لم يحصل منها ادنى ضرر لمن كانوا متخذين  
النقل بالعربة العادية صناعة بل حصل منها منفعة عظيمة لخلق  
كثير استخدموا في اشغالها واعمالها ورجحت اصحاب الاموال منها  
ربحاً عظيماً فانهم بعد ان كانوا لا ينالون في السنة الا اثنين في  
المائة ربحاً صاروا بوضع اموالهم في سكك الحديد يحصل لهم ربح  
عشرين في المائة

وجملة ما يتحصل من سكك الحديد في بلاد الانكليز لاربابها  
المشاركين فيها على جميع ما يتقل بها يبلغ (٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠) جنيه  
فلو فرض ابطالها بالمرة والرجوع الى الطرق الاولى لزم ان يصرف  
حيثنذ على ما كان يتقل بها اذا نقل بالوسائط الاخرى

( ٦٠٠٠٠٠٠٠٠ ) جنيه فقد وفرت سبك الحديد على اصحاب  
المقولات ( ٤٠٠٠٠٠٠٠٠ ) جنيه فضلاً عن ان الذي ينقل بها  
لا يمكن ان ينقل بغيرها

قال الشيخ الحق ان فوائد سكة الحديد عظيمة وثرائها كثيرة  
وليست منافعها خاصة بالتجارة بل تم غيرها من الصناعة والزراعة  
والعلوم والفنون والعبادات والاخلاق والسياسة والعمران والمدنية  
ففائدتها للصناعة مثلاً انها يسهل بواسطتها نقل المصنوعات من  
بلد الى بلد ومن مملكة الى مملكة فيكثر استعمالها وتداولها فيزيد  
صانعوها وتعظم رغبتهم فيها فيحسن حالها وهكذا فائدتها في الزراعة  
بسهولة نقل حاصلاتها من الحبوب والثمار وغيرها فيزيد نفعها  
وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعنائهم بها وهم جرا

قال الانكليزي نعم ذلك كما ذكرتم ولكن ليست منفعتها في  
الزراعة خاصة بنقل حاصلاتها فقط بل تنفعها كثيراً بنقل ادواتها  
ولوازمها ايضاً كالسماد ( السباخ ) مثلاً فقد نقل منه بواسطتها الى  
المزارع باجرة واهية مقادير كبيرة نشرت على الارض القوية والضعيفة  
فقويت الثانية وزادت قوة الاولى وكثر محصولها وقد كانت  
القاذورات والفضلات في المدن الحماوية عن الزراع تطرح خارجها  
فتتراكم حولها وتكثر فيها العفونة فتفسد هواها فيضر بصحة اهليها  
فلما نشأت سكة الحديد وخففت الاجرة في نقل امثال هذه الاشياء  
صارت تؤخذ من المدن فتنقل الى بلاد الريف ومحلات الزراعة

فصارت نافعة بعد ان كانت مضره و صلحت بها بقاع كثيرة من  
الارض كانت قفرة مهجورة غير منزرعة ولا مسكونة. فعمرت وتزينت  
بالنبات والاشجار بعد ان كانت لا يرى فيها الا ارض بلاسمة  
كالحمة خالية مما يروق العين ويشرح الصدر

وقد كان ما نقل من هذه المادة بسكة الحديد الى الجهة  
الشرقية من ارض فرانسه في سنة واحدة فقط وهي سنة ١٢٨١  
١٥٥.٠٠٠ طونولاته ونقل من طين الزراعة المعروف بالطين  
الحلو ٢٠٠.٠٠٠ طونولاته

فقال الشيخ لو تنبه لهذا الامر اهل بلادى لحصل منه فوائد  
جليلة و ثرات عظيمة لاهل القرى المصرية فان احتياج ارضهم الى  
السماد امر غير خفى ولا منكر حتى انهم لقاته وكثرة حاجتهم اليه  
تراهم يهدمون بيوتهم القديمة ويسمدون بها ارضهم ويصرفون  
مصاريف كثيرة لجلب السماد من محلات بعيدة بمشقات عظيمة  
ومن المعلوم ان مدينة القاهرة المحروسة بسبب كثرة سكانها وما يهل  
من الدواب واصناف الحيوان يحصل فيها كل سنة من هذه  
المادة مقدار كثير وكذلك المدن الكبيرة مثل اسكندرية وغيرها  
من المدن القريبة لسكك الحديد يحصل فيها من ذلك مقادير  
عظيمة ليس يتفجع بها في شيء فضلاً عن ضررها فلواتخذت طرق  
مستحسنة في نقله باجرة قليلة لاتنفعت السكة باجرته واهل القرى  
باستعماله في مزارعهم وسلم اهل المدن من ضرورة الحاصل من

افساده للهوا. بتراكمه على بعضه

فقال الانكليزي لكل شيء وقت ولكل وقت حكم ولا بد ان يأتي الزمان بحصل فيه ذلك فان الامور لا تقع دفعة بل تجري على التدرج وكم لسكة الحديد من فائدة غير ذلك ومهما نسينا من شيء فلا ننسى فائدها في مساواة اسعار الاشياء في الجهات المستعملة بينها وقد كانت جهات كثيرة لا يتأتى لها ارسال محصولاتها الى بعض البلاد البعيدة لبيعها بأثمان مناسبة فتيسر لها الآن ذلك بواسطة سكك الحديد واستفادت ما حصل لغيرها من اليسار والثروة واتقطع بورود محصولات الجهات الى بعضها ما كان يكثر حصوله في الازمان السالفة من القحط وما كان يتبعه من المرض

وقد كان محصول ارض فرنسا من سنة ١٢٢٦ الى سنة ١٢٥٦ هجرية ٨٠٠٠٠٠٠٠ هيكترولتر من الحبوب ثم صار يزيد بوجود سكك الحديد حتى بلغ في سنة ١٢٥٨ هجرية الى ٩٧٠٠٠٠٠٠ هيكترولتر ثم زاد حتى بلغ ١١٦٠٠٠٠٠٠ فظهر من هذا انه حصل منها فائدة عظيمة لمحصول الحبوب وزراعتها وزرع بعض اشياء كانت من قبل لا تزرع او كانت محصولاتها قليلة جداً

وقبل سكك الحديد كان سهر الحيوانات التي تحتاج للاكل وللزراعة صعباً شاقاً محتاجاً الى مصروف كثير فسهل ذلك

بوجودها وعمرت بلاد وقرى كثيرة بما جلب اليها من هذه  
الحيوانات واتسعت دائرة زراعتها وكثرت محصولاتها بكثرة السماد  
وزاد عدد الناس فيها بزيادة مقدار المحصولات فتمت الثروة  
في كثير من البقاع كانت خراباً منذ قرون عديدة وقد بلغ عدد  
الحيوانات المثقولة في ارض فرانسة بسكة الحديد في سنة واحدة  
٤,٢٤٥,٢٨٧ من جميع الاصناف

وهناك بعض جهات معيشة اهلها من الصيد والتبص  
وكانوا قبل سكك الحديد لا يمكن لهم نقل شيء مما يحصل لهم  
الى بلاد يتسعون فيها ببيعه فكانوا لذلك في فقر مدقع وبؤس  
شديد فلما ظهرت سكك الحديد امكن لهم نقل ذلك الى المدن  
العامة والحواضر البعيدة وبيعه بثمن مناسب اتفعلوا به فخلصوا  
من شدة الفاقة وحسنت احوالهم

وكان في جهات كثيرة من الارض بقاع غير صالحة للزرع  
فيها السبخ والرمال ومناقع الماء فكانت غير مسكونة فلما مرت  
بها سكك الحديد اسخوذ كثير من الناس على كثير منها فحراثوها  
وفعلوا ما يلزم لاصلاحها من التسميد والردم ونحو ذلك حتي  
صلحت فزرعوها واتفعلوا بها فخرجت من الخراب الى العارة

وقد تيسر بواسطة هذه السكك للعلماء واصحاب الحرف  
والصنائع التنقل الى البلاد البعيدة والاطلاع على امور كثيرة  
امكنهم بها تطبيق القواعد العلمية على العمل ورسوخها في اذهانهم

واستنتاج نتائج علمية جديدة كثرت بها الفنون واتسعت العلوم  
وهذا فضلاً عن اختلاطهم ببعضهم والمذاكره بينهم في أمور مهمة  
من العلم الى غير ذلك من المزايا العظيمة التي يطول تعدادها  
ولا ينتمى نفعها

فلما انتهى الكلام بهما الى هذا الموضوع كانا قد وصلنا الى  
طنطا وعرف الشيخ وابنه برهان الدين فقراً ما تيسر من القرآن  
الكريم واهديا ثوابه الى صاحب المقام بها سيدي احمد البدوي  
رضي الله تعالى عنه

### المحاضرة الثامنة طنطا

فقال الانكليزي هذا البلد يسمى عند بعض الناس طنطا  
وبعضهم يسميه طندا ولم اعلم اصل ذلك  
فقال الشيخ سمعت من لم مزيد الشهرة في عصرنا بالمعرفة والخبيرة  
باللسان المصري القديم واتقانه قراءة وكتابة وفيها ان اصل اسمها  
في اللسان المذكور طنطا بطاءين مفتوحين بينهما نون مفتوحة  
ايضاً ووطنه في ذلك اللسان بلدة الحمد قال ثم جرفه القبط

وقالوا طندتا بفتح الطاء وسكون النون وكسر الدال وتشديد  
 التاء فمن قال طنطنا بسكون النون فهو تخفيف طنطنا بفتحها وإما  
 طندتا فهو كما تصرف القبط فيه

فقال الانكليزي اني ارى لهذا السيد عند الناس اعتقاداً  
 عظيماً ومحبة شديدة وتعظيماً كثيراً وأقبالاً على موالده فهل  
 بينه وبين نبيكم نسب معلوم او قرابة متصلة ام لا فان كان على  
 ذكر منك شيء من علم ذلك فمن عليّ بيانه

فقال الشيخ نعم اذكر لك ما علق ببالي وبقي في حافظتي  
 من ترجمته وبعض خبره ما قرأته في كتب كثيرة ككتاب  
 المقرئ وحسن المحاضر للسيوطي والطبقات للشعراي وهذا  
 غير الكتب المختصة بترجمته وحكاية مناقبه ككتاب الجواهر السنية  
 لعبد الصمد وكتاب يونس المعروف بأزبك الصوفي وغير  
 ذلك وهذه نبذة من ترجمة امرئ على سبيل الاجمال

هو ابو الفتيان الملقب الشريف العلوي سيدي السيد احمد  
 البدوي ابن علي بن ابراهيم بن محمد بن ابي بكر بن اسماعيل بن  
 عمر بن علي بن عثمان بن حسين بن محمد بن موسى بن يحيى بن  
 عيسى بن علي الهادي ابن محمد الجواد بن حسن العسكري بن  
 جعفر بن علي الرضا ابن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن  
 محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين سبط رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم بن الامام علي بن ابي طالب بن عبد

المطلب جد رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو يلتقي نسبه معه  
صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي جَدِّهِ الْأَقْرَبِ عَبْدِ الْمَطْلَبِ بْنِ هَاشِمٍ  
نَسَبَ كَأَنَّ عَلَيْهِ مِنْ شَمْسِ الضُّحَى

نوراً ومن فلق الصباح عموداً  
وكان سلفه كما قيل قد خرجوا من مكة حين قدم إليها  
الحجاج بعساكر الشام من طرف عبد الملك بن مروان الأموي  
لقتال عبد الله ابن الزبير فغلب الحجاج علي بن الزبير وصلبه  
وجعل يتسلط على الأشراف فرحل منهم خلق كثير فكان ممن  
رحل الشريف محمد الجواد ابن حسن العسكري أحد أجداد السيد  
البدوي جمع بني عمه ومن يعز عليه من قومه وخرج بهم من  
مكة فساروا وصاروا يتنقلون من بلد إلى بلد حتى دخلوا بلاد المغرب  
سنة ٧٢ من الهجرة فاستوطنوا مدينة فاس وأحبهم أهلها وتزوجوا  
منها وأقاموا بها ما شاء الله تعالى وفيها ولد إبراهيم بن محمد المجد  
الآدني للسيد وتزوج بابنة أخي السلطان بها وقتئذ فأولدها علياً  
والد السيد وغيره فلما كبر الشريف علي بن إبراهيم تزوج من  
أكابر الناس وأهل الحسب فاطمة بنت محمد بن أحمد بن عبد  
الله بن مدين ابن شعيب أم السيد فأولدها ثلاثة أولاد وثلاث  
بنات وكان آخر أولادها سيدي أحمد البدوي رضي الله عنه  
ولد في زقاق الحجرة بمدينة فاس سنة ٥٩٦ من الهجرة ثم رحل  
به أبوه علي بن إبراهيم مع سائر أولاده وأهله سنة ٦٠٢ هجرية

يريد الحجاز لمخ فمر في طريقه بمصر واقام معهم بها مدة ثم سافر بهم الى الحجاز فحجوا سنة ٦٠٧ واقاموا بمكة وكان عمر سيدي احمد البدوي احدى عشر سنة وعرف من بين اخوانه بالبدوي من كثرة ما كان يلبس ولبس لثامين لا يفارقها وكان يعرف في صغره باحمد الزاهد واخذه تحت كنفه اكبر اخوته حسن بن علي واقراه القرآن العظيم فحفظه وجوده ونفقه على مذهب الامام الشافعي محمد بن ادريس رضي الله عنه واشتهر في مكة بالشجاعة والفروسية ثم انه حدث له حال في نفسه فتغيرت احواله ولزم الصمت والعبادة واستمر مقبلاً بمكة الى ان مات ابوه سنة ٦٢٧ هجرية ثم سار منها مع اخيه حسن في شهر ربيع الاول سنة ٦٢٢ راحلاً الى العراق ودخل بغداد وجال في البلاد ولقي اكابر الاقطاب والعلماء العارفين ثم عاد اخوه المذكور الى مكة ولحق به هو فقدم مكة ثانياً ولزم الصيام والقيام بها الى ان رحل منها الى مصر ونزل ناحية طنطا في رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٢٧ فدخل دار شخص من مشايخها يعرف بابن شحيط فصعد الى سطح داره فاقام به لا يفارقه لا صيفاً ولا شتاءً مدة طويلة واغواماً كثيرة وكان له امامان يصليان به وكان اذا جن الليل يقرأ القرآن الى الصباح ولم يزل هناك الى ان توفي رضي الله عنه يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاول سنة ٦٧٥ وعمره ٧٩ سنة عَدَدُ جَلِّ قَوْنِنَا (المدد) وكان طويلاً غليظ الساقين عبل الذراعين اكل العينين كبير

الوجه عظيم الوجلين، ولونه بين البياض والسمرة وكان في وجهه ثلاث تقط من اثر الجدرى واحدة في خده اليمين واثنان في الأيسر اثنى الانف على انفه شامتان من كل ناحية شامة اصغر من العدسة وكان بين عينيه جرح موسى جرحه به ولد اخيه الحسين في الأبطح حين كان بمكة في صغره وكان في حياته معظماً معتقداً عند الناس محبوباً فيهم مشهوراً في الافاق تعلق به هبة ووقار وكان الملك الظاهر ابو الفتح حات بيبرس البندقدار يعتقد به وبالغ في تعظيمه وكان السيد قد اخذ طريق الصوفية عن الشيخ عبد الجليل بن الشيخ عبد الرحمن النيسابوري وكان هذا الشيخ يجتمع على اخيه الشريف حسن فلما كبر سيدي احمد جمعه عليه فابسه خرقة المتصوف واخذ عليه العهد كما تلقاه عن مشايخه واحداً عن واحد الى انس بن مالك الصحابي رضي الله عنه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك ان ياخذ الشيخ على مريره العهد والبيعة على الطاعة والاتباع لكتاب الله وسنة رسوله والمحبة لله ورسوله ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر ويكون له عوناً على العلم مرشداً له في الاعمال والاخلاق وسائر الاحوال فيكون الشيخ للمريد كالمرابي للطفل والوالد الناصح الشفيق للولد المطيع وقد اتخذ سيدي احمد الخرقة الحمراء شعاره وشعلر اتباعه وقال لخليفته سيدي عبد المتعال اعلم اني اخترت هذه الراية الحمراء لنفسي في حياتي وبعد مماتي وهي علامة لمن

يمشي على طريقنا من بعدي فقال له سيدي عبد المتعال فما  
 شروط من يحملها قال شرطه ان لا يكذب ولا يأتي بتأحشة  
 وان يكون غاض البصر عن محارم الله طاهر الذيل عفيف  
 النفس خائفاً من الله تعالى عاملاً بكتابه ملازماً للذكر دائم الفكر  
 وقد ورد في صحيح الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم  
 لبس حلة حمراء وورد ايضاً انه قدم لواء بني سليم يوم فتح مكة  
 على الالوية وكان احمر واما خلفاؤه وتلامذته واصحابه الذين  
 اجتمعوا به على السطح فسموا السطوحية فكثير جداً اكبرهم خليفته  
 الشيخ عبد المتعال وهو صاحب الثوب الأحمر الذي يلبسه الخليفة  
 في المولد في كل سنة وهو الذي بنى بمقام سيدي احمد البدوي  
 المنارة ورتب الساط وتخلف بعد السيد فشيء اركان البيت  
 وقصده الناس للزيارة من الاقطار البعيدة الى ان توفي يوم  
 السبت الموافق لعشرين خلت من شهر ذي الحجة سنة ٧٢٢ هجرية  
 ودفن قريباً من قبة السيد ومنهم الشيخ علي البريدي وهو من  
 أجل تلامذته ويقال انه كان قد ارسل اليه بهدية من طرف  
 سلطان وقته فقال قلبه الى الشيخ واحبه وازم مجلسه واتقطع اليه  
 فلما مات دفن تجاهه وكان يقول لما اجتمعت بسيدي احمد  
 رأيت في عيني اعظم حرمة من السلطان ولما نزل السلطان  
 لسيدي احمد يزوره وجدني في خدمته فقال لي هنيئاً لك يا هلي  
 وتلامذته كثير جداً يطول تعدادهم واجتمع به من العلماء خلق

كثير منهم العلامة الشهير قاضي القضاة شيخ الاسلام تقي الدين  
بن دقيق العيد سمع بشهرته وكثرة اعتقاد الناس فيه فمضى اليه وصعد  
اليه السطح فوجد رجلاً مغطى بثوب كالمغشي عليه فلما رآه قال  
في نفسه سبحان الله ما هذا الاعتقاد من الناس في هذا الرجل  
وما هذه الشهرة وليس فيه ما يوجب ذلك وما هو إلا مجنون  
من المجانين فرفع اليه السيد رأسه وكشف وجهه وأنشد  
مجانين الا ان سر جنونهم

عزيز على اغنايه يسجد العتل

فلما كلمه عرف الشيخ قدره وعظمه واعتذر اليه وقبل يده  
وبحكى ان ابن دقيق العيد قبل ان يجتمع به ارسل الى  
الشيخ عبد العزيز الديريني يقول له امتحن لي هذا الرجل الذي  
اشتغل الناس بامره واسأله فان وجدته من اهل العلم والفضل  
فاطلب لي منه الدعاء وارسل عرفني باحواله فمضى سيدي عبد  
العزيز الى طنطا وكان المتولي بها القاضي علاء الدين وكان  
خليفة المحكم العزيز فمضى اليه الشيخ عبد العزيز واخبره وسأل عن  
محل السيد فوصف له فمشى اليه واستأذن الشيخ عبد المتعال فاذن  
له فصعد الى السيد وسلم عليه فرد عليه السلام وساله ما شاء الله  
من المسائل فاجاب عنها باحسن جواب وقال سلني عما شئت  
فاني اجيبك فعظم في عينه واعتذر له وارسل الى قاضي القضاة  
يعلمه وكان الشيخ عبد العزيز بعد ذلك اذا سئل عن السيد يقول

هو مجرد لا يدرك له فرار وما نقل عن السيد البدوي يرويه عن  
المحسن البصري قال ست مسائل من جواهر الحكمة اولها من  
لم يكن عنده علم لم تكن له قيمة في الدنيا ولا في الآخرة الثانية  
من لم يكن عنده حلم لم ينفعه علمه الثالثة من لم يكن عنده سخاه  
لم يكن له في ماله نصيب الرابعة من لم يكن عنده شفقة على  
عباد الله لم يكن له شفاعة عند الله تعالى الخامسة من لم يكن  
عنده صبر ليس له في الامور سلامة السادسة من لم يكن عنده  
تقوى ليس له منزلة عند الله تعالى قال في الجواهر السنبه ولما  
توفي السيد رضي الله عنه عظموا قبره وبنوا عليه وستره وقامر  
بامر تلامذته من بعده صاحبه الشيخ عبد المتعال فسموه خليفة  
السيد وعمر بعده طويلاً نحو سنة ٥٨ واشتهر اتباعه بالسطوحية  
وحدث لم بعد مدة عمل المولد النبوي عنده وصار يوماً مشهوداً  
يقصد من النواحي البعيدة (انتهى)

---

المصامرة التاسعة  
الموالد والاعباد والمواصم

ويؤخذ من تعبيره بالمولد النبوي ان اصل المولد المعتاد عمل  
للسيد البدوي مولد للنبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل عنده وقد

كانت وفاة السيد رضي الله عنه في ١٢ ربيع الاول كما مر وهو وقت عمل المولد الشريف مولد النبي صلى الله عليه وسلم وسمعت من بعض المشايخ في اصل عمل الموالد للسيد ان السيد لما توفي كان كثير من تلامذته متفرقين في البلاد لانه كان في حياته اذا جاء المرید بواسطة الشيخ عبد المتعال نظر اليه وامره ان يقيم في بلدة من البلاد يعينها له فلما سمعوا بوفاته حضروا باتباعهم ومن معهم الى طنطا ليعزوا فيه خليفته الشيخ عبد المتعال وكانت طنطا وقتئذ قرية صغيرة فلم تكن تسع هذه الجموع فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير واقاموا في تلك الخيام ثلاثة ايام فلما ارادوا الرحيل شيعهم الشيخ عبد المتعال وودعهم فقالوا له هذه عادة مستمرة ان شاء الله تعالى نحضرها هنا كل عام في هذا الميعاد الى ما شاء الله فلما جاء العام القابل حضروا للميعاد ثم حضروا في الذي بعده واستمرت هذه العادة فنشاء من ذلك المولد الكبير وكان في الاصل ثلاثة ايام وزاد بعد ذلك الى ان وصل الى ما هو عليه الان كما ان منشاء ركب الخليفة الذي يكون في اخر المولد هو ركوب الخليفة الشيخ عبد المتعال مع جماعته لتوديع هؤلاء المشايخ ثم صار يزداد فيه الى ان وصل الى ما وصل ثم ان احد المشايخ المتيمين الى السيد وهو الشيخ الشرنبلالي حضر مرة في غير وقت المولد الى طنطا لزيارة السيد مع تلامذته وجماعته فاقام بها بعض ليل كان يشغلها هو وجماعته بالاذكار والعبادات ومن عادة

الفقراء واصحاب الطرق انهم متى وقع لهم الشيء مرة اتخذوه عادة  
 وواظبوا عليه فاتخذ الشيخ الشرنبلالي المذكور ذلك عادة عاودها  
 بعد ذلك سنة بعد سنة فاستمرت ونشاء عنها المولد الصغير وكان  
 يعرف بالمولد الشرنبلالي باسم هذا الشيخ وكذلك كان منشاء المولد  
 الرجبي فان بعض المشايخ وهو الشيخ الرجبي بداله ان يجدد العامة  
 الموضوعه على مقام السيد البدوي فاتخذها مقداراً كافياً من  
 الشاش المصبوغ باللون الاخضر وحضر به مع جماعته ومريديه الى  
 طنطا ودخلوا به في ركب وموكب من المشايخ والمريدين والفقراء  
 الى مقام السيد فلنوا الشاش الجديد في محل التديم واتخذوا ذلك  
 عادة استمرت كذلك فنشاء عنها المولد المعروف بالرجبي باسم  
 الشيخ المذكور ويعرف ايضاً بمولد لف العامة تجدد فيه العامة  
 المذكورة في كل عام ويؤتى بالشاش الذي يتخذ لها في ركب عظيم  
 يوصل به الى المقام فهكذا كان منشاء هذه الموالد فكانت تكرر كل  
 سنة في الميعاد الذي ابتدئت فيه وقررت مواعيدها باعتبار الشهور  
 التبطينية لا العربية لكي لا يتغير ميعاد كل منها عن وقتها من  
 فصول السنة رعاية لاوقات النيل والري حتى لا يقع المولد في  
 وقت قلة الماء يتلك الجهة او كثرت وانغار الارض به للري ومثل  
 هذه الاسباب قدمت واخرت مواعيدها في بعض الاوقات  
 بتنبهات واوامر من الحكومة رعاية لمتنصيات المصالح والاجوال  
 والبحاري عليه الآن ان يكون المولد الكبير في اول شهر مسري

والمولد الصغير في اول شهر برمودة والمولد الرجبي قبل المولد الصغير بنحو مائة يوم ولا يكون في هذا المولد ما يكون في غيره من البيع والشراء فهو مولد مختصر بالنسبة لغيره كما يعرفه من رأى هذه الموالد ولا اريد ان اطيل عليك بصفتها ووصف ما يكون فيها فلعلك رايتها او بعضها في اثناء اقامتك بهذه البلاد

فقال الانكليزي نعم حضرت مولد السيد غير مرة وشاهدت ما يكون فيه من كثرة البيع والشراء وفرط الزحام واجتماع الناس وتواردهم من الافاق فرايت امرأ عظيماً وموسماً جسيماً فكنت اتذكر به ما كان لقدماء المصريين مثل ذلك من عوائدهم في اعيادهم وموالدهم لاسيما ركة الخليفة التي تكون في اخر المولد فانه بتلك العوائد اشبه منه بالعادات الشرعية والامور الدينية الاسلامية وقد كان لقدماء المصريين مثل هذه الموالد اعياد ومواسم كثيرة متنوعة لم فيها عوائد مختلفة لم يذكرها احد من قدماء المؤرخين الا هيردوط الشهير الذي ورد على مصر في قديم الايام فتكلم في مؤلفاته على بعض احوالها واعدات اهلها وتكلم في ضمن ذلك على بعض هذه المواسم وما كان يعمل فيها واما غيره من المؤرخين السابقين فلم يتكلموا على شيء من ذلك ولهذا لم يصلنا من علم احوالها الا القليل والمواسم التي تكلم عليها المؤرخ المذكور كانت تعمل في مدن متفرقة في جهات مصر من

البلاد البحرية والقبليّة وكانت تلك المواسم دينية وسياسية وكان  
يخضر في كل منها الملك او من ينوب عنه من عائلته وكذا الملكة  
وخلق كثير من الناس فهي اشبه بالاسواق التي كانت للرومانيين  
اخذوها عن اليونان واخذها اليونان عن المصريين فالى المصريين  
ينسب احداثها كما ينسب اليهم احداث كثير من الامور النافعة  
للأم كما افاده المؤرخ المذكور ومن المدن التي كان يجنفل فيها  
هذه المواسم مدينة بوباست التي اثرها الان تل بسطة قرب مدينة  
الزقازيق من اقليم الشرقية ومدينة سايس وهي الان صا الحجر باقليم  
الغربية ومدينة هيلوبوليس التي تسمى الان عين شمس ( وهي  
المطرية ) ومدينة بوتو واثرها الان تلال موجودة في ساحل البحر  
الملح مما يلي بحيرة البرلس ومدينة كان اسمها بابر ميس والان لا يعلم  
محلها ولا اين كانت من الجهات البحرية او القبليّة

وكان يجتمع في كل من هذه المواسم خلق كثير ربما كان  
اكثر مما يجتمع الان في مولد السيد وكان لهم غير هذه مواسم  
اخرى كبيرة تعمل على راس كل ثلاثين سنة مرة وكان يحصل  
لمن تقع في زمنه من الفراعنة فخر عظيم وصيت كبير بسببها وكان  
يصدر عنهم في هذه المواسم كثير من الفحش والفجور والمنكرات  
وجميع هذه المواسم كانت مرتبطة باوقات الزراعة وحركة  
الشمس في منطقة البروج وبها تعين ثلاثة فصول الزراعة في كل

وأول اعيادهم كان عند شروق كوكب الشعرى في اشعة الشمس ووقته في اول شهر توت وهو اول شهرهم وفيه كانت تخرج سمانه قرباناً الى ( ايزيس ) المقدسة عندهم ويخرج القسيس من معبد مدينة ابو هياكل مقدسهم محمولة في هودج على اعناق جماعة من القسس يختلف عددهم من اثني عشر الى ستة عشر بالنسبة لثقل الهيكل وهكذا كان يحصل في جميع المواسم وفي هذا الشهر بعينه بعد ان يصير القمر بديراً ببعض ايام كان يعمل موسم طوط ويقال انه ادريس عليه السلام وان هذا الشهر شهره واسمه ماخوذ من اسمه

وكان من العادة في هذا الموسم اكل التين وشرب العسل ويقال بعد اكله ما احلى المحق

قال الشيخ الشيبه بالشيء يذكر قد كان لقبط مصر بعد قدما المصريين في هذا الشهر عيد عظيم وموسم كبير من مواسم هوم ومواقبت انهم وهو عيد النوروز كانوا يشعلون فيه النيران ويرش بعضهم بعضاً بالماء واستمر ذلك جارياً في مدد الملوك الاسلاميين ايضاً وكان يمنع احياناً ويرخص فيه احياناً وكان للخلفاء الفاطميين اعناء به ورسوم جارية فيه . قال القاضي الفاضل في معجذات سنة ٥٨٤ يوم الثلاثاء رابع عشر رجب يوم النوروز القبطي وهو مستهل توت وتوت اول سنتهم وقد كان بمصر في الايام الماضية والدولة الخالية ( يعني دولة الفاطميين ) من مواسم بطالانهم

ومواقيت ضلالاتهم فكانت المنكرات ظاهرة به والفواحش صريحة فيه ويركب فيه امير موسوم بامير النوروز ومعه جمع كثير ويتسلط على الناس في طلب رسم رتبه ويرسم على دور الاكابر بالجمل الكبار ويكتب مناشير ويندب مرسمين كل ذلك بخرج مخرج التفاؤل ويتنع باليسور من الهبات ويجمع المغنون والفاستات تحت قصر اللؤلؤة ( احد قصور الخليفة ) بحيث يشاهدهم الخليفة وبأيديهم الملاهي وترتفع الاصوات ويشرب الخمر والمزر شرباً ظاهراً بينهم وفي الطرقات ويتراش الناس بالماء . وبالماء والخمر . وبالماء مزوجاً بالاقذار . وان غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بجرمته فاما ان يفدي نفسه واما ان يفضح ولم يجر الحال على هذا ولكن قد رش الماء في الحارات وقد احيا المنكرات في الدور ارباب الخسارات وقال في متجددات سنة ٥٩٢ وجرى الامر في النوروز على العادة من رش الماء واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالانطاع وانقطع الناس عن التصرف ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة وخرق به ( اه ) كلامه

وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من الترش بالماء والتصافع بالجلود وغيرها الى ان كانت اعوام بضع وثمانين وسبعائة وامر الدولة بديار مصر وتديورها الى الامير الكبير برقوق قبل ان يجلس على سزير الملك ويسمى بالسلطان فمنع من لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة فانكف الناس عن اللعب في القاهرة

وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخيلان والبرك ونحوها من مواضع التنزه بعد ما كانت اسواق القاهرة تعطل في يوم النوروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون به عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والعمور وقما انتضى يوم نوروز الأ وقتل فيه قتيل او أكثر ثم بطل ذلك وقال بعضهم يذكر ما كان يحصل في النوروز من اشعال النار ورش الماء

كيف ابتهاجك بالنوروز يا ملي  
وكل ما فيه يحكي واحكي  
فتارة كليب النار في كبدي  
وتارة كتوالي دمعي فيه

وكان للقبط في هذا الشهر عيد اخر وهو عيد الصليب يعمل في سابع عشره وسبب حدوثه عندهم ان هيلانة ام قسطنطين كانت قد سارت الى بيت المقدس في طلب اثار المسيح عليه السلام وبناء الكنايس واقامة شعائر النصرانية فيقال ان الاستقف مقاريوس دها على خشبة زعم ان المسيح صلب عليها وكان ذلك في اليوم المذكور فاتخذوه عيداً وسموه عيد الصليب وكان لهذا العيد بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه الى بني وائل بظاهر فسطاط مصر ويتظاهرون في ذلك اليوم بالمنكرات من انواع المحرمات ويرلم فيه ما يتجاوز الحد فلما قدمت الدولة الفاطمية الى

ديار مصر وبنوا القاهرة واستوطنوها وكانت خلافة العزيز بالله أمر في يوم عيد الصليب سنة ٢٨١ فنع الناس من عادة الخروج الى بني وائل ثم بطلت تلك العادة وكان للخلفاء الفاطميين مزيد عناية باول ليالي السنة ليلة اول المحرم في كل عام وكان لهم باول يوم من السنة ايضاً عناية كبيرة فيه يركب الخليفة بزيه المنعم وهيئته العظيمة وتفرق فيه الدنانير ويفرق من السماط الذي يعمل بالتصير لاعيان ارباب الخدم من ارباب السيوف والاقلام بتقرير مرتب خرفان شواء وزبادى طعام وجامات حلواء وخبز وقطع منقوخة من سكر وارز بلبن وسكر فيتناول الناس من ذلك ما يجمل وصفه وينبسطون بما يصل اليهم فمن تأمل في هذه الاعياد وجدها اشبه شيء باعياد قدماء المصريين

قال الانكليزي نعم وربما كان بعضها مأخوذاً منها ومن جملة اعياد قدماء المصريين عيد كان يعمل في سادس يوم من شهر بابه وهو عيد حمل ايزيس بولدها هار بوكرات يشيرون بذلك الى وضع بذور الزرع في الارض بعد نزول ماء النيل عنها

وفي هذا الموسم كان يوضع في عتق صورة ايزيس طلسم يسمونه الصوت الصحيح على قول وكلمة الحق على قول اخر وبعد هذا الموسم كان يعمل في الثامن والعشرين من شهر بابه المذكور موسم عصا الشمس وكانوا يعنون بذلك تقدم الشمس

في العمر وتقص حرارتها وضعف قوتها ولذلك جعلوها كأنها  
احتاجت الى عصا تتوكأ عليها وكان يعمل في هذا الموسم موكب  
تحمل فيه صورة عجلة صغيرة يدورون بها حول المعبد سبع  
مرات وكانوا يعنون بذلك ان ايزيس تبحث على جثة اوزيريس  
زوجها واعظم مواسم هذا الشهر موسم (امون را) وكان يعمل  
في مدينة بابرميس في ثامن عشر الشهر وكان من عاداتهم فيه  
ان القسس في الليلة المتقدمة عليه تاخذ هيكل قديسهم وتضعه  
في برزخ مذهب في موضع مقدس لم قريب من المعبد وفي الغد  
يقربون القرابين وبعد الفراغ منها قرب زوال الشمس يقيم بعض  
القسس عند الهيكل وباقيهم يتفنون عند باب المعبد وبايديهم العصي  
والمساوق لتصد منع ادخال الهيكل المذكور في المعبد فاذا جاء  
الوقت المحدود حمل القسس الهيكل واحضروه الى الباب ومعهم  
خلق كثير بالعصي والمساوق لادخاله المعبد برغم الواقفين به  
لمنهم فاذا جاؤا وجدوا باب المعبد مقفلاً فيقع بينهم وبين من به  
من القسس وغيرهم مضاربة وقتال كثير ويجرح فيه كثير من  
الناس ويسيل دمهم ولا يتقطع القتال من بينهم الا بدخول  
الهيكل في المعبد واستقراره به في مكانه وزعمت القسس انه لم  
يكن يحصل لاحد ضرر من تلك الجروح كما تنله هيردوط  
المؤرخ

وكان المصريون يشيرون بهذه الاحوال فيما يزعمونه الى ان

هوروس بن ايزيس اراد الدخول على امه ليزني بها فمنعه حراسها عن مرافقه فجمع احبابه واصحابه حتى يغلبهم ويصل الى غرضه وسر ذلك هو ان حرارة الشمس المعبر عنها بهوروس تريد ان تدخل الارض المزروعة وهي المعبر عنها بايزيس لتخصبها وفي سابع عشر شهر هاتور كان يعمل عيد وقوع اوزريس في قبضة تيفون عدوه والثاني في النهر ولذا كان هذا اليوم عندهم معدوداً من ايام النخس وفيه يكون ماء النيل قد انخفض وانحسر عن ارض الزراعة وانحصر في مجراه بين حافته وكان مدة هذا الموسم اربعة ايام كان فيها المصريون يدورون بشور قرونة مذهبة وعلى ظهر قطعة قماش من القطن او الكتان مصبوغة باللون الاسود

فكانوا يشيرون بالشور الى اوزريس وبقطعة القماش المذكورة الى ارض مصر لان لونها بعد انحسار النيل عنها يكون اسود وكان المصريون في هذا الموسم يظهرون الحزن والكدر اولاً لتقص النيل وثانياً لغلبة الريح الجنوبية وهي المكئي عنها تيفون عندهم على الريح الشمالية في ذلك الوقت وثالثاً لتغير طول النهار بطول الليل ورابعاً لتجرد الارض من الخضرة وكان الموسم المذكور يعمل في المدن المعروفة الان باسم بوسير فانها كان فيها معابد اوزريس ومن اسمه اخذ اسم هذه المدن ببعض تحريف وتغيير

وكان الحزن في هذا الموسم عمومياً عند النساء والرجال الحزن  
 ايزيس على زوجها اوزريس وكانوا يكثرون فيه الصلاة والصيام  
 والقربان فيه من فحول البقرومن عاداتهم ان لا يؤخذ من القربان  
 بعد ذبحه الاّ الجلد والامعاء والفخذان والكتفان والرقبة ولحم الكفل  
 واما ما عدا ذلك من الجثة فيبلا من الدقبق والعسل مع الزيت  
 والتين والافاويه والعقاقير الطيبة الرائحة وتحرق بالنار ويزيدونها  
 اشتعالاً بصب كثير من الزيت عليها

وفي ذلك الوقت تكثر النساء من الصباح والنواح والبكاء  
 والعويل ويلطن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وبعد  
 ذلك يأكل الناس ما اخذوا من لحوم القرايين كما مر ذكره  
 ويفرقون

وكان يحضر هذا الموسم بعض من بمصر من اليونان ويعملون  
 اعمالاً فظيعة وعادة شنيعة وهي ان يجرح الرجال بعضهم بعضاً  
 جروحاً كبيرة وتشق النساء افخاذهن بحجارة حادة حتى يخرج الدم  
 اظهاراً لشدة الحزن والجزع ثم ابطل المصريون هذه العادة قبيل  
 خروج العبرانيين فان موسى عليه السلام كان قد منع ذلك  
 وحرمه على قومه والظاهر ان هذه العادة قديمة فانها وجدت عند  
 اهل امريكا والهند ايضاً

وفي الثالث والعشرين من الشهر المذكور كان موسم دفن  
 اوزريس يشيرون بذلك الى انحباس النيل في مجراه ومبدأ زراعة

## مخريف

وفي اليوم الاول من شهر كيهك كان يعمل موسم عظيم في  
مدينة اسنا مقدسهم بها

ومن رسومهم في هذا الموسم ان يظهروا جميع اواني المعبد  
وحليته ويتقربوا بالخبز والنيذ وغيره من المشروبات وبالأوز  
وفحول البقر وبشائر المزروعات جميعها على اختلاف انواعها

فقال الشيخ هذا الشهر كان فيه للقبط عيد عظيم يسمونه  
عيد الميلاد ويقولون انه اليوم الذي ولد فيه المسيح عليه السلام  
وكان يعمل بمصر في التاسع والعشرين من كيهك فيجيئون ليلته  
وستهم فيه كثرة الوقود بالكنايس وتزينها وكان يفرق فيه ايام  
الدولة الفاطمية ارباب الرسوم من الامراء والكتاب وغيرهم  
الجمامات من الحلاوة القاهرية وكذا الجلاب والزلايه والسك  
وكان يباع في هذا الموسم من الشموع المزهرة بالاصباغ الملحمة والتائل  
البديعة باموال لا تنحصر فلا يبقى احد من الناس اعلام وادنام  
حتى يشتري من ذلك لاولاده واهله وكانوا يسمونها الفوانيس  
واحدها فانوس ويعلقون منها في الاسواق بالحوانيت شيئاً يخرج  
عن الحد في الكثرة والملاحة ويتنافس الناس في المغالة في  
اثانها حتى ربما بلغ مصروف الواحدة منها الخمسمائة والالف  
درهم ثم بطل ذلك في جملة ما بطل من عوائد الترف كما بطلت  
رسوم قدماء المصريين فهل تعلم من اعيادهم القديمة غير ما

ذكرته

قال الانكليزي كان لم اعياد ومواسم كثيرة منها موسم كان يعمل في السابع من شهر طوبه وهو مولد رجوع اريس من بلاد فلسطين وكانت القرابين فيه من فطير يرسم فوقه صورة فرس الحجر مسلسلاً في القيود وكان يرخص لاهل مدينة عين شمس في اكل لحم التمساح في هذا اليوم خاصة

وبعد هذا الموسم بايام كان يعمل موسم لتعويض مذاكير اوزريس بمثلها من الخشب والظاهر انهم كانوا يشيرون بذلك الى غرس الاشجار فانه يكون بعد هبوط النيل

وفي تاسع عشر هذا الشهر كان يتخذ في مدينة صا الحجر عيد كبير مشهور بالوقدة التي كانت تعمل فيه وكان المصريون يشيرون بذلك الى زوال الظلمة التي كانت عامة للارض بموت اوزريس وكان هذا العيد معتادا في بلاد الصين والعجم ايضا كما كان عند المصريين

وكان لهم في هذا الشهر موسم اخر تجدد تجسد اوزريس فكان التمس في الليل يذهبون الى مصب النيل في البحر في موكب عظيم وخلق كثير حاملين هيكل اوزريس مزينا بجميع ما يمكن لهم من انواع الزينة والمخلى وفيه قدح صغير من الذهب يملئونه من النيل في وقت معين وعند ذلك يقول التمس وجميع الحاضرين بصوت عال ها هو جسد اوزريس قد عثرنا به

وكأنهم كانوا يشيرون بذلك الى رجوع الشمس وكان يتخذ كل واحد منهم صورة هلال يصنعه من الطين معجوناً بماء النيل مخلوطاً ببعض الاشياء الزكية

فقال الشيخ قد ذكرت بما ذكر ما حكاه مؤرخوا الاسلام من عوائد القبط في عيد الغطاس وما كان يقع فيه من الوقدة وغيرها وكان يعمل بمصر في حادي عشر هذا الشهر قال المسعودي وليلة الغطاس بمصر شان عظيم عند اهلها لا ينام الناس فيها وهي ليلة الحادي عشر من طوبه قال ولقد حضرت سنة ٢٣٠ ليلة الغطاس بمصر والاخشيدي محمد بن طنج امير مصر في داره المعروفة بالخنارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطوف بها وقد امر فاسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما اسرج اهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطئ النيل الوف من المسلمين ومن النصارى منهم في الزواريق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على سائر الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من الماكل والمشارب والملابس والات الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والتصف وهي احسن ليلة تكون بمصر واشملها سروراً ولا تغلق فيها الدروب ويغتس اكثرهم في النيل ويعتقدون ان ذلك امان من المرض (انتهى)

وكانت هذه العادة في زمن الملوك السالفة يرخص فيها حيناً

وتمنع حيناً

قال المسيحي في تاريخه من حوادث سنة ٢٦٧ منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملاهي ونودي ان من عمل ذلك نفي من الحضرة

وقال في سنة ٢٨٨ كان الغطاس فضربت الخيام والمضارب والاسرة في عدة مواضع بشاطئ النيل ونصبت اسرة للرئيس فهد بن ابرهيم النصراني كاتب الاستاذ برجوان واوقدت له الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملمون وجلس مع اهله يشرب الى ان كان وقت الغطاس فغطس وانصرف

وقال في سنة ٤٠١ وفي ثامن عشر جمادى الاولى وهو عاشر طوبه منع النصارى من الغطاس فلم يغطس احد منهم في البحر  
وقال في حوادث سنة ٤١٥ وفي ليلة الاربعاء رابع ذي القعدة كان غطاس النصارى فجري الرسم من الناس في شراء الفواكه والضأن وغيره ونزل امير المؤمنين الظاهر لتصرجه العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ونودي ان لا يخلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في النيل وامر بان توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيداً كثيراً وحضر الرهبان والتسوس بالصليبان والنيران فقسسوا هناك طويلاً الى ان غطسوا فبين كثير من هذه الرسوم ورسوم القدماء في اعيادهم ومواسمهم مناسبة  
ظاهرة

قال الانكليزي نعم وكان من مواسم قدما المصريين عيد  
مشاهدة ايزيس لاوزيريس وكان في شهر امشير فان هذا الشهر  
وقت ظهور الزراعة الخريفية فوق وجه الارض  
وكان لهم في شهر برمودة عدة اعياد احدها عيد تطهير ايزيس  
قبل البذر

الثاني عيد الخصب وكان وقته في سادس عشر هذا الشهر  
وفي هذا اليوم كان يجعل في هيكل اوزيريس مذاكير مصنوعة من  
الخشب على صورة اعضاء التناسل للانسان وكانت احيانا تصنع  
من غير الخشب

وفي الموكب الذي يعمل في هذا الموسم كانت النساء تحمل  
مثل ذلك وتدور به في الازقة

وفي الغد من اليوم المذكور عيد دخول اوزيريس في القمر  
يعنون بذلك اجتماع الشمس والقمر عند الاعتدال وكان المصريون  
يسمون القمرا المريا

الثالث في ثامن عشر الشهر المذكور وهو موسم ولادة

هوروس

الرابع موسم قد يستهم نيت في مدينة بوياست ومحلها الان  
تل بسطه واصل هذا الاسم بوياست وهو احد اسماء نيت المذكورة  
ولها اسماء والقباب كثيرة منها هذا ومنها ايزيس وديان ايضا والظاهر  
انها هي دميانه او جميانه التي يعمل لها الى الان في جهة البرية

المولد المشهور في شهر برمودة المذكور وإن لفظ دميانه أو جميانه  
 اصله لفظ ديان السابق ذكره وهذا المولد الباقي الى الان هو مولد  
 نيت القديم وهو عيد حصاد الزروع وكان يبدأ به في خامس يوم  
 من برموده ويجتمع له خلق كثير من النساء والرجال كما يكون  
 الان في مولد جميانه

وكان قديماً المصريين يأتون هذا المولد من سائر اقاليم  
 مصر في مراكب يكترونها لذلك ويكون النساء مع الرجال في  
 المراكب ومعهم الطبول والدفوف والمزامير وغير ذلك ويكترون  
 في طريقهم الغنا والرقص والفحش وكلما مروا ببلدة خاطب من في  
 المركب من النساء كل من رأينه في البر منهن بالفاظ قبيحة وكلام  
 فظيع ويضحك الجميع من ذلك وكان من في البر منهن بعد  
 ان يرقصن ويغنين ويتكلمن بما يخطر ببالهن من المفايح يرفعن  
 ذبوهن ويظهرن من اجسامهن ما لا يجوز الحياء ذكره وينصرفن  
 وكذلك كان فعلهن عند زيارتهن للثور ابيس وكان الرجال  
 لا يستنجون منهن هذه الامور المغايرة للادب والحياء وكان  
 يستهلك في هذا الموسم من النبيذ قدر ما يستهلك في باقي ايام  
 السنة كلها وكان يجتمع فيه قريب من سبعائة الف من الناس  
 على ما حكاه هيردوط المؤرخ وكانوا جميعاً يفعلون ما ارادوا من  
 اللذات والشهوات ولا حرج عليهم فيما كانوا يأتونه وقتئذ مها  
 فسقوا او فجروا او خرجوا عن جميع حدود الادب

فقال الشيخ كأن ما كان معتاداً في هذه الاعياد من الفحش  
والتهتك سرى الى الاعصار الاخيرة فجرى فيها نظيره من المنكرات  
والموتيات فقد كان يحصل في الفرون المتأخرة في الشهر الذي  
يتلو هذا موسم كبير يكون فيه شيء كثير من ذلك وهو موسم عيد  
الشهيد وكان يعمل بمصر في ثامن بشنس القبطي  
وكانوا يزعمون ان النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى  
يلقي النصارى فيه تابوتاً من خشب فيه اصبع من اصابع اسلافهم  
الموتى ويكون ذلك اليوم عيداً ترحل اليه النصارى من جميع  
القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة اهل  
القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شواطئ  
النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغزٍ ولا مغنية ولا صاحب هو ولا  
رب ملعوب ولا بغي ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فانك  
ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم كثير لا يحصمهم الا  
خالقهم وتصرف اموال لا تنحصر ويتجاهر هناك بما لا يجهل من  
المعاصي والفسوق وتشورفتن وتقتل اناس ويبيع من الخمر خاصة  
في ذلك اليوم ما تزيد قيمته على مائة الف درهم وكان اجتماع  
الناس لعيد الشهيد دائماً بناحية شبرى من ضواحي القاهرة وكان اعتماد  
فلاحى شبرى دائماً في وفاء المخرج على ما يبيعهونه من الخمر في  
عيد الشهيد ولم يزل الحال كذلك الى سنة ٢٠٢ فمنعه الامير  
بيبرس الجاشنكيكر وشدد في منعه وكان عنده رجل كاتب من

القبط يعرف بالتاج بن سعيد الدولة قد احوى على عقله  
واستولى على جميع اموره فمشت اليه القبط في ذلك فتكلم مع  
مخدومه بيبرس وقال له متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل ابداً  
ويخرب اقليم مصر ونحو ذلك من التويه وتنهيق المكر فثبت  
بيبرس واصر على رأيه واستمر في منعه وقال للكاتب المذكور  
ان كان النيل لا يطلع الا بهذا الاصبع فلا يطلع وان كان الله  
سجانه هو المتصرف فيه يطلع فبطل العيد من تلك السنة ولم  
يزل منقطعاً مدة ست وثلاثين سنة فلما كانت سنة ٧٣٨ وعمر  
الملك الناصر محمد بن قلاوون الجسر في بحر النيل ليرمي قوة  
التيار عن بر القاهرة الى ناحية الجيزة فطلب منه الامير بلبغا  
البيجاوي والامير الطنبغا المارديني ان يخرجوا الى الصيد ويغيبا  
مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بها وتهتكه في حبها  
واراد صرفها عن السفر فقال لها نحن نعيد عمل عيد الشهيد  
فيكون نخرجكما عليه انزه من خروجكما الى الصيد وكان قد  
قرب اوان العيد المذكور فاعاده في وقته واجتمع له الناس من  
كل جهة وتجاهروا بانواع المنكرات توسعاً خرج عن الحد  
وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه واستمر عمله بعد ذلك الى سنة  
٧٥٥ فمنع وتقرر ابطاله وخرج الحاجب والامير علاء الدين علي  
بن الكوراني والي القاهرة الى ناحية شبرى فهدمت كنيستها  
واخذ منها الاصبع في صندوق واحضر الى الملك الصالح واحرق

بين يديه في الميدان وذري رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى  
 فيبطل عيد الشهيد من وقتئذ وانقطعت تلك العادة التي ذكرني  
 بها ما قد حكيت من رسوم القدماء فان الحديث ذو شجون  
 والكلام يجر بعضه بعضاً فارجوك ان تتم لي ما تعلم من هذه  
 العادات والاعياد فاني ما سمعت بها ولا ظننت انها كانت معتادة  
 في تلك الايام العتيقة

قال الانكليزي كان لم في هذا الشهر اعني شهر شنس عيد  
 حمل ايزيس بهربوكرات وكان لم في شهر بوئه عيد يتقربون فيه  
 بفضير مرسوم عليه صورة حمار مسلسل يشيرون بذلك الى تغلب  
 اوزريس على تيفون والعادة ان ابتداء النيل في الزيادة يكون في  
 هذا الشهر فكانوا يزعمون ان زيادة ماء النيل في هذا الشهر انما  
 هي ما سكبته ايزيس من الدموع في بكائها على اوزريس زوجها  
 وهذا العيد هو الذي ذكر هيرودوط المؤرخ انه مولد الشمس الذي  
 كان يعمل في مدينة عين شمس فانه في هذا الاوان يحصل  
 الانقلاب الصيفي وهو عبارة عن ابتداء الشمس في النزول بعد  
 انتهاءها في الصعود وقد حافظ القبط على عادة الاحتفال لليلة  
 النقطة التي تكون في الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر

وكان لم موسم في شهر مسرى وهو مولد هربوكرات وكان  
 يعتبر عندهم للسكوت وكانت اشارته حلقة صغيرة توضع على النم  
 ولعل هذا العيد هو عيد وفاء النيل ومن عاداتهم في هذا الشهر

قتل كلاب شترو وكان المصريون والرومانيون واليونان يتقربون  
بذلك الى كوكب الشعري في اليوم الثاني من مسرى وكان لهم  
عيد كبير يعمل في مدينة بوتو ولكن سكت عنه المؤرخون ولم  
يبيّنوا وقته وإنما ذكروا انه كان لاوزريس وايزيس ابوتو  
وكان يتقرب في هذا الموسم بالختير ولم يكن الأكل من لحمه  
مباحاً عند المصريين الا في هذا الموسم فانهم كانوا يقولون بنجاسته  
ومن مسه كان يلزمه ان يغتسل في الحال حتى ان المشتغلين  
بتربية هذا الحيوان كانوا يمنعون من دخول المعابد وكانوا لا  
يتزوجون الا من بعضهم ولا يعلم سبب الترخيص في الأكل من  
لحمه في هذا الموسم ولا ذكره هيردوط المؤرخ

وكيفية تقريب القران منه ان ياخذوا طرف الذنب والطحال  
والبطن وفوقها الدهن ويجرقوا الجميع وكان الفقراء يصنعون  
صورة من الطين ويجرقونها

فهذا غاية ما وصلنا من اعياد قدماء المصريين ومواسمهم  
التي جرتنا الى الكلام عليها ذكر موالد السيد البدوي واحشاد  
الناس لها واجتماعهم فيها وما يكون بها من الاحوال والاعدادات  
التي في جملتها ما هو اشبه شيء باعدادات قدماء المصريين فيما  
ذكرناه من موالدهم واعبادهم وقد رأيت بعض المشايخ يتكلم  
عليها ويذمها لما يحصل فيها من المخالفة للشرع وينتفى ابطالها  
لذلك ورأيت بعض الناس يقول لو لم يكن فيها من المضرّة

الاتعطيل من يكون بها من الناس عن اشغالهم ومصالحهم  
المعتادة لكفى فما تراه انت ايها الاستاذ في ذلك

فقال الشيخ من نظر في الشيء من جهة من جهاته ولم  
يستقص جميع احواله وسائر خصوصياته فربما حكم عليه بالذم  
والمدح من تلك الجهة ولو نظر الى غيرها تغير حكمه وهكذا  
حال من حكيت عنه ممن تكلم في مولد السيد فانه نظر الى شيء  
ما يحصل فيه فحصر فيه نظره ووقف عليه خاطره فتكلم بحسبه  
ولو امن النظر واجال الفكرة واستعمل الروية لقال غير ما  
سمعته منه فان مولد السيد وان كان قد يحصل من بعض الناس  
الذين يجتمعون فيه بعض امور تخالف الشريعة الشريفة كما لا  
ينكر وهذا هو الذي نظر اليه من حكيت عنه ولكن لا يحكم على  
الشيء في ذاته بحكم حالة واحدة من حالاته لا سيما اذا كانت له  
احوال كثيرة وانت تعلم ان كل وقت من الاوقات وكل بلد  
من البلاد وكل جيل من الاجيال لا يخلو من ان يقع فيه بعض  
امور تخالف الشرع والطبع ولا يحكم على عموم الناس او البلد  
او الوقت بحكم من يحصل منه ذلك وليس ما ذكر من هذه الامور  
المخالفة مخصوصاً بمولد السيد فانها تقع في كل موضع كما قلنا  
وليس المولد قاصراً عليها فانه يكون فيه ما لا يبحر ولا ينكر  
من الخيرات والاذكار والعبادات والحسنات والمبرات فلماذا  
نغض عن المحسنة وتقتصر انظارنا على السيئة

وفي هذا المولد ما لا يخفى على احد من المزايا والمنافع كمنفعة من يكتري منهم الدواب او المراكب او سكة الحديد للضي اليه والانصراف عنه ومنفعة من يكون به من الفراشين والطباخين وغيرهم من ارباب الحرف والصنائع واصحاب الدور التي تكتري والاشياء التي تشتري وما يكون فيه من سعة التجارة فانا نرى كثيراً من التجار في طنطا وغيرها من سائر مدن مصر يعلقون اداء ديونهم وقضاء بعض شؤونهم على هذا المولد ويتظرون لهذا الموعد لكثرة ما يكون فيه من البيع والشراء والاخذ والعطاء فينتفع البائع بثمن ما يبيعه والشاري بما يشتريه منه والكثير من اهل القرى يتظرونه لشراء بعض ما يلزمهم في اثناء السنة ما لا يوجد في جهاتهم اولبع ما يفضل عن حاجتهم من دابة او محصول زراعة او غير ذلك فهو سوق عظيم عمومي كسائر الاسواق العامة التي توجد في جميع اقاليم الدنيا من البلاد الاسلامية وغيرها حتى لقد سمعت انه يكون في بلادكم اسواق عامة تحضرها الناس من سائر الافاق وجميع الجهات فلولا ما فيها من المنفعة لما حرصوا عليها وهرعوا اليها فهذه هي المزية في هذا المولد مع غيرها ما ذكرناه وما لم نذكره فاندفع قول من يقول انه سبب للتعطيل وتبين ان ذلك القول من جملة الاباطيل ومن ذهب الى هذا المولد لا تصد التجارة او نحوها من المقاصد فلا يخلو من ان ينتفع منه غيره فالمنفعة حاصله على اي حالة واما فراغه من اشغاله وبطالته في ايام يسيرة فلا

ضير فيه ولا ضرر فانه ان كان خلواً من الاشغال في غير المولد فهو بطلان في ذاته لم يحدث له المولد بطالة وان كان في غير المولد عاكفاً على الشغل والعمل والكد والكدر كان له في المولد فسحة وتغيير هواء وصحة ونزهة وراحة يقبل بعدها على اعماله بنشاط جديد وشوق مستحدث وهمة متبلة ونفس غير كئيبة فيتعوض بذلك ما ضاع في ايام المولد فان النفوس البشرية اذا دام عليها الشغل واتصل الكد والعمل بليتها السأم والكلال والملل فلا بد من ترويحها في بعض الاحيان لتعود لحالة نشاطها وتسترجع ما فقدته من انسها وانبساطها ولذا كان لكل امة من الامم وملة من الملل اوقات يستريحون فيها من اشغالهم ويفرغون لرفاهة بالهم استرجاعاً لنشاطهم وقوتهم ودفعاً لتعبهم وفترتهم فلا داعي لتبني ابطال هذه الموالد المستلزم ابطال ما يترتب عليها من القوائد وقد احدثت هذه السكك الحديدية من اسباب السهولة والسرعة والراحة في المضي الى المولد والانصراف عنه ما لا مزيد عليه وكان قبلها من يريد المولد يعاني في الذهاب اليه والاياب منه صعوبة ومشقة ويقضي في الطريق يومين فاكثر اذا سار من البر وجملة ايام اذا سافر من البحر ويعد ما يلزم للسفر من الزاد والذخيرة من قبل المولد بايام كثيرة حتى حدثت سكة الحديد فسهلت الصعب وقربت البعيد

## المسامرة العاشرة

شئى

وقد كان المرحوم محمد علي الكبير تصور فوائد هذه السكة  
ومنافعها وعزم على انشاءها ولكن بدا له بعد ذلك تركها وصرف  
النظر عنها لبعض امور تصورها على حسب الوقت والحال ثم عرض  
امرها من بعده على المرحوم عباس باشا فاستحسنها ولم يجد بها  
باساً فصم عليها وشرع فيها بالفعل من اسكندرية الى مصر  
فاستوجب مزيد الثناء والشكر من الناس عامة ومنا اهل هذا  
القطر خاصة فان هذا الامر النافع كان سبباً لجلب الثروة الى  
ارضنا وازدياد البركة في بلادنا ولكن قدر الله انه لا يم في مدة  
حياته والذي تم في مدته ومشى فيه الوابور كان ما بين كفر  
الزيات والاسكندرية وبينما كان مهتماً باتمامها عاجلته المنية فمات  
ولم يقسم له ان يركب فيها مع انه كان معتنياً بامرها ليله ونهاره  
وهو الذي اتم قنطرة بنها التي يسير فوقها الوابور وكل من ولي  
الحكومة من بعده سعى في اتمام عمله وانجاج قصده وجد في اكماله  
فكمل سعيد باشا المرحوم ما ابتداء سلفه وانتهت في مدته السكة  
الى مصر القاهرة واخذت الوابورات في السفر بينها وبين  
الاسكندرية ولما راه وعلمه من كثرة فوائدها وزيادة منافعها انشأها

ايضاً بين سمود وطلخا والزقازيق وبينها وكذلك بين القاهرة والسويس تسهياً لطريقها وترغيباً للانكليز في استبدال طريق راس العثم بطريق مصر فيما ينتقل من بلادهم الى الهند من الناس والبضائع وغيرها لما في ذلك لمصر من الفائدة بمرورهم بها ونقل تجارتهم بواسطتها وقد كان ما يرد لمصر من ذلك ينقل الى السويس تارة في عربات تجرها الخيل وتارة على الجمال والدواب وكان ذلك امراً مهماً وشغلاً شاعراً وكان يتحصل منه مبلغ عظيم من الاجرة ويحصل في بعض الاوقات ضائعات كبيرة يترتب عليها خسارات كثيرة فعلم تلك السكة لمنع الصعوبة والخسارة وتسهيل السبيل لتلك التجارة فلم يزل حتى اتمها واكملها ثم لما ولي الحكومة الجناب الخديوي (اسماعيل باشا) اخذ في توسيع دائرتها والاستكثار منها فاستحدثها في الصعيد وفي جهات كثيرة من الاقاليم البحرية فزادت بركتها وكثرت حركتها حتى وصلت الى ما هي عليه الان فصار يسافر من القاهرة الى الاسكندرية بالركاب في كل يوم ثلاثة قطارات واكثر سوى ما هو خاص بنقل البضائع وما يسافر الى غيرها من الجهات بعد ان كانت في اول امرها لا يسافر فيها الوابور الا نحو ثلاث مرات في الاسبوع وذلك قريب اتمامها وقد ارخ صاحبنا الشيخ مصطفى سلامه التجاري اتمامها بين القاهرة والاسكندرية بقوله

في بر مصر انشئ الوابور

وهذا المصراع تاريخ لسنة ١٢٦٩ هجرية بحساب الجمل  
وقد كنت اسمع بهذه السكة وحركتها ولكن لم يسبق لي  
السفر بها ولا العلم بحقيقتها وكيفيتها وإنما كنت اعلم بالسماع ان  
السفر بها في عربات تجرها باخرة تتحرك بواسطة النار من غير ان  
اعرف كيف تحركها النار وكنت في شوق الى معرفة ذلك حتى  
شرحت لي اليوم ما شرحت واوضحت ما اوضحت من ان حركتها  
وسيرها بواسطة بخار تحلله حرارة النار من ماء موجود في القدر  
اعني الدست الذي ذكرته فيتجه البخار الى آلة بجرها فتتحرك  
بجرها العجلة وتمشي الباخرة اعني الوابور فقد عرفت ذلك ولكن  
بقي علي ان اعرف حقيقة لفظه وابور ومعناها لاعرف حقيقة اسم  
هذه الباخرة كما عرفت مسماها فان هذه الكلمة ليست من العربية  
وما اظنها الا من اللغة الافرنجية

فقال الانكليزي نعم لفظه وابور كلمة افرنجية معناها في  
اللغة الفرنسية البخار فاستعملها عامة الناس هنا في معنى الباخرة  
تسمية للشيء باسم ما هو من لوازمه والاسم الموضوع لهذا المعنى  
في اللغة المذكورة هو (لوكوموتيف)

فهذا ما اعلمه في هذه اللفظة التي سألت عنها وما يتعلق  
بها وها هنا شيء اريد ان اسألك عنه وهو انك عبرت بالقدر  
بدل لفظ الدست المتعارف فهل هو غير عربي ام غير صحيح ام ماذا  
ترى فيه وكذا العربية والعربية او العجلة فارجو ان تشرح لي

ما تعلمه في هذه المذكورات ولوازمها وما يتعلق بها من جهة اللغة العربية كما شرحت انا ما اعرفه فيها من جهة الصناعة لتقطع بذلك ما بقي من الطريق ولا نخرج عن المناسبة

فقال الشيخ لك ذلك وسأشرح ما اثبتته حفظي ووصل اليه علي فيما ذكرته فاما لفظة الدست فهي بفتح الدال معربة تطلق في العربية على جملة معان منها الصحراء وهي في هذا المعنى معربة من دشت بالشين المعجمة لفظ فارسي بالمعنى المذكور وفي غيره معربة من دست بالسين المهملة لفظ فارسي ايضا له نحو خمسة عشر معنى منها اليد والمنفعة والنصرة والوزير والصدر والمقام الرفيع والقوة والغلبة والطرز واللعبة الواحدة والشيء مع افراده التامة فهو من السلاح مثلاً العدة الكاملة ومن الثياب ايضا الكاملة اجزائه التامة افراده من السراويل الى المنديل وهكذا كما عرفته من اهل تلك اللغة وقال في القاموس الدشت الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معربات (اه) وهي عبارة مجملة فيها غموض ويعلم المراد منها بما قدمناه وقد انكر بعض العلماء المناسبة بين ما استعمل فيه هذا اللفظ في العربية وبين معناه في اللغة الفارسية لكونه لم يعرف من معانيه في تلك اللغة الا اليد شهرته فيها

قال الخفاجي في شفاء الغليل بعد ان نقل عبارة القاموس واستعمله المتأخرون بمعنى الديوان ومجلس الوزارة والرئاسة

مستعاراً من هذه

قال المعري

من آلة الدست ما عند الوزير سوى

تحريك لحيته في حال ايماء

فهو الوزير ولا ازر يشدّ به

مثل العروض له بجر بلا ماء

ثم قال وقيل لا يصح فيه ان يكون مشتركاً لاختلاف معناه

في اللغتين فانه في الفارسية بمعنى اليد وفي العربية له معان اربعة

اللباس والرئاسة والحيلة ودست القمار وجمعها المحريري

في قوله نشدتك الله ألت الذي اعاره الدست فقلت لا والذي

اجلسك في هذا الدست ما انا بصاحب ذلك الدست بل انت

الذي تم عليه الدست ويقولون للغالب تم له الدست والمغلوب

تم عليه الدست واتقلب عليه الدست ومن الاخير دست

الشرنج قال الشاعر

يقولون ساد الارزلون بارضنا

وصار لهم مال وخيل سوابق

فقلت لهم شاخ الزمان وانما

تفرزن في اخرى الدسوت البيادق

والدست تستعمله العامة لتدري الخناس قال سليمان بن عبد

الحق في بعض اهل الديوان وكان يلقب بالقط

ما نال قط الدست من فعله

غير سخام الوجه والسقط

ولّى عن الدست على رغبة

واقطب الدست على القطر

انتهى المراد منه ولكن بقي ها هنا شي وهو ان القدر لا تظهر له مناسبة بشيء ما ذكر من معاني هذه اللفظة في الفارسية فلعله ماخوذ من لفظ دستي بالياء التحتية بعد الياء الفوقية وهو بالفارسية ظرف للماء وغيره من المائعات يحمل باليد كالحجرة فلما اخذه المولدون والعوام تصرفوا فيه بمحذف يائه وكسرداله ومعربه دستيج بالفتح ويوجد في الفارسية لفظ دست بالكسر الا ان معناه الشبر فقد علم ما ذكر ان استعمال لفظ دست في معنى القدر عامي مولد ليس بعربي ولا معرب ولهذا عبرت بالقدر

قال الانكليزي ذكرت بالدست والقدر بيتاً رايته في كلام

شاعر من المصريين لا اذكر اسمه ولا اجيد ضبط بيته وهو

وقدر كمثل الفيل في القدر اشرفت

على منصب كالتيل في دست منصب

قال الشيخ قوله وقدر هو بكسر القاف والمراد به القدر التي يطبخ فيها والفيل بالفاء معلوم والقدر من قوله في القدر بفتح القاف بمعنى المقدر والمنصب في قوله على منصب بكسر الميم على وزن منبر حديد تنصب عليه القدر له ثلاث قوائم والتيل في قوله كالتيل

بالتفاف المتفوحة وهو الملك مطلقاً أو من ملوك حمير أو هودون  
الملك وإصله قيل كَعَيْلٍ سمي به لأنه يقول ما شاء فينفذ قوله  
والدست أراد به الديوان أو صدر البيت ومنصب في آخر البيت  
وأحد المناصب وصف بهذا البيت قدراً عظيمة يقول وقدر مثل  
الفيل في الكبر اشرفت وهي على منصبها اشرف الأمير في ديوان  
منصبه أو في صدر البيت المنسوب له وقد بالغ في عظم هذه القدر  
فجعلها كالفيل وإن لم تكن كذلك

قال الإنكليزي قد كنت متوقفاً في تانيث هذا الشاعر لضمير

القدر في قوله . اشرفت حتى رايتك تؤنثها

قال الشيخ القدر مؤنثة . قال ابن سيده في المخصص القدر

التي يطبخ فيها انثى وجمعها قدور ولا تكسر على غير ذلك وقد

قدرتها اقدرها واقدرها (كضرب ونصر) طبختها ومرق مقدر

مطبوخ في القدر والتقدير ما يطبخ في القدر والاعتدال الطبخ فيها

انتهى . وبائع القدر قدوري وسخام القدر سوادها وقد مر له ذكر

في البيتين السابقين ويقال للقدر العظيمة قدر أعشار كأنها

ركبت من عشر قطع لعظمها وكبرها والقدر الوئبة الواسعة

وانشد أبو عبيد

وقدر كرال الصححان وئبة

انخت لها بعد الهدوء الانافيا

والانثى حجارة توضع عليها القدر

قال الانكليزي سمعت رجلاً يقول في الدعاء على آخر  
رماه الله بثلاثة الاثافي فما معناه.

قال الشيخ ثلاثة الاثافي الجبل وذلك انهم قد يضعون  
القدر على اثنتين الى جانب جبل ويسندونها اليه فيكون  
الجبل ثالثة الاثافي. فيقال في الدعاء على الشخص رماه الله بثلاثة  
الاثافي اي بدهاية عظيمة كالجبل

قال الانكليزي فما معنى قول الشاعر

وقدر جماع كاليفاع دميمة \* زوازية سوداء غير صلود

قال الشيخ . يقال قدر جماع وجامعة اذا كانت عظيمة واليفاع  
النل ويقال قدر دميمة ودميم اي مطلية بالطحال او الكبد او الدم  
بعد الجير والدم كغيب التي يسد بها خصصات البرام . من  
دَمٍ أَوْ لِبَاءٍ وَالدَّمُ وَالسُّدَامُ مَا يَطْلَى بِهِ وَالْقَدْرُ الزُّوْازِيَّةُ  
وَالزُّوِيوزِيَّةُ هِيَ الَّتِي تَضُمُّ الْجُزُورَ ثِقَلَهُ ابْنُ سِيدَةَ عَنْ أَبِي عَيْبَةَ  
وغير صلود اي غير بطيئة التضمج . يقال صلدت القدر تصلدها في صلود  
ويقال قدر راسية اذا كانت ثابتة لا يطاق تحويلها لعظمتها . وفي  
التنزيل وقدر راسيات والبرمة القدر من الحجارة جمعها برام  
كجبال وبرم كصرد وبرم كدخن وصانعها البرم وهو من يتقطع  
حجارتها من الجبال واكثر البرام الجماع ثم التي تليها الميكة وهي  
التي يستخف الحى ان يطبخها فيها اللحم والعصيدة والضباد حمر  
ابيض تعمل منه البرام

قال الانكليزي فهل تذكر قول الشاعر

رأيت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دها في المحلة صبا

قال الشيخ نعم هكذا انشده ابن سيدة ولم يسنده والذي

احفظه حسبت بدل رأيت والبيت لحسان بن ثابت رضي الله

عنه من قصيدة طويلة يقول فيها

وندمان صدق تمطر الخبير كفه

اذا راح فياض العشيات خضوما

وصلت به زكبي ووافق شيبتي

ولم الكُعضا في الندامى ملوما

وابقى لنا مر الحروب ورزؤها

سيوفًا وادراعًا وجعًا عرمرما

اذا اغبر افاق السماء وامحلت

كأن عليها ثوب عصب مسهما

حسبت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دها في المحلة صبا

يقول اذا اشتد الجذب حسبت قدور الصاد حول بيوتنا

جماعة خيل قائمة يعني انهم يطعمون في الجذب والتحط كثيرا

والصاد الصفر وجمعه صيدان كنار ونيران قاله ابو علي وانشد

وسور من الصيدان فيها مذانب

رواه بكسر الصاد ورواه ابو عبيد بفتحها وقال الصيدان  
 رام الحجارة والصاد قدور الصفر والنياس قال ابن جنى  
 بالفه متقلبة عن الياء واستدل على ذلك برواية ابي عبيد  
 من الصيدان بفتح الصاد قال وانا ارى ان القدر انما سميت  
 صاداً من الصيد وهو التكبر وذلك لما في القدر من الغليان  
 والحمي والفوران ولذلك يشبه بها المساورة والمضاغنة قال  
 الشاعر

تفور علينا قدرهم فنديها \* ونفثوها عنا اذا حميها غلا  
 (هـ) وذكرت بهذا قول امرئ القيس في صفة الفرس  
 على العقب جاش كأن اهتزاه

اذا جاش فيه حميه غلي مرجل

العقب عقب الانسان خفف باسكان القاف والاهتزام شدة  
 الصوت يريد ان هذا الفرس اذا حركته بعقبك حمي وجاش كما  
 تبيض القدر وكفى ذلك من السوط والمرجل القدر من النحاس  
 وقيل كل قدر مرجل وهي مؤنثة وقال ابن دريد التساخين  
 المراجل لا واحد لها الا انهم قد قالوا تسخان ولا احته وشكيمة  
 المرجل عرونها ويقال للقدر الصغيرة كفت بفتح الكاف وقد تكسر  
 وتقول الترك وبعض مخالطهم من العامة للقدر التي يطبخ فيها  
 تجرة وهو محرف تنكيره الفارسي ومغريه طنخير بغير هاء كما في  
 القاموس وطنخيره بالهاء كما في لهجة اللغات وفيها ايضاً البطللة قدر

صانع الحلواء وفي القاموس الهبطلة قدر معروف من صفر معرب  
 باتيله والظرف الذي تصنع فيه الخميصة مخبضة ويقال للوعاء الذي  
 يقلى عليه مقلاة ويقال ايضاً طاجن وطيجن وهما معربان كما في  
 القاموس وفيه ايضاً الطابق كهاجر وصاحب ظرف يطبخ فيه  
 معرب تابه والحرقرة التي تمسك بها القدر لتنزل عن النار يقال  
 لها الجمعال واجعلها انزلها بالجمعال هذا بعض ما يتعلق بالقدر  
 ولو اخذنا في استيفاء جميعه لطال الكلام وتشعب القول فلنكتف  
 بهذا القدر ونتقل الى الكلام على العربية وما يتعلق بها

قال الشهاب الخفاجي في شفاء الغليل العربية بلغة اهل  
 الجزيرة سفينة يعمل فيها رحي في وسط الماء الجاري مثل دجلة  
 يديرها شدة جريه وهي مولدة فيما احسب . قاله في المعجم وانا لا ادري  
 هل المركب المسمى عربية ( وهو ما نحن فيه ) اخذ من هذا او هو  
 غير عربي وهو الظاهر ( اه ) كلامه

وفي تفسير الرازي ان مادة ( ع ب ر ) بجميع تقاليبيها الستة  
 التي منها ( ع ر ب ) تدل على العبور والانتقال ونص عبارته  
 المسئلة التاسعة العبارة وتركيبها من ( ع ب ر ) وهي في تقاليبيها  
 الستة تفيد العبور والانتقال فالاول ( ع ب ر ) ومنه العبارة لان  
 الانسان لا يمكنه ان يتكلم بها الا اذا انتقل من حرف الى حرف  
 اخر وايضاً لانه بسبب تلك العبارة يتقل المعنى من ذهن نفسه  
 الى ذهن السامع ومنه العبرة ( بالفتح ) لان تلك الدفعة تنتقل

من داخل العين الى الخارج ومنه العبرة ( بالكسر ) لان الانسان يتقل فيه من الشاهد الى الغائب ومنه المعبر لان الانسان يتقل بواسطته من احد طرفي البحر الى الثاني ومنه التعبير لانه يتقل مما يراه في النوم الى المعاني الغائبة . الثاني ( ع ر ب ) ومنه سميت العرب لكثرة اتقالاتهم بسبب رحلة الشتاء والصيف ومنه فلان اعرب في كلامه لان اللفظ قبل الاعراب يكون مجهولاً فاذا دخله الاعراب انتقل الى المعرفة والبيان . الثالث ( ب ر ع ) ومنه فلان برع في كذا اذا تكامل وتزايد . الرابع ( ب ع ر ) ومنه البعر لكونه منتقلاً من الداخل الى الخارج الخامس ( ر ع ب ) ومنه يقال للخوف رعب لان الانسان يتقل عند حدوثه من حال الى حال اخرى . السادس ( ر ب ع ) ومنه الربع لان الناس يتقلون منها واليها ( اه )

فعلى هذا مادة ( ع ر ب ) تدل على الانتقال والعبور مثل ( ع ب ر ) ومناسبة هذا المعنى لهذا المركب المخصوص الذي نحن بصدده واضحة ظاهرة لاختفاء فيها ولكننا لم نجد في كلام العرب ولا من قرب منهم ولا وجدنا من نقل عنهم اطلاق لفظ العربية على المركب المذكور وانما نسبعه في كلام المولدين وكلام الترك فقد خالطهم وتعلمت من لغتهم ورأيت صاحب لهجة اللغات اوردته فيما ذكره من الكلمات وكتبه بالالف هكذا ( اره به ) قال الانكليزي فا هذه الهاء التي بعد الراء

قال الشيخ هذه الهاء لبيان فتحه الحرف الذي قبلها لا للتلفظ بها ونظيرها الهاء التي بعد الباء فليست هاء تانيث وإنما تكتب كذلك لهذا السبب ويسمونها هاء رسبية لكونها ترسم ولا تقرا ولعل هذه الكلمة محرفة من عربية بابدال عينها همزة كما صنعوا في عباء فقد رسمه في الكتاب المذكور (ابه) وقال هو عربي محرف وصحنه عباء وبعض الناس يزيد على لفظ عربية الياء ويقول عربية

قال الانكليزي فإ يقال في العربية في محل لفظ عربية المذكور

قال الشيخ . قال في الكتاب المذكور هو بالعربي عجلة بفتح العين المهملة والجيم واللام وهاء الوقف اخره وحال وهي التي تتخذ للصبى ليتعلم عليها المشي ودراجة وهي مثلها (اه) وتسمى العجلة ايضاً زازية كما في القاموس وفيه ايضاً العجلة بالتحريك الالة التي يجرها الثور والجمع عجل وعجبال وعجال والدولاب او المحالة وخشب تؤلف تحمل عليها الاتقال (اه) والان تطلق العجلة على تلك الدائرة التي تسير بها العربية على الارض واسمها في العربية دؤارة بضم الدال ومدورة وكل شيء مستدير اذا لم يدرو لم يتحرك فهو دؤارة وفؤارة بفتح الدال والفاء فاذا دار او تحرك فهو دؤارة وفؤارة بضمها واذا اتسع ثقب الدؤارة من اكل المحور الذي فيها وضعت في ثقبها قطعة خشب ليضيق فتسمى هذه الخشبة نخاس

بالحاء المعجمة بعد النون وقيل الخاس طوق الدوارة والمحور  
المذكور يسمى القب والمسار الذي يكون فيه يسمى زازة كما وجدته  
في ترجمة مقدمة الادب وفيه المدهن ظرف يوضع فيه الدهن لطلاء  
بعض مواضع العجلة

وبيناها في هذا الكلام وامثاله اذا بهما قد وصلا الى موقف  
السكة بناحية كفر الدوار

قال الانكليزي هذا اخر موقف في هذا الطريق ليس بعده  
الأم الموقف في اسكندرية ولم يبق عليها إلا مدة يسيرة ودقائق من  
الزمن غير كثيرة

قال الشيخ سجان الله لقد تقاربت البلاد والامصار بسبب  
هذا الجار تقارباً شديداً حتى صار يستغني الانسان في اسفاره عن  
عدة اشهر ببعض ايام وعن عدة ايام بيوم او بعض يوم فصار  
يمكن للانسان ان يسافر من القاهرة الى الاسكندرية ويرجع اليها  
من يومه بعد ان كان لا يمكنه ذلك إلا في مدة اسبوعين او أكثر  
حتى ان بعض اصحابي اخبرني انه سافر مرة من الاسكندرية في  
البحر يريد القاهرة فلم يصل اليها إلا بعد ثلاثين يوماً فقد ربح  
الانسان مدة طويلة من عمره فضلاً عما توفر عليه من ماله الذي  
كان يصرفه في سفره واستراح من كثير مما كان يكابده من المشاق  
والمناعب والعوائق والمصاعب التي لم يكن يخلو عنها ولا يسلم  
مسافر منها فما أكثر فوائد هذه السكة وما أوفر ما لها من الخير

## والبركة

قال الانكليزي من اعظم فوائدها ما حصل بين الملل وبعضها من المساعدة الكلية فيما يطراء عليها من الحوادث الفظيعة كالغلاء والتحط فتصل الاخبار وتنتقل الارزاق من سائر الاقطار ويحصل الاسعاف من دون ان يشعر الخلق كما حصل غير مرة وقبل ظهورها كان اذا حصل مثل ذلك في اقليم من اقاليم المعمورة لم يمكن ان تصل اليه مساعدة من اقليم اخر الا بعد جهد جهيد وبلاء شديد حتى ان الناس في بعض الازمان اكل بعضهم بعضاً بعد ما اكلوا الرم والجيف وباعوا اولادهم وكذلك اذا حصل ببلد من البلاد بعض امراض وفساد في الهواء يسهل بواسطة هذه السكة مفارقتة بعض ايام والعود اليه بعد ذلك فعلم من هذا ان حصول التيسير بين الناس واتساع دائرة معاشهم وكثرة امنهم قد زاد عما كان عليه في الايام السالفة ومن تامل اصناف المبيعات من الخضروات والفواكه تتحقق عنده فائدة البخار ومزيد منفعتة فانا نرى الفواكه على اختلاف انواعها وبعد بلادها في جميع اوقات السنة مجلوبة الى البلاد المصرية مع انها ما كانت ترى فيها من قبل وكذا الخضروات الطرية فباي كيفية كان يمكن ذلك لولا استعمال البخار فقد حصل به ثمرات متعددة لكل من البائع والمشتري بنقل الفواكه والخضروات والبضائع في كل البقاع واتسعت دائرة الفلاحة بكثرة الرغبة في الزرع لكثرة ارباجه وازدادت درجة

الثروة في كل البقاع ومن يقارن كمية المنزوع بالطرق المعتادة من قبل بما هو منزوع الان يجد بينهما فرقا كبيرا جداً في مقدار الفدادين والمحصول لان صاحب الارض في الزمن السابق كان لا يزرع الا بقدر قوته او قوة المزارع فكانت الزراعة موقوفة على حد معين لا تتعداه واما الان فبواسطة استعمال الآلات البخارية في الحرث والري والحلج وما اشبه ذلك امكن له الخروج عن هذه الحدود والانتساع فيها والمحصول على عدة نتائج يزداد بها راس ماله وارباحه واصلاح ارضه بالخدمة والتنظيم فجميع هذه الامور ونحوها كالتيجارة والصناعة قد تحسنت وازدادت اضعاف ما كانت عليه وما زالت آخذة في زيادة التقدم والرج ولولا هذا الجار لكنت غالب بقاع الارض محرومة مما هي متمتعة به الان من مزروعاتها واهلها محرومين من نتائج مصنوعات البلاد الاخرى ومحصولاتها واقول لك بالاختصار ان استعمال الجار اقوى مغذ لظاهر الانسان وباطنه اما ظاهره فبالرونق والبهجة واكتساب راحة البدن والمهجة واما باطنه فبانتقاله من قيد المضيق الى سعة الاطلاق وتحليه بمعرفة عجائب البلاد وغرائب الافاق وبسببه اعتادت الناس على حسن المخالطة والانس والائتلاف وزال ما كان بينهم من موجبات الوحشة والبغضاء والاختلاف وتأكد ذلك باستعمال الاشارة الكهربائية المعروفة بالتلغراف اذ لا يكون بين الخلق وبعضها رابطة اقوى من رابطة المنفعة وكل ذلك نتج

من استعمال هذا السر المودع في الماء فسبحان من ابدعه ودبره  
ولم يظهره الا في الوقت الذي اراده وقدره

قال الشيخ من نظر لظاهر صورة الانسان مع ضعفه وصغره  
جثته ودقة اعضائه ونخافته ونظر لافعاله وعجيب اثاره واحواله  
استغرب وتعجب ولم يهتد في نسبة ذلك له الى سبب فانه مع ضعفه  
وصغره يتصرف في الكون باسره بقوة نظره وفكره ليحصل منه على  
اغراضه ومقاصده ومنافعه وفوائده فتراه قد احثال على الهواء فسخره  
وصار يجوب به البحار والغفار ويملاً به الجداول والانهار فتارة  
يجري به الماء وتارة يجمعه وتارة يصرفه وتارة يمنعه وتارة يرفع سطحه  
وتارة يخفضه حتى روى الارض المنخفضة والمترفعة من غير فرق  
بين بقعة وبقعة فكانت الارض طوع يده متقادة في جميع احوالها  
اليه فاظهرت له خيراتها واغدقت عليه ببركاتها وكذلك سخر النار  
فصارت من ضمن خدمه يستعملها في مصالحه البرية والبحرية فلم  
يكن شيء من المخلوقات الا وقد دخل تحت طاعنه وفي تصرفه  
وقبضته فجميع الحيوان والنبات والنار والهواء والتراب والماء خاضع  
لسطوته مدعن لبأسه وصولته فمثل الانسان بالنسبة لغيره كالملك  
بالنسبة لرعيته وذلك بتمتضي ما منحه الله سبحانه من خلافته قال  
تعالى اني جاعل في الارض خليفة وقال سبحانه هو الذي خلق  
لكم ما في الارض جميعاً ولكن الانسان كما انه يستعمل فكره ونظره  
في حصول الكمال والوصول الى خير الاعمال يستعمل ما ذكر في

بعض الاحوال في الضرر والوبال والطغيان والضلال وكما كان العقل سبباً في هذا النفع بكاله قد يكون سبباً في ضرر صاحبه وضلاله والوقوع في سيء اعماله فيوقعه ذلك فيما يغضب الرب ويمنعه من منازل القرب ولا ريب ان هذا كله مما يدل على وجود الصانع العليم والمبدع الحكيم الذي اودع في كل ذرة من مخلوقاته لطائف صنعه ولطيف اياته قال تعالى في كتابه المكنون (وفي الارض ايات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون)

ففي كل شيء له آية \* تدل على انه واحد

فكيف يتعدى العبد حدود مولاه ويحمد ما منحه واواه

قال الانكليزي لاشك ان الانسان صفة الخليفة والمملك الخليفة على غيره في الحقيقة وقد وصل الى ما وصل اليه من الكمالات العظيمة والدرجات العالية بالتدرج والتقدم شيئاً فشيئاً فكان كلما انكشف له سر من الاسرار او وقف على شيء من الآثار بحث عن غيره وطلب ما فوقه وهكذا ولم يزل كذلك من الاعصار القديمة والازمان الخالية الى هذه الايام الحاضرة وكذا يكون حاله في الاعصار القابلة بالقياس على ما سبق فكما اتسعت دائرة استكشافه بوقوفه على شيء من اسرار الكائنات ولطائف مكنوناتها اتسعت دائرة علمه فيتسع نور بصيرته فيتمكن من الاطلاع على مكنونات اخرى اعظم من الاولى وانفع منها وكما اطلع على سر استنتج منه غيره وبهذه الطريقة وصل للتوايين العمومية والنواميس

الحقيقية التي عليها مدار الكائنات وجميع ما استكشفه لم يكن الا  
 نتيجة بجنه في الموجودات ونسبتها الى بعضها من حيث الكيفية  
 والافعال والصفات لان النوع الانساني في مبداء امره لم يكن  
 يعلم ما يعلمه الان والدليل على ذلك اننا لم نجد امة من الامم الا  
 وقد انتقلت من حالة الى حالة اخرى وهذا محسوس بالمشاهدة  
 فكم من امة كانت في اسوء حال من نحو ربعين سنة قد انتقلت  
 عن حالتها حتى صارت اول امة وما ذاك الا من حسن تديرها  
 وادارة امورها بموافقة قوانينها وكم من امة كانت تحشى سطوتها الام  
 آل حالها الى الدمار والعدم وكان عاقبة امرها ان صارت تحت  
 رق غيرها فالبسها الله لباس الذل والمهانة وانحطت عما كانت  
 عليه من علو المكانة ومن هنا علم ان نوع الانسان بالنسبة لما هو  
 عليه الان كان غارقاً في بحار الجهل زمناً طويلاً يرتع كالانعام بل  
 اضل سبيلاً كأهل البقاع المتوحشة بافريقيا واسيا وامريكا فاستمر  
 بهم الامر على ذلك حتى وجدت الاسباب التي اضطر بها الناس  
 الى الالفه والاجتماع فديت بينهم علائق التانس ومبادئ التمدن  
 وذلك انهم اخطوا مدناً وامصاراً وقرى ودياراً سكنوا بها واجتمعوا  
 فيها فاحتاجوا الى الضبط والربط والتعامل والتعامل فكان  
 ذلك من الاسباب والذرائع لوجود القوانين والشرائع والعلوم  
 والمعارف وسائر اللطائف فمن ذلك الوقت بدا العلم في بعض  
 البقاع ودب في الخلق حب الاتساع ففعلتوا من الشرائع مجبالها

فاوصلتهم الى فهم القوانين والنواميس التي عليها مدار احوال  
الموجودات حتى وصل العلم الى الدرجة التي هو عليها الان وان  
كانت ليست الدرجة التي يجب الوقوف عندها بل كل زمن ياتي  
معه فوائده على حسب ما تقتضيه احواله وعوائده فكما تنقل النوع  
البشري في الازمان الماضية كذلك يتقل في الازمان الاتية وحيث  
علم ذلك ظهر ان اكبر باعث للانسان على البحث ومعين له في  
مقاصده هو الخليقة نفسها والموجودات اعيانها . قال الشيخ . نعم وانما  
عليه ان يخلص كل فرد من افراد الاشياء بما يوافقه على حسب ما  
علمه فان وفق للحق واسند الى كل شيء ما استحق ولم يخرج عن  
الحدود المرسومة والقوانين المعلومة كانت اعماله راجحة وافعاله  
ناجحة وان نسب الى افراد الاشياء ما ليس لها وصورها في نفسه  
بصورة تخالف حالها لبست غير كسوتها وظهرت على خلاف  
حقيقتها فاذا اعتقد ذلك ووثق به وجرى على موجه وحكم بحسبه  
ضل عن طريق السلامة ووقع في مهاوي الندامة فيكفر بربه  
الذي خلقه من ماء مهين ورزقه وهو خير الرازقين ويعيش بين  
خيالات واوهام ووساوس والام ويستمر على هذه الحالة مدة حياته  
ويؤل امره الى العذاب المهيمن بعد ماته فعلم ان عقل الانسان  
قبل علمه كان ناقلاً عن افراد الخليقة ومقلداً لها واما بعد العلم  
فيكون لها كالمملك بالنسبة لرعيته فكما ان احوال الرعية مرتبطة  
باحوال المملك وكل ما يصدر عنه من قول او فعل يسري الى

الرعية فكذلك الانسان بالنسبة للخليقة فان اهتدى الى الطريق  
 الحق وصل وانصل وان عدل عنه ضل واصل  
 وقد امتد بينهما القول في هذا المعنى الى ان وصلا الى  
 اسكندرية

فقال الانكليزي للشيخ قد قطعنا المسافة بين القاهرة  
 واسكندرية وهي مائة وثلاثون ميلاً انكليزياً في اربع ساعات  
 ونصف ساعة وكان يلزم لقطع هذه المسافة بغير سكة الحديد  
 نحو اربعة ايام واكثر فهل تعلم احسن من هذا الاختراع العجيب  
 الذي كان سبباً لقطع تلك المسافة الطويلة في هذا الزمن القريب  
 ثم انهم نزلوا في موقف السكة بالاسكندرية فوصل الى الانكليزي  
 هناك ورقة على يد احد خدمة البوسطة فاخذها منه فلما فتحها  
 وقرأها ضحك ملياً وقال للشيخ اتعلم سبب ضحكى قال الشيخ لا  
 قال اتريد ان تعلم سببه قال نعم ان شئت فقال الانكليزي  
 ان الكلام المسطر بهذه الورقة برز من فم قائله وهو الذي من  
 منذ ساعتين من لوندرة وبيننا وبين هذه المدينة بحسب الطريق  
 الذي نسلكه اليها نحو ثلاثة آلاف ميل فعجب الشيخ اكثر من  
 تعجبه من سرعة الواپور فقال له الانكليزي سأشرح لك بعد  
 الاستراحة سبب هذا السر العجيب ان شاء الله تعالى

المسامرة المحادية عشرة  
الخانات واللوكدات

ثم ساروا جميعاً ودخلوا اسكندرية ونزلوا في خان. من خانات  
المسافرين المعروفة باللوكندات ليقوموا به الى ان يجضر وابور  
البوسطة ولما كان الشيخ لم يسبق له دخول مثل هذه المحلات  
وانما قضى عامة اوقاته في الجامع الازهر وداره بمصر ظن في نفسه  
هذا الخان داراً للانكليزي او ل احد احبابه ولكنه كان يتأمل  
في حسن رونقه وبهجه ونظافة مفروشاته ولطافته فبتعجب مما يراه  
لا سيما من كثرة المسافرين الواردين على هذا المحل ووجدهم قد  
خصصوا له ولولده حجرة بهاسريران ودولابان وطرابيزة وشهدانات  
وساعة دفاقة وفيها جميع ما يلزم من الماء والصابون والمناشف  
والكراسي بحيث لا ينتص شيء مما عساه يلزم للانسان من امثال  
ذلك فقال لولده يلزم ان يكون الانكليزي صاحبنا ذا مال  
كثير وثروة عظيمة حتى يكون له منزل مجمل بهذه الصفات  
غاص بهذه المخاوف فقال له ولده وقد رأى غير هذه الحجرة ان  
هناك حجرات وغرفات اعظم من حجرتنا زخرفة ولطافة وفي كل  
منها من الاسرة والادوات الكثيرة مثل ما هنا واكثر واظن ان  
هذه الدار ليست ملكاً له بل ل احد اصحابه وقد شاهدته عند

دخولنا يتكلم مع واحد من ابناء جنسه بكلام يدل على المحبة والالفة فقال له والده هي على كل حال تدل على عظم قدر صاحبنا سواء كانت له او لغيره اذ لولا ذلك لم يمكن له ان ينزل بدار مثل هذه وبينما هما في هذا الكلام ونحوه اذ دخل الانكليزي وسأله عما يلزم له وعرفه كيفية الاقامة بهذا المحل وأشار له الى خيط نازل من اعلى المحل يقرب من الارض وقال له اذا لزم لك شيء مما تريده فشد هذا الحبل وحركه يتحرك بحركته جرس يسمعه الخادم ويأتي اليك فتخبره بما تريد يأتيك به في اقرب وقت فسر الشيخ من ذلك وشكره واثني على اخلاقه فقال الانكليزي اخبرك ايها الاستاذ ان الانسان في مثل هذه الدار لا ينبغي له ان يمنع الخجل عن طلب ما يلزم له لان اصحابها لهم قانون مربوط وقدر معين مضبوط على كل شخص بحسب المكان الذي ينزل به سواء طلب ما يلزم له او امتنع من طلبه وعليهم لكل محل فروض يجب اداؤها . فقال له الشيخ اليس هذا المكان لك او لبعض احبابك نزلت عنده فقال لا بل هو خان يعرف بلفظ (لوكاندة) او (اوتيل) وهو معد لاقامة من يرد عليه من الاغراب والمسافرين ومن لا مأوى لهم في البلد كالمحلات التي تعرف عندهم بالوكايل . فقال الشيخ سبحان الله اري الافرنج يعنون بانقان جميع الاشياء حتى خاناتهم ووكايلهم لا يتساهلون فيها كتساهلنا في خاناتنا ووكائلنا فري المسافر اذا نزل بمكان من

خاناتنا ووكائلنا وجد المكان مجرداً من كل شيء فلا يجد به ما يأكله أو يشربه أو يفرشه أو يستعمله والويل لمن يمضي عليه بها الليل لأنه يكون تحت تصرف أنواع الحشرات من البرغوث والقمل والبق والبرغش بييت مسهداً ومثل هذا منشداً

ثلاث باأت بلينا بها \* البق والبرغوث والبرغش  
ثلاثة اوحش ما في الورى \* ولست أدري ايها اوحش

وهكذا النمل وجميع الموديات فلا يرى فيها ما يسر الناظر ويريح القلب والمخاطر تنهال عليه الا تربة من كل جانب وتدب اليه الهوام من سائر الجوانب فلا يطرق جفنه المنام ولا يستريح في قعود ولا قيام لا يأمن فيها الانسان على نفسه ولا يجد طريقاً لانه تراها لقدمها الى السقوط آت وتخرّبها تسافطت اثرتها وانتهالت فتمضي عليه المدة في قلق ويقضي ليله في سهر وارق خصوصاً من كثرة نباح الكلاب وشحج البغال وطنين الذباب ورغاء الانعام وكشيش الهوام وصهيل الخيل ونهيق الحمير وهنالك يستغيث ويستجير وهيئات المغيث والحير وليس بها منافذ لتجدد الهواء ودخول الاضواء غير فتحات صغيرة وكوات حنيرة عليها ابواب من الاخشاب غير متقنة الصنع ولا محكمة الوضع ان اغلقت حجب الانوار واشتبه الليل بالنهار وان فتحت جلبت المضار ولم يتفنع بها في دفع الحر والبرد والغبار ففي الشتاء زهرير وفي الحر نار وسعير وسقفها مسكن للحشرات والهوام وغربال التراب يغلّه

على الاجسام وينثره على الجفون ويذره في العيون فان فزع الانسان  
 عينه امثلات قذى وان اغمضها لم يأمن من الاذى فان نزل  
 المطر فخير لمن بها ان يستتر بالسماء وبتخف بالانواء فهذا السقف  
 يطر الطين والسماء انما تمطر الماء ولقد حكمت عليّ صروف  
 الاقدار فدخلت احداها ليلة في بعض الاسفار  
 فبت كاني ساورتني ضيئلة

من الرقش في انيابها السم نافع  
 ولقد تذكرت ليلة بت بها القصيدة المشهورة للاديب كمال  
 الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الاعمى في صفة دار كان  
 يسكنها فبت اترجم بابياتها واتسلى بكلماتها فقال الانكليزي اي  
 القصائد هي فقال الشيخ ها هي  
 دار سكنت بها اقل صفاتها

ان تكثر الحشرات من حشراتنا  
 الخير عنها نازح متباعدا  
 والشردان من جميع جهاتها  
 من بعض ما فيها البعوض عدته  
 كم اعدم الاجفان طيب سناتها  
 وتبيت تسعدها براغيث متي  
 غنت لها رقعت على نغماتها

رقص بتنقيط ولكن فافه

قد قدمت فيه على اخواتها

وبها ذباب كالضباب يسد ع!

بن الشمس ما غمي سوى غنائها

ابن الصوارم والقنا من فتكها

فينا وابن الاسد من وثباتها

وبها من الخطاف ما هو معجز

ابصارنا عن وصف كفياتها

وبها من الجردان ما قد قصرت

عنه العناق الجرد في حركاتها

وبها خنافس كالطنافس افرشت

في ارضها وعلت على جنباتها

لو شم اهل الحرب منتن فسوها

اردي الكاة الصيد عن صهواتها

وبنات وردان واشكال لها

ما يفوت العين كنه ذواتها

ابداً تمص دماءنا فكأنها

حجامة لبدت على كاساتها

وبها من النمل السليبي ما

قد قلن ذر الشمس عن ذراتها

ما راعني شيء سوى وزغاتها  
 فتعوذوا بالله من لدغاتها  
 سمجت على أوكارها فظننتها  
 ورق الحمام سمعن في شجراتها  
 وبها زناير تظن عقاربها  
 حر السموم أخف من زفراتها  
 وبها عقارب كالأقارب رتع  
 فينا حمانا الله لدغ حماها  
 كيف السبيل إلى النجاة ولا نجاة  
 ولا حياة لمن رأى حياتها  
 منسوجة بالعنكبوت سماؤها  
 والأرض قد نسجت على آفاتها  
 والبوم عاكفة على أرجائها  
 والدود يبحث في ثرى عرساتها  
 والجبن تأتيها إذا جن الدجى  
 تحكي الخبول الجرد في حملاتها  
 والنار جزء من تلهب حرها  
 وجهنم تعزى إلى نفعاتها  
 شاهدت مكتوبا على أرجائها  
 ورايت مسطورا على جنباتها

لا تقربوا منها وخافوها ولا

تلقوا بأيديكم الى هلكتها

ابداً يقول الداخلون بيابها

يارب نج الناس من افاتها

قالوا اذا ندب الغراب منازلنا

تتفرق السكان من ساحاتها

وبدارنا الفسا غراب ناعق

كذب الرواة فان صدق روايتها

صبراً لعل الله يعقب راحته

لنفس اذ غلبت على شهواتها

دار تبيت الجحش تحرس نفسها

فيها وتندب باخلاف لغاتها

كم بت فيها مفردا والعين من

شوق الصباح تسع من عبراتها

واقول يارب السموات العلاء

يارازقا للوحش في فلواتها

اسكتني بجهنم الدنيا ففي

اخراي هب لي الخلد في جناتها

فلما اكمل الشيخ قال الانكليزي لقد احسن هذا الشاعر

واحاد وبلغ ما اراد من المبالغة في صفة تلك الدار وذمها وتسميها

وتهويل امرها ووصف كثرة شرها وقلة خيرها

فقال الشيخ كل ما ذكره من المتاج العظيمة والاصواف  
الذميمة مجموع في تلك الخانات والوكائل القديمة بخلاف هذا  
الخان اللطيف والمكان الظريف فانه خال من جميع تلك المضار  
مشمئل على كل ما يجلب المسار من حسن بنائه وتجدد هوائه  
ونظافة محلاته وكال ادواته فيقيم به الانسان في دعة وراحة  
وسعة لا يرى الا ما يسر ولا يجد ما ينفره او يضره ولا يفقد ما  
يحتاجه في وقت من الاوقات من جميع اللوازم والادوات فليت  
ما عندنا من الوكائل المذكورة يستبدل ولو على التدرج بما يقرب  
من هذه الصورة

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ايها الصاحب الفاضل  
والعالم العامل ان الامور مرهونة باوقاتها والاسباب ملازمة  
لمسبباتها ووقتنا هذا ليس كالاقوات التي مرت على مصرفكان  
من يسير او يسبح بها قبل الآن بنحو خمسين سنة لا يرى مثل هذا  
الخان في مدينة من مدن مصر لانه كان غير لازم في تلك  
الاقوات بسبب فقر الاهلين واضمحلالهم وندرة وجود الاغراب  
بها لعدم امنهم اذ ذاك فيها على انفسهم واموالهم فكان من يأتياها  
منهم ليقف على اخبارها او يطلع على اثار الماضين من سكانها  
يكابد مشقات عظيمة ويصرف في الحصول على ذلك مبالغ  
حسبة ويستغرق ازمته طويلة ويحتاج الى مكاتبات للوصية عليه

ومخاطبات رسمية لعدم التعرض لهُ وتحفظات كثيرة على نفسه  
وما له وما معه لان الفتن كانت مستهرة والاحوال لم تكن مستقرة  
والاهوال مترادفة والاهواء متخالفة فكانت الاغراب تعد دخولها  
والاقامة فيها من باب المخاطرة لما ذكر ولا سيما لتسلط الامراض  
الوبائية الدورية فيها على الاغراب في تلك الاوقات وكان ذلك  
امراً مشهوراً بين اهل اوروبا يصل اليهم في رسائل محررة بالسنة  
مختلفة من ورد عليها واطلع على احوالها وهذا فضلاً عن قلة  
العلائق بين اهل مصر والاقطار الاخرى فكانت مصر في معزل  
عن جميع الاحوال التآسية كأهل دارفور وكردفان الان فكل  
جهة كانت مخصصة بما عندها محرومة من فوائد غيرها وكانت  
الحكام والمتصرفون في امور العامة اذ ذاك مشتغلين باحوالهم  
المخاصة بهم كل منهم مقتصر في تحصيل معيشتهم وما يزيد في  
ثروتهم على اسباب فاسدة واعمال كاسدة كالقتل والنهب والسرقة  
والسلب صارفاً كل فكره في الوصول الى مال غيره ولو باضرار  
لا يبالي في فعله بجرمة ولا حل ولا يراعي حق صاحبه في نسب  
ولا آل ففسد امر الناس وتضعف وانحط حالهم وتزعزع لقلته  
الناصر وعدم المنصف القاهر فأهملت اسباب الثروة والتقدم  
وآل امر اهلها الى الفقر والعدم لتسلط الافات المتنوعة والعاهات  
الكثيرة المستفظة وتعطلت حركة التجارة والفلاحة ولم يجد اهلها  
من عدم الراحة ما يميل الى الراحة وتعطلت الارض من الزراعة

ووقع اهلها في اشد مجاعة فلاجل هذه الاسباب انقطع عنها توارد  
 الاغراب وقل تردد الخلق اليها وبانقطاعهم عنها خلت افكار  
 اهلها منهم فعملوا ما علموا من خاناتهم ووكائلهم مناسبة لحال  
 انفسهم وعوائد امثالهم وربما كانت الخانات والوكائل التي وضعوها  
 فوق الكفاية اذ لم يكن المقصود منها الا الوقاية الوقتية مدة  
 الليل وعلى الخصوص الأمن من اللصوص واما بالنهار فلا لزوم  
 لها بسبب اشتغالهم بما يلزم لقوتهم ومعاشهم وبهذه الكيفية كان  
 الغرض الحقيقي منها انما هو ماوى بعض الناس فيها بالليل ليس  
 غير بخلاف هذا الوقت فانه قد اطهنت القلوب وحصل الامان  
 وساعد الزمان بوجود علائق المحبة بين الملل خصوصا بين اهل  
 مصر وسائر الدول بمجصول الامن على المال والنفس ووجود  
 انواع السهولة اللازمة للاسفار فاطمان الغريب وامن وسهل  
 عليه مفارقة الوطن وهرع الناس الى مصر من سائر البقاع  
 وتواردوا عليها من جميع الاطراف بمقاصد ممدوحة وان كانت  
 مختلفة فمنهم من يقصد الإقامة فياخذ له بها مسكنا ويتخذها موطنًا  
 ومنهم من يقصد التجارة ومعاملة اهلها فيجيء من بلده اليها ثم يذهب  
 منها الى بلده وهكذا على حسب مقتضيات الاحوال وبسبب  
 اعتدال هوائها ولين طباع اهلها وكثرة احتفالهم واعتنائهم بالفادم  
 عليهم كثرت الرغبة فيها لتغيير الهواء وتعديل المزاج واكتساب  
 الصحة وبما اكتسبته من التمدن صارت قبلة لجميع اهل اوروبا

لا ينقطع تواردهم عليها وترددهم اليها من اول السنة الى اخرها  
ولكونها من قديم الزمان مجمع تجارة بلاد العرب والسودان  
كانت مركزاً يجمع فيه جميع التجار واصناف التجارة من جهات  
المعمورة كافة وما زاد في الرغبة في مصر ووسع في دائرتها وجود  
سكك الحديد الموصلة لجميع جهاتها وسلك التلغراف المار بينها  
وبين بلاد الهند واوربا فاتقطع بذلك ضياع الوقت واتصلت  
الاخبار وجرت الامور باوقاتها من غير تطويل في الزمن ولا  
زيادة في المصروف فمن كثرة وجود الاغراب عندهم حدثت بالضرورة  
في البلد عوائدهم ومنها هذه اللوكاندات اذ لا ياورون الا اليها  
ولا يمكنهم الاستغناء عنها لانه كما يقال في الامثال (من شب  
على شيء شاب عليه) فمن ثم ظهر بالمدن التي ظهروا بها اولاً  
خانات ومحلات للملاهي وقهاور مشبهة لما في بلادهم ومناسبة  
لحال ثروتهم وكان اول ظهورها بالاسكندرية لانها المينا والمرسى  
للمراكب الواردة والصادرة واول بلد ينزل به الغريب بعد مفارقة  
البحر ثم سرى ذلك الى غيرها شيئاً فشيئاً وهكذا كلما مدت التجارة  
اغصانها واستظلت القرى بظلالها واقتنفت اهلها من ثمارها كثرت  
اثار التمدن والعمارة والتانس والحضارة وعمما قليل يتآفون  
بالاغراب وثناكد بينهم الاسباب ويسعون في فعل ما يجذب  
قلوبهم اليهم ويمسنون امر ما بينهم ويتقل القطر ومبانيه واحواله  
واحوال ساكنيه ويكون هذا الانتقال ثمرة وجود الاغراب ولو

شرحت لك هذا المقام لطال الشرح واتسع الكلام ولكن يكفي  
 الآن ما قلته لك وسنعود لهذه المسئلة فيما بعد هذا وقد جاء  
 وقت الطعام فقم بنا انت وولدك ناكل ونستريح وفي غد ان شاء الله  
 يكون السفر والانتقال عن هذا المستقر لان وابور البوسطة قد  
 وصل ويسافر غداً بعد الظهر فقام معه الشيخ والغلام ودخلوا  
 جميعاً محل الطعام فنظر اليه الشيخ فوجده متسعاً وفيه خلق  
 كثير من نساء ورجال وشبان واطفال فداخله الحياء والهيبه  
 لعدم اعنياده مثل تلك الجمعية العظيمة خصوصاً وقد رآهم  
 جميعاً شاخصين بابصارهم اليه لمخالفة هيئته وملبسه لما هم عليه  
 ولما علم الانكليزي منه ذلك مازجه ومازحه وازال ما داخله من  
 الحياء وقال له تعلم ان ما يلزم معرفة العادات والرسوم المختلفة  
 بين اصناف العباد بحسب الجهات والاقطار والبلاد لما في  
 ذلك من عظيم الفائدة باتساع دائرة الاطلاع والتمكن من تمييز  
 الحسن والتبجح من احوال الناس والبقاع فقبل الشيخ منه تلك  
 العبارة وقعد بقربه وقعد ابنه الى جانبه وصار يتأمل في هذه  
 الجمعية وماكولها ومشروبها ووجد امامه على السفرة ملعقة وسكيناً  
 وشوكة واقداحاً صغيرة وكبيرة لم يدر ما المراد بها وكذلك ولده  
 فارادا ان يستنهما عنها من صاحبهما الانكليزي الا انها رأياه يتكلم  
 مع من بجانبه من الطرف الآخر فلم يريد ان يقطعاً كلامه ورأيا  
 امام كل واحد من المحاضرين مثل ذلك فانفقا على ان يصبرا

حتى ينظرا ما يصنع كل احد بما امامه من تلك الادوات وكيف  
يتتفع بها فيفعلا مثلما يفعل غيرها

وبينا هما في هذا الكلام دارت صحاف الطعام ورأيا كيف  
يستعمل المحاضرون هذه الادوات والتفت الانكليزي اليهما وعرفها  
بما رآه قد يخفى عليهما واعلمها ان جميع ما يحضر لذلك المحل من  
اللحم اصله ماخوذ من جزارين من اهل البلاد فضلاً عن كون  
اصحاب المحل من اهل الكتاب فاكل الشيخ وابنه كسائر المحاضرين  
واستعملا بعض ما امامهما من الاقداح في شرب الماء القراح  
وتركا ما اعدّ منها للراح

وقال الانكليزي للشيخ فيما بينه وبينه انما قصدت بحضوركما  
على هذه المائدة بين هؤلاء الناس المخلفي الاجناس ان  
تطلعا كما اخبرنكما على الرسوم والعادات وتعودا قبل دخول  
اوروبا على مثل هذه الحالات وهذه المائدة قد جمعت اغراباً من  
بلاد شتى والجميع من اوربا بعضهم ورد من قبل بقصد السياحة  
او الاقامة بمصر وبعضهم حضروا من مدة وقضوا ما ربههم واغراضهم  
ويريدون العود الى بلادهم ومن جملتهم عائلة انكليزية تريد ان  
ترافقنا في وابور البوسطة الذي نساfer فيه فان شئت واذنت  
عرفتك بهم لانه لا يخفى عليك مزايا المعرفة والائتلاف بالناس  
والمخالطة وحسن المعاشرة فقبل الشيخ منه ذلك وقال هذا ما  
ندب اليه نبينا صلى الله عليه وسلم حيث قال التودد الى الناس

نصف العقل وتعرف بهم وكان ممن حضر على المائدة بالقرب من  
 الشيخ شابة طليانية تعرف اللغة العربية وغيرها فكانت تارة تتكلم  
 بها وتارة تتكلم بلغتها او غيرها من اللغات الاجنبية على حسب  
 لغات المحاضرين وكانت بديعة الجمال نادرة المثال ظريفة الشائل  
 ثابتة الجاش فصيحة اللسان لا تقتصر في كلامها على الالفاظ العادية  
 بل تأتي بمجاسن الالفاظ اللطيفة والنكات الظريفة وتدخل مع  
 الرجال في المباحث العلمية والسياسية مع صغر سنها فتعجب الشيخ  
 من ذلك واستغرب حالها لكونه لم يعهد في نساء البلاد الشرقية  
 امثالها فانه يراهن دائماً عن الرجال بمعزل ولا شيء عليهم سوى  
 خدمة المنزل ولا يتكلمن الا مع ازواجهن وذوي قرابتهن واذا  
 تكلمن مع الرجال يتكلمن بنجمل واستحياء بخلاف ما رآه في الطليانية  
 ومن معها من النساء اذ لم يجد بينهن وبين الرجال فرقاً في المخاطبة  
 والمجاوبة والمجاورة والمسامرة وكان يرى الخادم يبداء في تقديم  
 الطعام بهن قبل الرجال واذا طلبن شيئاً بادر بتقديمه اليهن  
 من كان قريباً منهن لا فرق بين صديق وغريب واجنبي وقريب  
 فالكل محنفل باكرامهن كل الاحنفال ولا ياتي الا بما يسرهن من  
 الاقوال والافعال فامعن في ذلك النظر واجال فيه قداح الفكر  
 وقارنه في نفسه بعوائد نساء المشرقين لينظرايهما افضل فرأى ان  
 عوائد المشرقين اجمل واكمل لانها اعون على حفظ الشرف  
 واصون للعرض من اسباب التلف

ولما انتهى امر الطعام وحان وقت القيام توجهوا جميعاً الى محل شرب القهوة فمهم من اقام بها يقرأ صحف الاخبار ونحوها ومنهم من خرج لاشغاله ومضى لحاله اما الانكليزي فتوجه مع الشيخ لمحجرته ومعها برهان الدين وكان الانكليزي قد نفرس ما دار بخاطر الشيخ في اثناء الطعام الا انه منع نفسه من الكلام في ذلك المقام ولما استقر بهم الجلوس وساغ ابداء ما حاك في النفوس



### المسامرة الثانية عشرة النساء

قال الانكليزي قد اطلع سيدنا الشيخ في هذه اللحظة اليسيرة على كثير من عاداتنا واحوالنا ولا بد انه ادار نظره واجال فكره في المقارنة بينها وبين عادات هذه البلاد وتامل فيها تامل اعتبار وانتقاد فمن اجل هذه الفائدة قد رغبت في حضوره على هذه  
المائدة

فقال له الشيخ نعم كنت اتامل فيما اراه من الاحوال لاسيما في اخلاط النساء مع الرجال فوجدت في اخلاطهن فوائد لمن من حيث انهن يتلذذن بما يرينه ويعلمنه من الحوادث والاخبار

وما يظلعن عليه من محاورات الرجال لكن ربما ترتب على هذا  
 الاخلال ما يخرجنا عما هو اليق بهن من الصيانة والحياء لان  
 كثرة المخالطة والملاسة بين الرجال والنساء قد تفضي الى ضد  
 ذلك فلا شك ان عادات المشرقين ارجح وراهم في احتجاب النساء  
 عن الرجال اصح واصح اذ ذلك مما يوجب زيادة ائتملاف المرأة  
 باهلها ويؤكد ارتباطها بزوجها وارتباطه بها وامنه عليها ورضاها  
 بحاله بخلاف ما اذا كانت تنظر لغيره في جميع الاوقات وتطلع على  
 معاش الناس مع اختلاف الحالات فان ذلك قد يحرك عندها  
 الشهوات ويجدد لها لوازم ربما اوقعت بينها المنازعات والمخاصمات  
 فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل او انقسام العائلة ولهذا  
 المصالح ورد شرعنا باحتجابهن واظن ان اصل شريعتكم لا يخالف  
 ذلك وهو ايضا مقتضى اراء العقلاء والنبلاء واكابر الحكماء قال علي  
 كرم الله وجهه اكفف ابصارهن بالحيجاب فان شدة الحجاب خير  
 لهن من الارتباب وليس خروجهن باضر من دخول من لا يوثق  
 به عليهن فان استطعت الايعرفن غيرك فافعل . قال السمعاني

لاتامنن على النساء ولو أخا \* ما في الرجال على النساء امين  
 ان الامين ولو تحفظ جهده \* لا بد ان بنظرة سينون  
 وقال عمر الفاروق استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا

من خيارهن على حذر

فقال الانكليزي ان الذي ذكرت ايها الشيخ من المحذورات

لا تمنع منه العزلة بالكلية لان كل امرأة يمكنها ان تعلم كل شيء وهي في منزلها بان تنظر من الشباك مثلاً فترى كل ما يمر بالشوارع والحارات فتعرف اوصاف النساء والرجال واحوالهم فمن اجتهت خاطبته وما اعجبها فعلته وحيثئذ يكون حال من قعدت في منزلها من النساء كحال من تكون مع الرجال سواء بسواء ومع ذلك فالمرأة على حسب عوائدكم لم تمنع كل المنع عن الخروج من منزلها بل تخرج لزيارة اهلها وجيرانها واحبابها من اهل البلد فيمكنها ان تطلع على صفاتهم واحوالهم وتعلم درجة ثروتهم في منازلهم واذا اراد منعها من الخروج فربما تعلت بان عليها رجلاً من الجن او بها مرضاً من الامراض فلا تستريح الا بزيارة بعض الاولياء او المضي الى بعض النساء او تريد الذهاب الى الحمام او صلة بعض الارحام ونحو ذلك من الاعذار والحيل التي يمكنها ان تبلغ بها الامل وهذا كله فضلاً عن اخبار المترددين اليها بجميع ما يكون من اخبار الناس وحوادثهم كل ذلك امر مشهور وواقع في بلادكم فلو صرح لها بالذهاب الى اي جهة ارادت لما علمت زيادة عما تعلم ولا الم بها اكثر مما الم فان قلت ان في العزلة بعض صيانة لغرضها ومحافظة على شرف زوجها واهلها بتقليل خروجها من منزلها ومخالطتها لغير بعلمها اذ ليست من تخرج متى شأت وتجمع بمن ارادت في اي وقت كان مثل من لا تخرج الا باذن وسبب وعلة . قلت ليس هذا اقوى في الصيانة من التربية بين اهلها واقاربها فان حسن

التربية يرشدها لما يجب عليها من الفروض ويكسوها حلل المروءة اللاتمة بها وبزوجها واقاربها فكما لا يكتفى بمجرد العلم مع المحربة كذلك لا يكتفى بمجرد العزلة مع الجهل بل لا بد في كلا الحالين من حسن التربية في الابتداء لانك تعلم ان حسن التربية يهذب عقل الانسان ويصفي طباعه ويعوده على الفضائل ويبعده عن الرذائل فهو زمام ذلك كله والقاطع لعرق الشبهة من اصله ولم ار هذه العادة المخالفة لعاداتنا الا في بعض مدن البلاد الشرقية فاخصاصها بهذه المدن القليلة يدل على انها بدعة حدثت لاسباب طارئة فان جميع نساء الارياف ونساء عربان البادية وبلاد العرب واهل المغرب وسواحل الشام وارض الحجاز لا يحتجبن عن الرجال وربما قمن مقام ازواجهن في بعض الاحوال كاكرام الضيف والاخت والاعطاء مع الاجانب وكثيراً ما يكون امر المنزل وادارته موكولاً الى رآيهن وتديبرهن وقد رأيت فيهن من عاونت الرجل في اعماله الشاقة وهذا كله بالاخيار من غير اكراه ولا اجبار فلولا ان الحكم بالعزلة لامر قهري وسبب جبري لما وجدت في المدن واطن ان هذه العادة ماخوذة من الاعاجم وسرت الى مثال هذه البلاد عند دخول النار والترك بها واستيلائهم عليها نشأ من عظمتهم وكبرهم احتقار غيرهم واكثروا للخدمة من الجواري للفرش من السراري ولما اكثروا منهن خافوا عذر رضاهن هم فمنعوا حرمهم من الدخول والخروج والاختلاط بالرجال

والزموهن البيوت والعزلة عن سائر الاجانب وما يتوي هذا  
الظن اتخاذهم الاغاوات للمحافظة عليهن خارجا وداخلاً فنجدهم  
ملازمين لهن موكلين بهن من قبل ساداتهن يخبرونهم بكل ما  
يحصل منهن من قول وفعل فتكون العائلة دائماً في اضطرار  
ورعب وعذاب خائفة من ان تنزل او يقال في حها شيء لسيد  
المنزل وان كان هناك تلذذات منزلية فأظن انها وقتية وربما  
كان غالبها تصنعاً وتكلفاً وتطبعاً لان اللذة الطبيعية لا تكون  
الا عند تساوي المتحابين وخلوص الود من الطرفين وقل ما  
يوجد ذلك بين السيد وجواريه او بينه وبين سراريه اذ لا  
مساواة بينها ولا نسبة فكيف يوجد الحب او يكون للألفة اثر  
بالقلب بل يكون بينها غالباً بعض وحشة وكدر وحيث لا يمكنها  
الانفصال لا يسعها الا الطاعة والامثال والاعاشت في هم ونكد  
وكدر مستمر الى الابد وما تراه حولها من المستلذات والمجواري  
والمخدم والاعاوات وانواع المحلى وزخرفة المنزل والملبوسات  
لا يفيدها الاغما على غم وعيشة كعيشة من وقع بينهم عطر منشم  
فيتزايد ضررها خوفاً من ان يتمتع به غيرها لعلها حيثئذ بدرجته  
في السعة واليسار فلا تنهأ بحال ولا يقر لها قرار

فقال له الشيخ انا نرى هذه العادة الجارية عندنا لازمة عقلاً  
وشرعاً اما عقلاً فمن وجوه منها . ان الطبع البشري لا يستحسن  
ان يطلع احد على حرم غيره فضلاً عن حرم نفسه لما

ركب في طباع اناث هذا النوع من الشهوة القوية الدائمة التي لا تزال الدواعي لاختادها وكسر عاداتها قائمة في كل وقت على خلاف بقية الانواع الحيوانية فانك لا تجد الانثى منها تتحرك شهوتها وتشتد غلظتها الا في وقت معين من اوقات السنة حسب ما طوى في ذلك الخالق الحكيم من ايجاد النسل لابقاء سلسلة الانواع ولذلك تجد اناث الحيوانات ممنوعة بنفسها صادة ما يريد من الذكور فكل الفة من الحيوانات التي طبيعتها التالف والاختصاص كافية اليها مؤنة صيانتها وربما تقاربت اوقات سورة الشهوات في بعض الحيوانات الموثلفة فمكنت غير اليها من نفسها فحصل بذلك مقتلة يقتل فيها القوي الضعيف وقد جعل هذا النوع ذاعقل يحكم به ويميز ما ينبغي وما لا ينبغي فلو ارسلت احاد هذا النوع على مقتضى شهواتها لحصل من ذلك فساد عظيم لا يحصل مثله بين البهائم ومنها ان النساء عند الرجال كالاسرار ولا تسبح النفس باطلاع غيرها على سرها

ومنها ان مبادئ ميل النفس الى الشهوات انما هو الاجتماع والميل للشيء لا يكون الا بعد رؤيته فلذلك منعت النساء من التكشف بمحضرة الاجانب وامرت بالاحتجاب عنهم غيرة عليهن وكثراً لهذه المفاسد ولا تظن ان المنع من الاختلاط خاص بالنساء بل الرجال كذلك ممنوعون من رؤية النساء الاجانب والحلوة

بين ولكن لما كانت الرجال يفتنوا بالحكمة الالهية هم الذين يقومون بمصالح المعاش وعمار الدنيا بنحو الفلاحة والتجارة والصناعة اضطروا الى الخروج من منازلهم للاسفار وتحصيل معائشهم واما النساء فلما لم يكن عليهن سوى خدمة المنزل الزمن بملازمته . على ان المرأة في بيت زوجها لا يلزمها الا تسليم نفسها له فلم تتخذ للخدمة ولا للطبخ ولا لغسل الثياب ولا لكس البيت ونحو ذلك بل كل ما فعلته زيادة عن تسليم نفسها فذلك من لطف طبعها وحسن عشرها مع بعلمها كما روي ان رجلاً جاء بياب عمر بن الخطاب ايام امارته يشكو له سوء خلق زوجته عليه فيعد ان دق الباب سمع صوت امرأة مرتفعاً على امير المؤمنين تناول منه وتؤذيه فالتفت الرجل راجعاً وقال في نفسه هذا حال زوجة امير المؤمنين فانا اصبر وكان عمر سمع دق الباب فخرج ووجد الرجل منصرفاً فناداه واستخبره عن شأنه فقال وجدت عندك مثل ما جئت اشكو اليك منه فقال امير المؤمنين ان النساء يخدمنا بما لا يجب عليهن يغسلن ثيابنا ويصنعن خبزنا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة وانما هي لحظّة وتسير فليحسن خلقك بحسن خلقك

وايضاً فما الفائدة العائدة عليها او على الزوج من مخالطة الاجانب فضلاً عن الكشف عليهم حيث ان الزوج قائم بجميع لوازمها ولوازم منزله فلا اقل من ملازمة منزلها اذ لا يعود من اخلاطها بالاجانب الا تضربها بزوجها او تضرب زوجها بها لانه

لو فرض ان زوجها فقير او متقدم في السن واجتمعت بمن هو اغنى منه او اصغر لبطرت معيشة زوجها وكرهت الاقامة معه وكذلك الزوج ربما عرضت له خواطر نفسية باجتماعها على اغنى منه او اصغر فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل وكما ان الرجل لا تسع نفسه بروية غيره لحرمة فكذلك المرأة لا تسع نفسها بروية غيرها لزوجها اذ النساء اشد غيرة من الرجال كما هو معلوم وايضاً فان غالب نساء المشرقين بسبب تعودهن على القيام بالامور المنزلية وبسبب حرارة البلاد المشرقية يمتنعن من الخروج من المنزل بطبعهن واذا خرجن فلا بد لهن من الملابس التي نراها عليهن وقاية لوجوههن من حرارة الجو والأتربة لانهن لولبسن ملابس نساء الافرنج لأثرت العوارض الجوية على اعضاءهن وازالت بعض جمالهن ولذلك نرى نساء الافرنج لا يمشين الا بالشمسيات خوفاً من تلك العوارض وربما اعتكفن في الاوقات الشديدة الحرارة او ذهبن الى بلادهن وحيث لم تكن عوارض البلاد واحدة لم تكن عوائد اهلها واحدة لان النوع الانساني مجبول على ان يجعل احواله مناسبة لاحوال بقعته التي هو بها ومن تامل احوال الامم يجد هذا الامر عموماً فطباعكم مناسبة لبلادكم وطبائعنا مناسبة لبلادنا

واما دلائل لزومها فالآيات القرآنية والاحاديث النبوية المنبهة على محاسن احتجابهن واعتزالهن عن غير محارهن كثيرة

وقد كانت العرب على عوائد قريبة من العوائد الأروباوية  
 فكانت النساء يجادثن الرجال ويناشدنهم الأشعار ويناقلن الأخبار  
 لكن كان أمر الحرية وتصون النساء فيهن قوياً وكانت أمورهم  
 منكشفة لما كانوا عليه من ظهور البدأة ولم تكن متكاثفة عليهم  
 الاستار المدنية فجاء الإسلام وهم على تلك العوائد فقام العقلاء من  
 المسلمين منهم عمر بن الخطاب فقالوا يا رسول الله تغيرت الأحوال  
 وكثر الاجتماع واشتد اختلاط الناس بعضهم ببعض من العرب  
 وغيرهم وظهر الفساد من اختلاط الشباب فهلاً أمرت بالحجاب  
 فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أومر بذلك ثم أوحى إليه  
 كما هو شأن الله معه حيث لا يوحى إليه حكماً إلا عند اقتضائه  
 بحكم تغير العوائد ومن ذلك الوقت تواترت الآيات والأحاديث  
 بحجب النساء ومنعهن من الخروج وأحدثت الأخلية في البيوت ولم  
 تكن قبل عند العرب وشدد أمر الحجاب على التدرج فكان أولاً  
 منع النساء من الخروج نهراً وكن يخرجن إلى البراز عند اقبال  
 الظلام فوقف عمر ليلة في طريق ذهاب نساء النبي صلى الله عليه  
 وسلم إلى البراز فرأى عمر إحدى أزواج النبي صلى الله عليه وسلم  
 وهي سودة بنت زمعة فقال قد عرفناكِ يا سودة فرجعت ومنع  
 ليلاً أيضاً إلا من الخروج إلى المساجد للصلوات في موضع منها  
 خلف الرجال كما هو ترتيب الصفوف الشرعي فلما ازداد اجتماع  
 الناس من سائر النواحي وصار غير العرب أكثر من العرب اجتهد

عمر اجتهاداً دينياً في منع ذوات الهيات من الخروج الى المساجد حتى ان زوجة له خاضته في ذلك وقالت من هو افضل منك لم يمنع النساء من المساجد فتركها وخرجت الى المسجد فخالف اليها الطريق وجاها من حيث لا تشعر فضرها على عجزتها فرجعت وهي تقول نعم ما رأيت يا امير المؤمنين فقد قسد الزمان ومثل ذلك سمعت الاشارة من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال اعروا النساء يلزمن البيوت

انما يلزم المرأة شرعاً اذا ارادت الخروج ان تستأذن زوجها لانها لو خرجت من غير اذنه كان على جهل من احوالها فربما ينوء الظن بها فيحدث له عند ذلك اوهام ربما جرت الى النزاع او الفرقة فاذا اذن لها زوجها بالخروج يلزمها ان تكون في هيئة الكمال والوقار على حسب الحال من الاعسار والبسار فجميع ذلك لم يكن فيه احتقار لهن ولا ازدراء بهن بل هو من باب التعظيم والاحترام والصيانة اذ المرأة عند الرجل كالجوهرة النفيسة يجب صيانتها عن كل ما يشينها او يشين عرضها كما ان الجوهرة تصان عن كل ما يضر بلونها او يغير شكلها او يخس بقيمتها واما ما قد يتفق من ان بعض النساء يخرجن من منازلهن او يتكلمن مع الاجانب فذلك لا يكون منهن الا لضرورة والضرورات تنجى المحظورات فان لم يكن الخروج والاجتماع لضرورة ولا عذر شرعي بل كان لمقاصد شهوانية فذلك نادر وهو لا حكم له بل الحكم

للغالب وهذا النادر كما يتفق في نساءنا يتفق في نساءكم من غير فرق بيننا وبينكم

واما ما كان من امر الاغاوات فلم يكن اتخاذهم امراً قديماً وانما هي بدعة دخلت بلادنا ولم تكن من عوائدنا السابقة ولا اللاحقة ولم يرد بها شرع فلا ينسب اليها ما خرج عن حدوده فكم من بدعة حدثت على ان هذه البدعة لم توجد الا عند بعض الامراء لزعيمهم ان الاعتبار لا يتم الا بها او انها علامة على العظمة وعلى حسب حال الامير وتعدد زوجاته وسرايره فتعدد الاغاوات ومع ذلك لم يقصدوا باتخاذهم لهم الا اكرام النساء وتعظيمهم واما جميع الاهالي على اختلاف طبقاتهم فلا يتخذون الاغاوات ولا حاجة لهم بهم وان وجدوا عند بعضهم فذلك نادر ولا يكون الا تقليداً بسبب تشبهه بالامراء العظام فلا يحكم على الامة كافة بما وجد عند البعض ولا ينسب الى الشرع ما حدث بالبدعة فلم تكن العرب تعرف خصاء الانسان اصلاً وكان شائعاً في الروم فلم يرد في الشرع نص في امر استعمال الخصيان هذا الاستعمال القائم بين الناس غير ان الكتاب العزيز تعرض في احكام النساء الى الرجال الذين لم تخلق فيهم الفحوة وهم المعبر عنهم بغير اولى الاربعة والاربعة حاجة الرجال الى النساء في امر جواز ابدان زينتهم حكم بامتناعها وحرمتها الا على اجناس من القرابة وغيرهم منهم اولئك الرجال فكان امر استعمال الخصيان من الامور الاجتهادية فلما اتسع

الاسلام ودخل بلاد الروم واطلعت العرب على الخنصيان رأى  
 امير المؤمنين معاوية رضي الله عنه رأياً مذهبياً بالتياس على غير  
 اولى الارية جواز استعمال الخنصيان فلما اقتنى منهم من اقتنى واراد  
 ان يدخله على بعض نساءه امتنعت من ذلك فاحتج بكونه خصباً  
 فقالت له ان المثلة به لم تحل منه ما حرم الله ولم ير غيره من اهل  
 الاجتهاد جواز ذلك فكان استعمال الناس للخنصيان تقليداً لمذهب  
 معاوية رضي الله عنه فهو من الشرعيات الاجتهادية دون النصبة  
 ولقد ترتب على ذلك من الاثار المذمومة ما لو اطلع عليه معاوية  
 لكان عساه ان يحكم بتجرمه فقد يطراء على الخلق ما ليس من  
 طبائنها ويحدث في عوائدها ما يخالف دينها وشرائعها وبعد ذلك  
 لا يمكن ازالته فيكون كالدآت التي تستحکم بالجسم فهو منه ويجهتد  
 من ابتلي بها في الشفاء منها فلا يمكنه ومن هذا القبيل الاغوات  
 بل هم اضر على ساداتهم من الداء بدرجات فان ضرر الداء قاصر  
 على صاحبه واما ضررهم فمتعد من رب المنزل الى عائلته وحاشيته  
 واقاربه فمن تأمل حال الاغوات مع ساداتهم وجد ان السيد  
 ما جلب لنفسه الاً ضرراً وما اكتسب باتخاذهم الاً مخالفة الشريعة  
 الغراء وتمكين غير عشيرته من الحكم على اهل بيته وعائلته مع ان الامور  
 المطلوبة منهم يمكن الحصول عليها بغيرهم كما مرّ عجز او بنت او  
 ولد صغيرين وعلى اى حال ففائدتهم لا تنفي بضررهم لان غالب  
 النزاع والفساد الذي يوجد في البيوت لا يكون الاً بسببهم نلما

يلتونه من الفتن بين السيد وعائلته او بين العائلة وبعضها بين  
 بين صاحب البيت واحبابه بما يزخرفونه من القول والفعل  
 ويخلفونه من التزوير الذي ليس له اصل وكثيراً ما يكونون سبياً  
 في غضب الزوج على عائلته وشذوذ الزوجة عن طاعته او  
 خروجها من بيته فيكون سبياً في زوال نعمتها وعدم الراحة بينها  
 وبين رب المنزل وبالجمله فلا حصر لما ينشاء من اقوالهم وافعالهم  
 بل كثيراً ما انتقت الاغاوات والمحرم على اتلاف رب للمنزل وفقده  
 وكتب السير مشحونة من هذه الاخبار وفي ذلك عبرة لاولي  
 الابصار

فقال الانكليزي كيف من يكون قدوة لغيره بخرف عن  
 الصواب ويدخل مدخلاً لم يكن لحسنه في الشريعة ولا في العقل  
 باب فان الامراء بالنسبة للرعية في كل زمن على الاطلاق  
 كالكوكب والشمس المضيئة في الافاق فكما ان كل احد ياخذ  
 منها ما يلزم لحياته من الحرارة والضوء وما بقي به نفسه من السوء  
 كذلك الامراء تاخذ الرعية من عوائدهم واخلاقهم ويقتدون بهم  
 في اقوالهم وافعالهم فاهل القرى يقلدون مشايخها وعمدها واهل المدن  
 يقلدون امراءها واعيانها وكذلك الامراء تقلد ساداتهم وروؤسائهم  
 فان كانت الامراء سائرة سيراً حسناً انتشر ذلك في افراد الرعية  
 فصلاح حالها وقويت شوكتها وعلت شهرتها والا اقلب الحال واخذ  
 في الاضمحلال فان الناس بالنسبة لامرائهم كالاطفال بالنسبة

لمعلمهم وذلك امر ظاهر لا يحتاج الى دليل ولا توضيح ولا تمثيل  
فكل احد يجب ان يتشبه بمن يقرب منه على حسب طاقته فكا ان  
الدآء تسري باللامسة كذلك عوائد الامراء تسري لاتباعهم  
وتنتشر من بلد الى بلد حتى تعم القطر . الا ترى ان اصحاب الوظائف  
تبع لرئيسها فان كان الرئيس قائماً بما يجب لها مؤدياً جميع حقوقها  
قام كل منهم بها هو مفروض عليه من غير كسل ولا تساهل  
ولا ملل وتحصلت ارباب الحقوق على حقوقهم باوقاتها والعكس  
بالعكس ولا يخفى عليك ان كل انسان لا يلوذ به الا من يشاكله  
ويجانسه وفي اوصافه يماثله فاصحاب الكبار من الامراء لا يلوذ  
بهم الا مثلهم وكذلك ذوو الفضائل منهم وهكذا اهل كل منزل  
بالنسبة لرب المنزل فاخلاقهم وعوائدهم مكتسبة من اخلاقه  
وعوائده فان اكثر من الموبقات والملاهي وانواع الشهوات سرى  
ذلك في اهل بيته وعائلته وذريته وان استقام وقام بها يجب عليه  
حق القيام بتبعته عائلته وذريته وحاشيته وقياساً على ذلك حال  
كل راع مع رعيته فان حافظ على ناموس شريعته وقوانين ملته  
تبعته رعيته فكثير خيرها وان سلك طرق الفساد انحل امرها  
وانضع وفسد حالها وتضعض ومن يتامل احوال المتقدمين يرى  
ان كل طائفة تبع لسير من تبعته فتارة ترتفع وتارة تنضع فكم من  
قوم مضى عليهم اوقات زهو وظهور ثم انحط امرهم بعد ذلك وقصمت  
منهم الظهور ثم بعد انقضاء مدة من الزمان عاد لهم حالهم الاول

او احسن مما كان وذلك كما يحصل لذرية الرجل من الفقر  
 والفاقة بعد موته وان كان ترك لها اموالاً وعقاراً وعزاً ووقاراً  
 فيمضى اثرها بالكلية وبعد زمن يتجدد لها رونقها الاول على يد  
 ناجب من الذرية يلم شعنها ويصلح وعثها فيعود لها مجدها. ويرجع  
 اليها سوءدؤها ما ذاك الا لتفريط الذرية وخروجها عن الحدود  
 الاصلية فلو حافظوا على فخرهم وشرفهم واتبعوا قوانين سلفهم ورفضوا  
 اغواء الغاوين ولم يتبدوا لبراي المفسدين لاستمروا على سعدهم ولم  
 يحتاجوا الى من جاء من بعدهم بل ربما زادوا عن الاصل وتضاعفت  
 عليهم حلل الفضل ولا سيما اذا انضم الى ذلك ما يعلمونه من  
 الاصطلاحات المتجددة بتجدد الاحوال والاوقات فان النصيحة  
 لا تؤخذ عن اشتهر بالفساد او عرف بدناءة بين العباد او كان  
 من المتعلمين واهل النفاق او من ارباب المعاصي على الاطلاق  
 لان مثل هؤلاء وان جلت معلوماتهم وحلت كلماتهم لا يقصدون  
 الا التوصل الى اغراضهم فلا يصلحون دليلاً في الامور الدنيوية  
 ولا قدوة في الاحكام الدينية بل لا تؤخذ النصيحة الا عن عهد  
 عليه الصدق وعرف بين الخلق باتباع الحق وكذلك الشريعة  
 لا تؤخذ الا عن اربابها والكلام في هذا المعرض متسع وان  
 ردت الزيادة ففي وقت اخر تستمع فان ما قلته لك بعض ما  
 قال اقال الله عنترك في من يقال  
 قال الشيخ ما احسن هذا الكلام واوصله الى اقصى المرام

فان النصيحة لا يكون لها تاثير حتى تصدر عن حر الطبع تقي  
الصنع بالفضائل بصير كما يحكى ان رابعة العدوية وقفت يوما  
على واعظ حوله جم غفير وهم عنه لاهون فقالت له كيف يداوي  
العليل من هو سقيم فانشد

فخذ بعلمي ولا تركز الى عملي

ينفعك علمي ولا تضرك اوزاري

ان الرجال كاشجار لها ثمر

فاجن الثار واخل العود للنار

فقالت له لا والله حتى يكون عمك على وفق عمك

وانشدت

ابدا بنفسك فانها عن غيبها

فاذا انتهت عنه فانت حكيم

لا اتنه عن خلق وتأتي مثله

عار عليك اذا فعلت عظيم

تصف الدواء لذي السقام وذو الضنا

كما يصح به وانت سقيم

فعند ذلك قام الواعظ واجتهد في تطهير قلبه وسعى المساعي

الحميدة فمرت عليه بعد ذلك ذات يوم فوجدت من حوله ما

بين باك ومغشي عليه فقالت له كيف رأيت فبكي وقال

نفعك الله ياسيدتي ونفع بك

قال الانكليزي كذلك يكون فان منبع الخير طهارة يقتدي به من العلماء والامراء وها نحن قد تهيئنا للسفر فان كان في بيتك تحرير خطاب للعائلة فاكتبه الليلة فان مركب البوسطة يقوم بعد ظهر غد ومتى طلع النهار اشتغل الانسان بأمر شتى وربما يطرا عليه ما ينسيه او يحصل له شاغل يلهيه فقال له الشيخ جزيت عني خيرا فقد اظهرت ما اضرمت في نفسي ان اسألك عنه

---

### المعامرة الثالثة عشرة البوستة

فقال الانكليزي الامر الان ممكن من غير صعوبة لان البوستة بالديار المصرية وكذلك في البلاد الاوروباوية مصلحة قائمة بذاتها من شأنها استلام الخطابات والجوابات من اربابها باجرة معلومة على حسب وزنها وهي ملزومة بتوصيلها الى محل ارسالها مع غاية الامنية وهذه المصلحة ليست مخصوصة بتوصيل المخاطبات بل تستلم النقود والجواهر والفواتير المرسلة من قبل التجار كذلك ولها قانون تجري على مقتضاه ولها خدمة مخصصون بها لم مرتبات على قدر وظائفهم وناظر عمومي وحساب تلك المصلحة يقطع سنويا

بمعرفة ناظر المالية

فقال الشيخ وهل هذه المصلحة مخصوصة باهل مصر واسكندرية ام اعامه لجميع الجهات المصرية من المدن واقرى وكيف سهولتها في النقل

فقال الانكليزي انه سهل جدا بواسطة وجود السكة الحديد لان المصلحة جعل لها جملة مكاتب في المدن وبعض محلات شهيرة في الجهات البحرية والقبلية من القطر وفي المدن الكبيرة مكاتب مركزية فالخطابات بعد تظريفها وختمها يوضع بعنوانها الجهات التي يراد الارسال اليها واسم الذي تسلم اليه ثم توضع في صناديق او علب على هيئة مخصوصة مثبتة في حائط المكاتب ثم تجمع هذه الخطابات وغيرها في المكتب المركزي في اوقات معينة وتوضع في مخال او علب تسلم لاحد مستخدمي البوسطة مع النقود والاشيا الثمينة ان كانت بمقتضى سندات بيد اربابها فياخذها احد الخدمة المذكورين ويسافر بالعربة المخصوصة لذلك وعند مروره على كل محطة يسلم لوكيل البوسطة الذي في تلك المحطة ما كان مختصا بجهته وهكذا ثم يصير توجيهها الى اربابها بمعرفة الوكلاء بمقتضى سراكي معلومة بينهم واما الاجرة فتارة تؤخذ من المرسل اليه وتارة تاتي له خالصة الاجرة اذا كانت دفعت وقت الارسال ويعلم ذلك بعلامات توضع على ظهر الظرف معروفة فيما بينهم وبما ذكر صار الامر هينا وهذه من فوائد تلك

المصلحة ومنها أنه يتأتي بها للتجار الوقوف على حقيقة تجارتهم وأجراء  
 حركاتها بالسرعة التي يريدونها فان اراد احدهم الوقوف على  
 امر شريكه او صاحبه او من يعامله ارسل الخبر بالتلغراف فيأتيه  
 الجواب حالا ولا يستغرق الا بعض دقائق وان كان الامر يلزم  
 له زيادة توضيح ارسله بالكفاية في البوسطة على الوجه الذي ذكر أولاً  
 وفي بعض الاحيان يرسل الخبر أولاً بالتلغراف مجبلاً ثم يتبعه  
 بطريق البوسطة مفصلاً فمن ذلك حصل لامور التجارة انقلاب  
 حسن محسوس بسبب سرعة تواصل الاخبار بين مراكز التجارة  
 وهذا بخلاف ما كان في الأزمان السابقة لان الاخبار اذ ذلك  
 كانت لا تصل الا بالملكاتبة فكان يمضي عليها ايام في اثناء السفر  
 وربما لا تصادف الوقت المطلوب وبهذا كان يضيع على التجار اغلب  
 الفرص لانها كانت تابعة لسير تفويض لاحظ للنظر فيه كما تحكم  
 به طبيعة الحال واما الان فقد تمكن التاجر في وقته وساعته من  
 العلم بما يلزم مشتراه وما يجب التصرف فيه وبما راج منها وما كسد  
 اذ بواسطة التلغراف والبوسطة في البر والبحر صارت جميع بقاع  
 الارض متصلة ببعضها والاخبار واردة من جميع جهاتها مع السرعة  
 التامة اذ في ظرف الاربع والعشرين ساعة تعم الاخبار جميع  
 جهات المعمورة ولا يخفى عليك ان النوع الانساني بحسب ما  
 جبل عليه من تطلبه زيادة السعة تجدد في معلوماته هذا السر  
 الذي كان كامناً في الخلقه فاستعمله واتنفع به فزادت بذلك ثروته

واما في الازمان السابقة فكانت المخاطبات والابخار بطيئة الوصول  
 لانها كانت ترسل مع احد الاحباب او المتوجهين للجهات فيطول  
 الزمن ويضيع وقت انتهاز الفرصة الى ان حصل بعض رفاهية  
 وتقدم فاتخذت الساعة ثم الخيل وبعد ذلك وضعوا بسطا على  
 ابعاد متساوية فكانت هذه الطريقة اسرع من الطريقتين قبلها  
 لكنها كانت في مبداء الامر خاصة بالملوك والامراء ولم يصرح لعموم  
 الناس بالانتفاع بها الا فيما بعد فاتسع هذا الامر واستعملته جميع  
 البلاد وحسنت قوانينه فعم نفعه ولما فشا امر التجاره واتسع في البر  
 والبحر وزادت علائق التجارة بين الملل اختلفوا جميعاً الى استعمال  
 هذه البوسطة للحصول على مقصودهم في اقرب زمن وقد كان حتى  
 صار من احسن نظامات الدول واكبر موانع بين الملل وكانوا  
 قديما في البلاد الشرقية ك مصر والشام يستعملون الحمام في توصيل  
 الاخبار كما يعلم ذلك من اطالع على تواريخ المتقدمين ويقال ان  
 اول استعماله كان من رشيد الى دمياط وقد اختلف في اول  
 من رتب البوسطة ونظم لها اربطة موزعة في الطرق فذكر بعض  
 المؤرخين انه (دارا) ملك الفرس وقيل (دارا) ملك (الديلم) وفي  
 بلاد الروم (قيصر) وفي بلاد فرانس شربلاني فوسعوا في دائرتها وما  
 زالت يتسع امرها شيئاً فشيئاً الى ان صار لا يخلو قطر من الاقطار  
 عن بوسطة حتى انه يوجد في بعض المدن الكبيرة مثل التخت  
 بوسطة مخصوصة بنقل الخطابات من حارة الى حارة فينتجه خادم

البوسطة من غير انحراف ولا سوال من احد الى ان يصل المنزل الذي يقصده وذلك لان رسم المدن وخرطتها مبين فيه اسماء الحارات ومواقعها والعطف والشوارع وللمدينة قاموس وخرطة ودفتر مشتمل على اسماء السكان ووظائفهم فتمت راجع الخادم المخرطة والقاموس اهتدى لمقصوده فتم مامورته من غير مشقة الا ان القاهرة وان كان بها نمر موضوعة على المنازل والحارات والعطف لكنها غير كافية حيث لم يكن للبلد رسم ولا قاموس فن ذلك يحصل لخدمة البوسطة في اداء الوظيفة بعض مشقة لكن اذا اخذ المسافر قبل سفره الاحتراسات اللازمة بان اتفق مع بعض اصحابه او خادمه على التوجه للبوسطة في ايام معينة لياخذ الخطابات ان كان هناك امتنعت الصعوبة وكذلك اذا اتفق مع احد من الناس المشهورين وبحرر خطاباته ومجعلها في ظرف ويكتب علي ظهره اسم ذلك الشهير فيكون كالوكيل عنه

فقال الشيخ لم يخطر هذا الامر ببالي ولم اعرف غير ما كنت اعلمه من قبل حين كنت ارسل بعض خطابات لوالدي المرحوم فكنت اذا اردت ارسال خطاب انتظر اليوم او اليومين فلا اجد من ارسله معه وربما اتوجه بالخطاب الى ساحل البحر لأعثر ببعض التجار فلا اجد احداً من اعرفه فارجع ثم اعود واذا صادفت منهم احداً واخذه مني فكثيراً ما يقعد واذا سهل المولى ووصل الخطاب الى والدي لا يأتيني جوابه الا بعد شهر من

نارنج الخطاب واما بهذه الكيفية فقد سهل الامر الا اني لا اعرف احداً من مشاهير مصر لاني مدة اقامتي بالجامع الازهر ما كنت اخرج منه الا الى منزلي بسبب اشتغالي بطلب العلم وكذلك نرة المنزل لا اعرفها لاني ما كنت ارى لمعرفتها لزوماً خصوصاً والمنزل ليس ملكاً لنا فاذن ان الحالة ما حالت والصعوبة ما زالت

فقال الانكليزي لا بأس عليك في ذلك ولا عدم الدهر وجود امثالك خطاباتك ارسلها مع خطاباتي لاحد احبابي بالقاهرة والزمه بتوصيلها الى اهل منزلك واؤكد عليه باخذ المکتوب منهم وارساله الينا فشكره الشيخ ودعاه وانصرف الانكليزي ليقضي اشغاله

---

المسامرة الرابعة عشرة  
المكاتبه

واما الشيخ فاخرج الدواة والقرطاس واعتزل هو وابنه  
بعيدين عن اعين الناس وحرر خطاباً لزوجنه ضمنه نصائح وحقماً  
من فكرته  
وصورته

السيدة المصونة والذرة المكنونة بن لا اصرح باسمها ولا يغرب  
 عن خيالي لطف طبعها ورسمها حضرة فرة العينين وزوجنا  
 ان شاء الله في الدارين . اما بعد بث الاشواق وابلاغ  
 ما اكابد من الم الفراق فنعرفك اتنا بفضل خالق البرية  
 قد وصلنا بالصحة والسلامة الى ثغر الاسكندرية وبمشيئة اللطيف  
 القادر نركب البحر في غد ونسافر صحبة رفيقي وعزيزي حضرة  
 الخواجا الانكليزي قاصدين بلاد الانكليز فلاتهمني بامرنا ولا  
 تشتغلي بغيابنا وسفرنا وخالصة القول بالاختصار والابجاز اتنا  
 في غاية من الاعزاز شاكرون من صاحبنا لزيادة التفاته وموانسته  
 يزيد تفضلاً وازيد شكراً \* فذلك دأبه ابدًا ودأبي

واما ما كان من امر ولدنا برهان الدين فقد اخذ في مبادي  
 اللغة الانكليزية واصول اللغة العربية وان شاء الله ببركة دعاء  
 والديه يتحصل على ما نقر به اعيننا وتشرح له خواطرنا واني  
 لراضٍ عنه لما فيه من الادب والامثال والاجتهاد فما من يوم  
 الا وتظهر عليه بشائر الفلاح وعلامات النجاة والنجاح فנסال الله  
 ان يفقهه في الدين ويمن عليه بحسن اليقين حتى ينفع اهله  
 والمسلمين

واما من قبل ما عندك من الاخوات والاولاد فارجوك ان  
 لا تكتفي عنهم شيئاً من طرق الرشاد وان تكرر عليهم ما جمعناه  
 في كتابنا المؤلف ايام طلبنا الموسوم بالارشاد لتربية الاولاد

ففيه الكفاية والاولى عدم ارسالهم الى الكتاب لتكون تربيتهم في المنزل تحت نظرك وتلاحظي حركاتهم وسكناتهم واخلاقهم فاني اخشى من اخلاطهم بغيرهم من الاطفال ان يتطبعوا بطباع غير مرضية فتضر بهم في كبرهم لانهم الآن في سن التعلم والواجب ان تصان طباعهم مما يخشى عليهم منه فان انتِ اخترتِ لهم محلات من محلات المنزل ونقيته من الاتربة والاوساخ والتهامات ووضعت فيه حصيراً او شيئاً من المفروشات كان اولى من ان يتوجهوا الى الكتاب فتسخ من التراب ملابسهم وتضيق من القعود على البلاط منافسهم ويدب اليهم القمل من كل حدب فيخل بصحتهم وربما نشأ منه داء الجرب خصوصاً ولبعض المؤدبين عوائد قبيحة فلا نعرض اولادنا لها اقلها تكرار شتم الوالدين والاتيان بحكايات كاذبة وعبارات فاسدة يكررونها من اول النهار الى اخره ما دام الطفل عندهم فرما يحفظها فتضر بتصوره وعقله فاني الى الان راسخ في ذهني ما كان مرتبه عليّ مودبي في صغري ان اتى له بشيء من المنزل فكنت اتحايل تحايل اللصوص حتى اخلسه وأتيه به وان امتنعت او اتيت باقل ما طلب توعدني او ضربني وكان احياناً يعاملنا معاملة الخدم فمننا من يخدم الزوجة فيملاء لها الزير ويكس البيت وينفض الحميمير ومننا من يخدمه فهذا يهيئ له غذاه ويفليه وهذا يملاء السبيل ويوضيه وهذا يدق له النشوق وهذا يجمع له النوى من السوق وهذا يجمع القوايح للقهوة وهذا

يكون بيده مفاتيح السهوة وهكذا ولا يخفى ان الطفل لتصر عقله لا يعلم ما فيه مصلحة لنفسه فيميل بطبعه للعب فكنا نحب خدمته اكثر من حبنا للتعلم فكان كثير من الاطفال تمضي عليهم عدة سنين بلا فائدة فان تعلم شيئاً كان ضرره اكثر من نفعه وربما اكتسب في مدة الإقامة اوصافاً ذميمة فتصير له كالطبع ويتعذر على اهله تحويله عنها فيما بعد فتستمر معه بقية عمره فارجوك ان لا تبغني الاولاد الى الكتاب ولا عليك ما يلزم لهم من المصروف فقد غمرني الله بنعمته واجزل عليّ عظيم منته ولا يخفك ان من هم ما يجب على الانسان في ماله ما يصرفه بربية اولاده و فلذ اكباده وانت تعلمين ان اولادنا ثمار قلوبنا وعمد ظهورنا ونحن لهم سماء ظليلة وارض ذليلة فان غضبوا فارضهم وان سألوا فاعطيهم وان لم يسألوا فابتدئهم ولا تنظري اليهم شراً فيلوا حياتك وتمنوا وفاتك وبجسن التربية ينصلح حالهم ويعلو بين الناس شأنهم ولا شك في انك تحبين ان تظهرني نعم الله عليهم فتاتي لهم بما يوافق حالهم من الملبس والمأكل فان فعلت ذلك ورأفت بهم واشركتهم معك في الاقوال والافعال وسلكت بهم طريق التدرج ثبت في ذهنهم ما تلقينه اليهم من القواعد الدينية والالفاظ الادبية وكلما تقدموا في السن قويت قواهم البدنية وحواسهم العقلية فاذا باغوا اشدهم لا يكون للاوهام الفاسدة على عقولهم تأثير فيثبت يقينهم ويصح ايمانهم وبما يتعودونه في الصغر

من الاخلاق المرضية تنعطف نحوهم القلوب وينتشر لهم بين الخلق سيرة حسنة ومن حسن سيرتهم وخلوص نيتهم وسريرتهم يغفرهم الله بنعمته ورضوانه ويدخلهم مع الذين انعم عليهم غرف جنانه واذا اخترت مؤدباً فالاولى ان يكون موصوفاً باوصاف اهل الكمال ذا فقه ووقار وسكينة وجلال وان يكون في فن الحساب كاشفاً عن وجه مخدراته الثقاب وفي فن اللغة والأدب كأنما حفظ لسان العرب وفي العقيدة اشعرياً وفي الاخلاق احنياً وفي علم السير مجراً وفي الحديث كأنما تحت مجراً ولا يلزم ان يقيم معهم طول نهاره بل يكفي ان ياتي لهم في وقت معين والاولى ان يكون بعد وقت افطاره ثم يخرج بعد ان يقسم لهم اليوم نصفين نصف يشتغلون فيه بالمطالعة والمذاكرة والنصف الاخر يلعبون فيه والاولى ان تكون حصة اللعب متخللة بين اوقات التعلم والمذاكرة لئلا يطول عليهم الجلوس فتخمد فكرتهم وتضعف بنيتهم وارجوك منع الضرب مطلقاً وان تسلكي بهم طرق النصيحة والاسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القرينة كان تهدي للمجتهد منهم بعض تحف من ملبس او ماكل او كتب او مصحف ونحو ذلك مما تميل اليه الاطفال على حسب ما يظهر لك من الاحوال فان ذلك باعث لغيرتهم وازدياد رغبتهم اكثر مما يكون بالاذى والضرب فان الضرب يوتر في الاعضاء الظاهرة فقط وبعد برهة من الزمن يزول كأن لم يكن بخلاف ذلك فانه يوتر في الباطن وتبقى لذتها

لمن اغنمها والمها لمن حرمها ما دامت الهدية وايضاً فان الضرب  
بجرك الشهوات الغضبية عند الضارب فلا يقف في ضربه عند  
حد العقاب بل يتعداه لما يخطر في باله من سوابق ذنوب  
المضروب وربما اضربا بعضائهم او ترتب على الخوف والرعب  
البحث عما يخلصهم من يده فيجتجون بكل ما امكنهم من الحجج  
غير تمييزين قبيحها ومليحها حتى ينجوا من يده وربما اجاتهم  
الاحتجاجات والتعللات الى اسباب الدناءة وخسة الطباع فتبقى  
فيهم طول عمرهم وحيث ان مقصود الالباء في تربية اولادهم ليس  
الا اكتساب الشرف فمن الواجب ان لا يعرضوا اولادهم حال  
صغرهم لما يخل بهذا المقصد وان يبخناروا لتربية اولادهم مؤدبين  
موصوفين بالادب والرافة وحسن الفعال حتى لا يصدر عنهم  
الا ما كان حسناً وبسبب ما عندهم من الرافة يعاملون الاطفال  
بما يناسب سنهم فيبتدئون لهم بالكلمات الصغيرة والحكم القصيرة ثم  
منها الى ما فوقها وهكذا فيميلون من انفسهم الى التعلم وحب العلم  
خصوصاً اذا ارشدهم الاستاذ على ما في كل كلمة او حكمة القاها اليهم  
من الفائدة الدقيقة واستعمل في مخاطبتهم الالفاظ الرقيقة فارجوكم  
ان تعلمي بنصحتي وان تخبريني في كل خطاب ترسلينه الي عن  
حال كل منهم ودرجه خصوصاً عن حال اخواتي البنات وقد  
اتفقت مع صاحبا الانكليزي على ان يكتب لصاحبه بمصر باسلام  
ما ترغيبين ارساله من المحطبات وهو يرسله الينا ولا بأس ان

تخبريني بما عندك من اخبار البلاد لان الانسان في غربته يشاق  
الى مستط راسه واصل تربته وفيما سطرته في هذه الدفعة كفاية  
وان شاء الله تعالى اشرح لك جميع ما اراه ويناسب ذكره من  
المحادث وامور البلاد التي تقصدها لتفني على اثارنا وليكون  
عندك علم من اخبارنا

واما ما تعهدينه من اكيد الود وقديم العهد فهو باق لا يغيره  
بعد ولا فراق ولو علمت ما بي من تذكري اياك حال اغترابي لم  
ترفاً لك دمعة ولم تهدهاء لك لوعة

اما وجلال الله لو تذكريني

كذكريك ما كفكفت للعين ادماً

وانت تعلمين ان هذا السفر لم يكن لي ببال ولم يكن له في  
خاطري مجال ولكن ما قدر يكون وكما قدر بالسفر والغياب يقدر  
بالعود والاياب

الناس في طلب المعاش وانما \* بالجد يرزق منهم من يرزق  
فكوفي من الصيانة علي ما اعهد واحفظي ذاك الود والمعهد  
وتذكري ما كان من امر الطائي مع نديم النعمان وما جمعناه اوقات  
المسامرة ولا بأس بتلاوته على الاولاد اوقات المذاكرة واستديمي  
الاحجاب واذا تناولت شيئاً فليكن من وراء حجاب وبلغني الاولاد  
والاخوات اني راض عنهم ما داموا على الاستقامة وقد تركت لك  
عشرين جنياً كل شهر عبارة عن ثمانية وسبعين الف فضة ياتيك

بها وكيل الخوجا في اخر كل شهر كما حرره له بذلك واذا لزم  
 الامر لاكثر فاطليه من الوكيل المذكور على سبيل الاستراض  
 فقد اذن له صاحبنا الخوجا بذلك اغدق الله عليكم خيره الجزيل  
 وردنا اليكم الرد الجميل حرره بنانه وحرره بيانه  
 القدير علم الدين  
 خادم العلم الشريف

المسامرة الخامسة عشرة  
 الملاحه

وختم الجواب وظرفه وعند الصباح توجه الى الخوجا واصله  
 له فاخذه منه ووضعه داخل مظروفه وارسله الى البوسطة ثم  
 توجهوا جميعاً الى مكتب الكومبانية لاخذ تذاكر السفر فاخذ  
 الخوجا للشيخ وولده تذكرتين من الدرجة الاولى اكراماً لها ثم بعد  
 ذلك توجهوا الى اللوكندة واخذوا امتعتهم وانزلوها بعربة وتوجهوا  
 الى ساحل البحر ومن هناك اخذ الخوجا قارباً وساروا الى ان  
 وصلوا المركب فتحولوا اليها واخذ كل منهم في ترتيب امتعته في  
 القمرة المعدة لهم وبينما الشيخ يقرأ آيات التحفظ ويذكر ربه في نفسه

من غير تلفظ وتلو ورد البحر ويترك وإذا بالركب للسير تحرك فتوهم الانكليزي انزعاج الشيخ من ركوب البحر كما كان عند ركوب وابور البرفاني اليه واقبل بعذب الفاظه يسليه وقال يا حضرة الشيخ لا تنزعج ولا يكن في صدرك من ركوب البحر حرج

فقال الشيخ يا حضرة الخواجا ومن كشف عن غامض العلم سياجه ليس الامر كما فهمت وإنما تذكرت الاهل والوطن فهمت اذ لا يخفى عليك يا ذا البصيرة ان في هذا الوقت يتذكر الانسان اولاده وعشيرته واحفاده ويحن الى احبائه ووطنه وملعب اترابه وعطنه ويأسف على مفارقة ما لوفاته وما تعود عليه ايام اول حياته وقد انضم الى ذلك ما خطر ببالي ما يكون اليه عند انتهاء السفر مالي وكيف تكون هناك الاقامة وهل اعود الى وطني بالسلامة فقد قبل من علامات الرشد ان تكون النفس الى بلدها تواقفة وإلى مستط راسها مشتاقفة ولا يخفى عليك ايها الرفيق ما أوصى به نبي الله يوسف الصديق ان يحمل تابوته ليدفن عند ابائه الى ان جاء موسى الكليم فاخرجه من اليم وحمله الى مقام ابائه ودفنه ثم وما ذاك الا لحب الوطن ولكني تناسيت هذه الاوهام وأسيت قلبي من الم هذه الاستقام وتأسيت بما قاله الافاضل الاخيار في مدح التنقلات والاسفار منها قول سيد البدو والحضر . لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لاصبح الناس على ظهر سفر ويقال الحركة وكود والسكون عاقر . وقوله

وما هي إلا بلدة مثل بلدتي \* خيارها ما كان عوناً على دهري  
وقوله وكل بلاد او طتك بلاد

وبغير ذلك مما لو استقصيته ما احصيته

ولما كان الشيخ من العلماء العاملين لم يكن عنده من هذه  
الامور الا مجرد تذكر وخطور واما قلبه فكان في غاية الراحة  
والاطمئنان مستحضراً تغيرات الزمان وتقلبات الحداثان دائماً التذكار  
لقول الله الواحد القهار يقرب الليل والنهار ممثلاً بهجة وسروراً  
متقاداً لمتنقى قوله تعالى كان ذلك في الكتاب مسطوراً

فالتفت حضرته الى الانكليزي وقال له لا يشك عاقل ان  
كل صنعة تدل على صانعها وعظمها يدل على عظمه ومن اعظم  
الادلة على عظم الخالق وقدرته خلق هذا البحر وتسخيره فانظر كيف  
اجراه بقدرته وجعل له مسالك بتدبير حكمته وخلق فيه خلقاً  
متنوعة الاشكال وجعله ممرّاً للجواهر واللالا وخص كل نوع من  
ذلك بمنافع واسكنه فيما شاء من المواضع فسبحانه ما اعظم شأنه  
واظهر برهانه واعظم من هذا البرهان تسخيره كعبه لنوع الانسان  
فانظر كيف هداه الله بعقله الى ان جعل السفينة في هذا الشكل  
العجيب والوضع المحكم الغريب وازاد اليها من تفنناته وبديع  
اختراعاته ما صارت به في ادارته وسارت بارادته وممكنه من العناصر  
حتى صارت طوع يده فترى الريح مع قوتها والبحر مع ميوعته  
والحديد مع صلابته والخشب مع مرونته كل ذلك طوع يده

وارادته يحول كل ما يريد الى ما يريد حتى تجاسر على ركوب البحر وتحصل بسبب ذلك على جل مقصوده آمناً من تقلب امواجه وتشعب افواجه لا يبالي بالعواصف وشدتها ولا بالظلمة وقتتها فقال له الانكليزي . سيدي انه قد مضى على نوع الانسان احتجاب عديدة وازمنة مديدة وهم في انفصال عن بعضهم وعزلة وتوحش وخشونة وقلة لجهلهم بعلم الملاحة فكانت كل امة مقيمة في البقعة التي هي فيها لا تتعدها ولا علم لها بخلق سواها فكان كل محروماً ما عند غيره من المنافع وغاية ما هنالك ان من كان منهم قريباً من السواحل والجزائر انما كان يتفجع بالصيد من الشواطئ واذا انتقل انما ينتقل الى موضع قريب منه ويمتضى ما يشاهد من تجدد الاحوال حسب الاحياج يتعقل ان اول من اشتغل بالملاحة سكان السواحل واقرب ما بعث فكرهم الى ذلك تكرار مرور الاشياء الساقطة من الاشجار على وجه الماء من غيضات تكون بجزائر قريبة منهم فلما راوا الاخشاب تمر على وجه الماء ركبوها وهي على صورتها ثم بعد ذلك صوروها في صورة تقي من البلل بان سطحو جرمها او الصقوا بها غيرها فسارت مع التيار اما لجلب منفعة واما لدفع مضرة كالفرار من عدو طالب او الهجوم على غريم كما هي عوائد الاوائل قبل اتساع دائرة المدينة والعمارة وكما هو دأب القبائل الباقية على الخشونة الى الان بسبب انعزالهم عن المدن واقامتهم وسط الصحاري والبراري المنقطعة والبقاع الشاسعة فلما

علم الانسان منفعتها صار يتفكر في كيفية اتقانها ويدبر في اصلاح شأنها الى ان جعلها في صورة لائقة لتقل بعض الاشياء المعتاد مبادلتها بين عشيرته بان استعملوا رومس مركبة من خشب وبوص كما يصنعه الى الان اهل صعيد مصر والسودان وكثير من بقاع امريكا ويقطعون الاصول الغليظة من الاشجار ويجوفونها ويسافرون فيها او يعملون قوارب صغيرة يكسونها بجلود الحيوانات وربما كان هذا دليلاً على ان الامم السالفة كانت تستعمل هذه الكيفية في حمل اتقالم وعند ارتقالم وعلى انها مضى عليها سنون لا تعرف غير ذلك ولما كثر تردد الخلق على بعضهم وكثرت الفتمم واخلاطهم وظهرت بينهم علايق جديدة اوجبت اتساع دائرة الملاحة اخذت السفن في التقدم وصارت في حجم اكبر من الاول واحكم غير انها كانت لا تسير الاً بالقرب من السواحل لجهل الناس حين ذاك بما يهديم اذا ساروا على سطح البحر ولعدم معرفتهم بمن سكن وسطه او بساحله المقابل لهم ويغلب على ظني ان اتففاع الخلق بالملاحة كان قاصراً على اجياز البلاد الموجودة على السواحل فقط وان الامر بقي على هذا الحال الى ان صار استكشاف حجب المغناطيس وخواصه وعند ذلك امكن الخلق تطبيقه على استعمال خاصة الملاحة باضافة البوصلة اليها ومن هذا الوقت تجاسر الملاحون على مفارقة الشواطئ والتوغل داخل البحور فطافوا جميع بقاع الارض وساروا حيث شاؤوا ولم يكن هذا الامر معلوماً بالبلاد

الاوروباوية الا من القرن الثاني عشر بعد المسيح وان كان معلوماً  
 قبل ذلك في بلاد المشرق عند سكان السواحل الشامية وشواطئ  
 بحر العجم فلم تكن خاصة جذب حجر المغناطيس للحديد خفية عند  
 الامم السالفة وربما كانوا يعلمون الخاصية التي يكتسبها القضيب  
 الصغير من الحديد بعد المغطسة اي بعد مسه لهذا الحجر وهذه  
 الخاصية هي ان لا تتغير اتجاهاته بل يكون دائماً على اتجاه واحد من  
 الشمال الى الجنوب ومن ذلك تعلم جهة الشرق والغرب الا انهم  
 كانوا لا يعلمون خاصية اتجاهه دائماً الى الشمال فطبقوا هذه  
 الخاصية على سير السفن بان رسموا خطين عموديين على قطعة  
 ورق مستديرة وثبتوا القضيب فيها فاهتدوا بذلك الى النقط  
 الاربع من الافق وبقي الامر على ذلك مدة الى ان علمت خاصية  
 اتجاه الابرة الى جهة الشمال دائماً متى كانت متحركة موضوعة فوق  
 مركز في اي نقطة من نقط الكرة وعند ذلك زالت الصعوبة التي  
 كانت تلحق الملاحة وسهل على الملاحين جواز البحار وامنوا من  
 جميع الاهوال ثم اكتفوا عن قطعة الورق المذكورة باتخاذ علبة  
 مملوءة ماء وثبتت القضيب في قطعة من خشب النل تعوم فوق  
 الماء واستعملوها في معرفة الاتجاه لكن بسبب ثقل السفينة على  
 الدوام وعدم وجود الثمام تام للالة كانت الابرة قليلة التوازن  
 ودلائها تقريبية فمن ذلك اشتغل كثير من الامم بتحسين امرها بان  
 جعلوا الابرة متحركة فوق محور راسٍ مثبت في علبة اسطوانية

الشكل وجعلوا فوق الابرة دائرة من ورق مثبتة فوق الابرة  
تتحرك بمجردكها مقسمة الى اقسام متساوية وجعلوا جهتي الشمال  
والجنوب على خط مستقيم مرسوم فوقها والشرق والغرب في نهايتي  
خط عمودي على الاول وعلقوا العلبة في موخر المركب امام عين  
ماموري الدفة ومن ذلك الوقت زالت جميع الصعوبات الاولى  
وانقطع عرق الخوف والاشكال بالكلية وصار الامر على ذلك من  
ابتداء القرن الثالث عشر الى الان لا يعتبره تغيير ولا تبديل  
الا في كيفية تعليق العلبة وتحسين صورتها مما لا يتوقف عليه امر  
الملاحة وليس من ضرورياتها ومن ثم انتظم امر الملاحة والتجارة  
فحسنت بذلك جميع الاحوال وصلاح شأن الناس في الحال والمال  
وحصلت المساعدة الكلية لاحوال الزراعة فاخذت في التقدم نحو  
النمو وكثرة الثروة والرفاهية من ذلك فترتب عليه زيادة التمدن  
والتقدم وبعد اقتصار الخلق على جواز البحيرات والانهر الصغيرة  
والسفر في البقاع القريبة جازوا المحيط نفسه فانكشف لهم الغطاء  
عن جزائر وسواحل معمورة بام شتى عارين عن التمدن واسبابه  
فحاربوهم ووضعوا اليد عليهم وادخلوهم بالقهر تحت طاعتهم  
واستخذوا على ارضهم واستعملوهم في خدمتها لنفعهم ونفع بلادهم  
لا لنفع اهلها فزادت بذلك شهرتهم وقويت سطوتهم على  
من جاورهم ولما راي الغير اتساع دائرة عيشتهم رغب  
في السير على اثارهم وهكذا . فكان هذا هو اول باعث لاهل

اوروبا على الاستجواز على غالب بقاع الامريكا وسواحل افريقيا  
 وعدة بقاع من اسيا وعلى جميع جزائر المحيط الاطلنطيقي والمحيط  
 الجنوبي والمحيط الهندي حتى صارت بقعة اوروبا اغنى البقاع  
 واكثرها ثروة وصارت ملوكهم اعظم من غيرهم شهرة وسطوة وما  
 ذاك الا بسبب الملاحة لانها فتحت لهم ابواب الرزق وزادت في  
 اسبابه وطرقه ولو ان في كل بقعة حكاما يتصرفون فيها ويحكمون  
 على اهلها الا انهم هم ورعاياهم تحت تصرف ملوك اوروبا بسبب  
 عظم قوتهم البحرية واتساع دائرة علومهم السياسية الاخذة في  
 الازدياد والتقدم بسبب حيازتهم لكل ما يروونه من الصنائع  
 واغداقهم على من دونهم باصناف البضائع ولم يفتروا عن هذا  
 السير مجال من الاحوال بل هم ملازمون له ساعون بكليتهم  
 في ازدياده فكان تأثيرهم على بقاع المعمورة عاما

فقال له الشيخ قد فهمت ما افدتني ان الانسان بعقله هو  
 الذي شكل السفينة من صورة الى صورة متبعا في ذلك السير  
 الطبيعي من غير تكلف وانه كلما كثرت احتياجاته اتسعت افكاره  
 وازدادت رغبته في التامل حتى وصل الى معرفة سير السفينة  
 باليوصلة في جميع البحار صغيرة او كبيرة فاستكشف الاراضي  
 المجهولة وسكانها واستفاد من اعمالهم وعلومهم ما زاد في درجة تقدم  
 اهل ملته ولكن اري ان الآلة المغناطيسية غير كافية لضبط سير  
 السفن حسب الحاجة فاتهم اذا ارادوا ان ينتقلوا من بلد الى بلد

يلزمهم الانحراف اليها والمخرج عن المخطوط التي توجب تلك  
الآلة المشي عليها فكيف اهداؤهم لذلك  
فقال له الانكليزي ان البوصلة بمفردها غير كافية لانها لا  
تعين الا اتجاه احدى النقط الاصلية فقط ولا تدل اصلاً على الاتجاه  
اللازم للوصول لنقطة محددة الا بمساعد وقد عرف ذلك جميع  
الملاحين في القرون الماضية لكنهم اقتصروا على هذا واستعانوا  
عليه بما استفادوه من التجارب والاسفار فكانوا يهتدون بذلك  
للوصول الى ما يقصدون من البقاع كما يفعل الآن الملاحون  
في الانهر والحلجان في بعض جهات من اقسام الدنيا وكما يفعل  
ملاحو النيل فانهم يسبرون فيه من غير بوصلة بالاتباع لبعض  
علامات في البرور والجزائر وكما يفعل ملاحو العرب القاطنة في  
شاطئ البحر الاحمر والصيدون في بعض البحائر المتسعة وكانت  
علماء الجغرافية والفلكيون في القرن الخامس عشر من تاريخ  
المنسج غير واقفين وقوفاً تاماً على جنس خط سير السفينة فكانوا  
يزعمون ان الخط الذي ترسمه السفينة بين تقنطين بعقديتين  
عن بعضها هو قوس دائرة عظيمة ثم ظهر لهم امور لم يمكنهم التعبير  
عنها . مثلاً رأوا ان السفينة في سيرها في اتجاه واخذ وميل واخذ  
لا ترسم دائرة عظمى على الكرة بل ترسم احدى الموازيات فعند  
ذلك اشتغلت العلماء بجلها وتطبيق الحسابات عليها فظهر لهم ان  
خط سير السفينة لا يكون دائرة عظمى الا في حالة ما اذا كانت

متجهة نحو الشمال دائماً او نحو الجنوب دائماً واما اذا كانت متجهة نحو الشمال والغرب مثلاً فالجزء الاول من خط السير يكون جزءاً من دائرة عظمى ميله في نقطة المبدأ من الخط الجانبي خمسة واربعون درجة ثم بعد ذلك يتغير ويقطع الخطوط الجانبية الاخرى في ميول مختلفة تكبر بالتدرج الى ان تكون تسعين درجة فلو تبعت السفينة في السير خط ميل ثابت بالنسبة لجميع الخطوط الجانبية لرسمت على الكرة خطاً حلزونياً وبعد عدة دورات تصل الى قطب النصف الذي ابتدأت السير منه ومن ذلك رآوا ان السفينة تقطع في سيرها على خط ثابت الميل مسافة تزيد وتقص عن طول قوس الدائرة تبعاً لعرض البلاد ويكون الخط كبيراً كلما كان فرق عرض تقطعي المبدأ والنهاية كبيراً فبناءً على ذلك ظهر لاهل ذاك الوقت انه يلزم تغيير الميل لمن يرغب في اتباع قوس دائرة عظيمة وحينئذ فلا بد من معرفته ويكون ذلك بطرق بسيطة حتى يكون سهل التناول للملاحين وبسبب ما فيه من الفائدة والاهمية اشتغلت بحل مسألته العلماء الافاضل فمنهم من وضع لمعرفة طرقاً حسابية وجداول مخصوصة للاقتداء بها ومنهم من حوّل المسألة الى طرق رسمية فتعددت من ذلك طرق الاشتغال وجال فيها الفكر فظهر من ذلك الخرط التي ويستعملها الملاحون ولا يمكنهم الاستغناء عنها لما لهم فيها من المنافع والفوائد النامة فانه يكفي ان يرسم عليها الخط المار

بالتقطين المفروضتين وبواسطة البوصلة تسير على ميله بالنسبة  
 للخطوط الجانبية فيصل الى الغرض المطلوب اذا لم يكن هناك  
 موانع تعرض لها في اثناء سيرها فتعطلها مثل الصخور والاهوية  
 غير الموافقة والمياه القليلة وغير ذلك فمن هذا نشاء لاجل التلخص  
 من خطر تلك الموانع مسألة معرفة الموضع الذي تكون فيه  
 السفينة في اي وقت من الليل والنهار بالنسبة لاي البحار  
 واول شيء خطر بالبال معرفة قدر سرعة السفينة في زمن  
 معين لانه متى علم استدل منه على المسافة الكلية من وقت التيام  
 ومن ثم يعلم محل السفينة بعد مدة من سيرها بالتقريب فاشتغل  
 بهذه المسألة علماء الفن واخترعوا الآلة البسيطة المستعملة الى  
 الان وهي عبارة عن حبل مقسم الى عدة اقسام متساوية منسوبة  
 للميل في طرفه قطعة من خشب مثلثة الشكل مثقلة في قاعدتها  
 بالرصاص فمتى رغب قبطان السفينة قياس السرعة القاء في  
 البحر فتغيب الخشبة راسية في الماء والحبل يكرّر من على مغزله  
 مدة كالدقيقة فيكون مقدار الحبل في البحر عين سرعة المركب  
 ولما لم يكن ذلك شافياً اضطر الملاحون الى معرفة الخط الجانبي  
 والخط الموازي التابعين لها في السير حتى نتعين لهم نقطة التقطع  
 وهي النقطة التي تكون فيها السفينة وبناءً عليه نتج مسألة تعيين  
 العرض والطول فاشتغل بجلها العلماء كما اشتغلوا بغيرها وظهر  
 لهم من بحثهم ان مسألة العرض لا صعوبة فيها لانهم شاهدوا ان

القطب يكون منطبقاً على الافق متى كان الراصد فوق دائرة  
 الاستواء ومتى اتجه الى الشمال ارتفع القطب فوق الافق بقدر  
 بعد الراصد عن دائرة الاستواء وبناءً عليه فعرض اي نقطة هو  
 ارتفاع القطب فوق الافق واهل وقتنا هذا تابعون للسالفين  
 ومخذون النجمة الاولى من الدب الاصغر دليلاً على القطب  
 فيبتدون به لكن لما كانت هذه النجمة في كثير من الليالي  
 مطموسة ومغبية في السحاب غير ظاهرة وفي كثير من البقاع  
 يكون الجو غير صاف فيصعب العمل حين ذاك رغبوا في  
 معرفة العرض من رصد الشمس لانها تكون دائماً ظاهرة تمام  
 اليوم او بعضه ولذا اقتضى الحال معرفة بعدها عن القطب وقت  
 الزوال وبسبب تغير هذا البعد في جميع اوقات السنة حرره  
 اهل العلم في جداول مضبوطة يراجعها الملاحون في اعمال  
 الملاحة وحسابها ووضعوا آلة مركبة من مسطرتين عموديتين  
 على بعضها لقياس ارتفاع الشمس فكان الملاح يضع نقطة تقاطع  
 المسطرتين على ارتفاع البصر ثم يرصد افق البحر بالمسطرة الافقية  
 ويجعل الشمس خلفه ويقدم او يؤخر المسطرة الراسية الى ان  
 ينطبق ظل نهايتها على نقطة معينة من المسطرة الافقية وبحسبون  
 الارتفاع على مقتضى ذلك كما كانت المصريون في الازمان  
 السابقة تعين ارتفاع الشمس بواسطة المسلات التي نراها الى الان  
 قائمة امام الهياكل والمعابد وفيما بعد صار تحسين هذه الآلة

واستعواضها بدائرة مقسمة الى اقسام متساوية وعليها مسطرة تحمل  
عضادة بها ثقب صغير فتمت<sup>١</sup> أريد استعمالها علمت الدائرة في السفينة  
وجعل مستويها في مستوي الشمس ثم تحرك المسطرة الى ان تمر  
اشعة الشمس بالثقب فيظهر على المحيط الدرجة الدالة على  
الارتفاع المطلوب وبهذه الآلة توصلوا الى الآلة المستعملة الآن  
المعروفة بالاكتان عند الملاحين بادخال ما استفيد من قواعد  
العلم من التحسينات في تركيبها فصارت مستوفية لجميع شروط  
السهولة والضبط فبناءً على ما مر يظهر لحضرتكم ان الانسان قد  
اكتسب علم الملاحة وضبط سير السفن في البحار بالتدرج فان  
الاصل في ذلك كله شجرة القاهما الريح في التيار فحرت معه فنظر  
اليها احد المخلوقات فاستعملها كما هي فراه غيره فقلده واستعملها  
بكيفية احسن من الاولى وهكذا على حسب الاحوال والضرورات  
البشرية وما زالت تنتقل من حالة الى احسن منها حتى  
تم حسنها وعظمت دائرة اهميتها واعنى بها المخلق فوصلت الى  
الحالة التي نراها عليها الان ولا شك ان كل صورة من هذه  
الصور اشتغلت بها الافكار مدة واطهرت فيها تغييراً فاخترعت  
صورة احسن من الاولى ووقعت موقعها فاذا رأوا في الثانية عيباً  
اجتهدوا في ازالته بقواعد علمية واخترعات عملية حتى اجتمع من  
ذلك علوم شتى منها ما هو متعلق برسم السفن وشكلها ومتانتها  
ومنها ما هو متعلق بسيرها وسرعتها ومنها ما هو متعلق بتحرير

اتجاهها وسلامتها حتى صار علم الملاحة علماً نفيساً فانظر كيف  
امكن الانسان بقوة فكره وغزارة عقله ان يتقل من حالة الى  
حالة ومن فكرة الى فكرة حتى وصل الى ما تراه في شان السفن  
وعلم الملاحة أفلا يكون هذا دليلاً كافياً على ان تقدم جميع الفنون  
والصنائع جار على هذا النمط وان الاصل في ذلك كله ضرورات  
الانسان واحياجاته وميله لحب الانتفاع والوقاية الشخصية وقد  
امتد بينها القال والقال في هذا المعنى ونحوه من هذا القبيل  
فاحب الشيخ ان يتبع الخبر بالنظر ويشاهد اماكن السفينة بالبصر  
لئلا يكون فيما سمعه مقلداً ومتبعاً اذ ليس من رأى كمن سمع  
فاجابه الانكليزي الى ما طلب وقام معه الى قمره القبودان ليريه  
ما احب وكلمه بلغته وعرفه بمقصود الشيخ ورغبته فامر احد الضباط  
ان يكون لحضرة الشيخ اوفق مرافق وان يوقفه على كل ما اشتملت  
عليه السفينة فسار معه وراه فوق ما كان سمعه واطلعه على  
الات السفينة واحدة واحدة ولم يترك منها شاذة ولا شاردة مبتدئاً  
من مؤخر المركب الى مقدمه مبيناً له فوائد كل واحدة باسمها  
وبين له اقسام السفينة وما لبضائع التجار وما للمسافرين وما  
للمستخدمين بها وما للمطبخ وما للاكل ونحو ذلك ولم يذر محلاً  
في المركب الا اطلعه عليه واخبره بمنفعته فشكر الشيخ على صنيعه  
واثنى على القبودان الكبير ثم استاذن ودخل قمرته وادى ما يجب  
عليه من العبادة الموقته وكان قد حان وقت الاكل فاحب ان

ياكل في قمرته فاجابوه ولتعظيم صاحبه وحق رعايته كان كل من  
بالسفينة مبادراً لكرامته واستمروا على ذلك طول السفر حتى  
وصلوا جميعاً بالسلامة الى البر

### المسامرة السادسة عشرة التعلم والتعليم

ولعلم حضرة الشيخ بان من عرف لغتين وان كان في الصورة  
واحداً فهو في معنى اثنين ولما عرفه من حث النبي صلى الله عليه  
وسلم على تعلم الالسنه بقوله من تعلم لسان قوم أمن من مكرهم ولما  
رواه في الحكايات من ان رجلاً حجازياً سافر الى اليمن مرة ودخل  
مدينة ظفار وبلغ خبره ملكها فلما حضر عنده باعلى قصره قال له  
الملك تب يامرہ بالجلوس بلغة حمير ففهم الحجازي انه يامرہ بالطيرة  
كما هو بلغة الحجاز فقام الحجازي وقال ليعلم الملك اني سامع مطيع  
وطرفاتي نفسي من اعلى القصر فقال الملك ما بال هذا قبيل له  
ان الوثب في لغته ما فعله فقال الملك من ظفر حمير يريد من  
دخل ظفار وجب ان يتعرف لغة خبير فاستفاد من هذا ان من  
دخل اي بلد لزمه ان يتعلم لسان اهلها فلهذا كان كل يوم بعد

ان يطالع في كتبه ياخذ هو وولده في اللغة الانكليزية على صاحبه  
دروساً وبسبب اجتهادها في التعلم قدرا في زمان يسير على التكلم  
فيها

واخذ الانكليزي بحسن له التعلم ويرشده الى كيفيته ويشجعه  
عليه بقوله ان من موجبات التقدم في اللغات اموراً منها الحفظ  
والتطبيق بالممارسة والمخاطبة فان جمعت كل يوم بين هذين ثبت  
بذهنك كل ما حفظته واعدت النطق به وفي قليل من الزمن  
تصل الى معرفة الكثير ومنها ترتيب المطالعة في الكتب بان يتداء  
اولاً بالكتب المؤلفة لتعليم الاطفال لحفة الفاظها وعباراتها ثم بما  
فوقها وهكذا. وكيفية التعلم كما لا يخفى على حضرتكم ان يتدبّر  
اولاً بمطالعة الدرس ويتف على كيفية النطق بالفاظه ثم يكرره  
الى ان يثبت في ذهنه ويستمر على ذلك حتى يكون عنده محصول  
من الكلام ثم يبحث عن قواعد تصريف الافعال وامثلتها ثم ينظر  
لمثال كل قاعدة ويمثل من نفسه امثلة ويطبق كل مثال على  
قاعده ولا يكفي في ذلك مجرد التلفظ بل لا بد ان يثبت ذلك  
في كتاب صغير الحجم ليسهل عليه استصحابه فيطلع عليه اي وقت  
اراد ثم اذا تقدم في اللغة يلزمه حفظ كثير من الاشعار ونوادير الاداب  
لما فيها من مزيد الثبات بخلاف العبارات السائرة والاولى ان  
يختار من كتب الاشعار ما تلتذ منه النفس ويميل اليه الطبع وان  
يجنب ما فيه تعقيد او صعوبة الى ان يحسن النطق والتكلم باللغة

واني وان لم استوف هنا غرضي لكلي آتيك بكتاب فيه كفاية لهذا  
الغرض فان اتبعته وسرت على مارسمته لك فلا يمضي عليك قليل  
من الزمن الاّ وقد تكلمت باللغة الانكليزية وبمشيئة الرحمن عند  
العود تجد ان لا فرق بيني وبينك في التكلم فشكره الشيخ على نصيحه  
وعمل بمقتضى وصيته واخذ هو وولده الكتاب منه وصارا يتلثيان  
كل كلمة في الكتاب عنه وحذا الولد حذو الوالد فكانا لبعضهما  
نعم المساعد والمساعد وصارا ما بين سائل ومسؤل الى ان نالوا  
من تلك الجهات الوصول وقد قسموا اليوم اقساماً بعضها للفسحة  
في ظهر المركب وبعضها للاكل وبعضها للحفظ والباقي للمحادثة  
والمذاكرة والاجتهاد صاحبه الانكليزي في تسهيل امر السفر عليه  
كان لا يفارقه الاّ عند الضرورة وكان لا يخاطبه الاّ بكلام  
يطيب به خاطره وتشرح منه ضمائر محافظاً على مرضيه آتياً بكل  
ما يحبه ويرغب فيه وبذلك تاكدت بين الشيخ وبينه الالفة  
وارتفعت من بينهما اسباب الكلفة فينبأها في بعض الاوقات  
يتحادثان ولاحوال طوائف الناس يتواصفان اذ جرى ذكر الصنائع  
والحرف وقدر تفاوت السلف فيها والحلف وما آلت اليه من  
الاتقان وتم لاربابها من الاحكام والاحسان

وطال بينهما الكلام في وصف محاسن الايام فكان ذلك  
داعياً للانكليزي ان قال يا حضرة الشيخ ان ولدك الان قد بلغ  
اشده وحصل من العلوم العربية طرقاً صالحاً وهو يحتاج الى تعلم

صناعة تكون له في المستقبل عوناً على حسن معيشته فما اضمرت  
على تعلمه من الصنائع فقال الشيخ احب ان يتقن اللغة العربية  
ويتم قراءة الكتب الادبية فاذا وصل التمام وبلغ من ذلك المراد  
تفكرت فيما يحسن حاله ويبلغ به ان شاء الله اماله بحيث لا يخرج  
عن الوظائف العلمية ولا يشتغل عن الاعمال الدينية سيما وهو  
بمعاونة حضرتهم أخذ في تعلم لغتكم فاذا تم له اتقان اللغتين كانت  
له خير صنعتين وبأيتها يكون اكتسابه ما يكفيه غير خارج عن  
حرفة جده وابيه

فقال له الانكليزي كانك تقول ان ولدك اما ان يصير اماماً  
او خطيباً في جامع او ترجماً او نائب قاض في بعض المواضع وعلى  
كل فما يرد من هذه الوظائف لا يقوم ببعض الكفاية فضلاً عن  
كونه يستمر في اسر غيره فينسبونه الى التصير في اداء وظيفته او  
الجهل بما يلزم لها او عدم معرفته باداء المقصود والذي اذكره  
لحضرتهم ان الوظائف درجات منها الشريف والذني والاعلى  
والعلي وانك الان مخير بين ما يكون به ولدك رئيساً واميراً وبين  
ما يجعله تابعاً لغيره واسيراً ولكن محبة الوالدين لاولادهم لا ترغب  
الا فيما فيه زيادة شرفهم فيجب عليك ان تجمل الفكر وتدقق النظر  
حتى تعرف الصنعة التي يزيد بها شرفه فقد قيل في الامثال  
الناس لصاحب المال الزم من الشعاع للشمس وهو عندهم اعذب  
من الماء وارفع من السماء واحلى من الشهد واذكي من الورد

## ما الناس إلا مع الدنيا وصاحبها

فكلما انقلبت يوماً به انقلبوا

فقال له الشيخ انه لا يكون وراء ما ذكر الأَصْناع ووظائف  
 تقوم ليسوا من حرفتنا ولا طائفتنا وعشيرتنا كالمهندسة والحكمة  
 والمجندية ونحو ذلك من الصنائع الدنيوية فهل تظن ان نعلمه  
 صنعة من هذه الصنائع ونخرجه عن طريقة اهله واجداده مع اني  
 سمعت من ابي عن جدي ان عائلتنا شريفة ثم وجدت في امتعة  
 والذي رحمه الله بعد وفاته نسبة الشرف فلم اجد فيها احداً من  
 اجدادي احترف بحرفة من الحرف او خرج من وطنه بل تبتعتها  
 فوجدت ان كل من نبغ منهم اتبع طريقة سلفه وقنع بما ساقه الله  
 اليه من الرزق قليلاً كان او كثيراً ووجدت في النسبة لكل  
 منهم مناقب ومزايا تدل على زهده وورعه وقد رأيت فيها من جملة  
 ما اوصى به بعض اجدادي من يأتي بعده من اولاده اعلموا ان  
 الدنيا مثل ظل احدكم ان طلبتموه فرَّ وسبقكم وان تركتموه تبعكم  
 كما قيل

مثل الرزق الذي تطلبه \* مثل الظل الذي يمشي معك  
 انت لا تدركه متبعاً \* فاذا وليت عنه تبعك  
 الخير كله في بيت واحد ومفتاحه الزهد في الدنيا . والشركه  
 في بيت واحد ومفتاحه حب الدنيا

وقد قضى عليّ الرحمن من دونهم بالغربة ومفارقة الوطن

ولا حيلة فيما قضاه واحده واشكره على ما منَّ به عليّ من صحبتكم ولا يخفى على جنابكم ان الناس بالستهم ليسوا غافلين عن بعضهم فربما يقع الانسان في شباكم فيسقط من اعينهم وينقص قدره فيما بينهم فان اخرجت ولدي عن طريقي وعمّا كان عليه اجداده قبله اخذلخوا عليّ اقوالاً تزري وعبارات ربما تخل بامري ولا اقلّ من ان يقولوا باع الدين بالدنيا

فقال له الانكليزي ليس الفضل خاصاً بطائفة من الناس دون طائفة ولا باهل حرفة دون حرفة بل الفضل صفة تقوم بالانسان على قدر ما يحوز من العلم والادب فكما تكون في الفقهاء تكون في المهندسين والحكماء وكما تكون في التجار واهل البضائع تكون في احاد الخلق من الفلاحين واهل الصناعات فليس الانسان باصله وحسبه بل بكال عقله وحسن ادبه فكم من امرء مقطوع النسب وصل بأدبه الى اعلى المناصب والرتب وكم من ذي نسب واصل هوى به جهله الى درك الهوان والذل وكم من حقير ازال بكال عقله دناسة اهله واصله وهل يليق بالعاقل ان يلتفت لاهوام الناس وابطالهم ويؤثره على ما رآه عقله حسناً وصواباً وهل يقتدي البصير بالضرير او هل يستوي الاعمى والبصير هل تستوي الظلمات والنور واي نقص يعتري الانسان اذا كان ذا علم وله صنعة يعرف بها فلا يخل بشرف الاصل ان يتقاد الانسان رتبة كالجندية وعلم الحكمة والهندسة بل هذه العلوم ونحوها مرغّب

ففيها في كتاب الله وسنة نبيه وقد اتفق العلماء والعقلاء من كل  
ملة على ان قدر كل انسان وقيمه بقدر علمه وعمله وعلى حسب ما  
اكتسبه فماذا يضر لو علم الانسان بلسان قومه وقواعده وعلم دينه  
ومذهب بلده حتى يكون على بصيرة في ادارة اموره وتقوية برهانه  
وضم الى ذلك السنة ملل اخرى واتقنها لتجذب اليه قلوب  
الاغراب فيضيف معلوماتهم الى معلوماته لتزداد رغبة اهله فيه  
وعلم مع ذلك تاريخ بلاده وضم الى ذلك تاريخ بلاد غيره واحوالها  
اذ بذلك يكون على بصيرة من الروابط المؤلفة بين الملل وبعضها  
والاسباب التي توجب النزاع والوفاق بينهم وضم الى ذلك علم  
الجغرافيا والنباتات والحيوانات والحجرات والهندسة والفلك وجر  
الاتقال وهكذا فتتسع دائرة معلوماته ويقف على النواميس الابدية  
المؤثرة في الموجودات وكيفية التأثير فيها فتتسع بصيرته وتعلو  
بذلك بين البرية شهرته فان تعلم الطب وقف على اسباب الامراض  
وكيفية علاجها ووظائف الاعضاء الظاهرة والباطنة وارتباطها  
بالقوى الباطنة وعرف قدرة الباري المصور لها فيعظم شان ربه  
وخالفه ولا يلزم ان يتجرب بل يكفي ان يعرف من كل فن ما ينبغي  
معرفته على كل ذي فطنة من الخلق حتى لا يكون على جهل منها  
فيزداد بذلك قدره في كل مجلس من مجالس اهله ويعلو قدره  
بين الامراء وتجذب اليه قلوب اصحاب الحاجات والمخاضات  
لعلمهم انه يهديهم الى الرأي الصواب ولا اري لولدك الامرين

فاختر ايها احب اليك من غير حكم عليك . احدها ادخاله  
 باحدى المدارس الميرية والاخر ابقاؤه باحدى مدارس لوندرة  
 ليتربي فيها كما تربي اولادنا فان اخترت منها واحدة برئت من  
 واجب تربيته لانك ان ابقيته معك فاست بضامن لنفسك  
 البقاء حتى نتم تربيته واذا اراد لك المولى باقتضاء الاجل والموت  
 قبل ذلك فكيف يكون امره ومن يكون كفيله وهو مجرد عن  
 العلم واتجاه افلا تكون مسئولا عن هذا الاهمال وهل كان حبك  
 له الا سببا لوقوعه في اسواء الاحوال واشتق الاعمال وان سلمته  
 لاحد المودبين فلا تدري هل هو كفو تربيته ام لا والاعتبار  
 بالظاهر لا يكون دليلا على الباطن فربما كان عالما لكنه سيء  
 الخلق فيسري طبعه الى ولدك فيكون ضرره اكثر من نفعه وعلى  
 اي حال فالمؤدبون غالبا لا يسلكون طريقة مستقيمة متقنا على  
 صحة نتيجتها بل طرقهم مختلفة بحسب نيتهم وليس لنا حاجة لمعرفة  
 اسباب اخلافها ان كان لتصد نفع التلامذة او نفعهم او للافتخار  
 او لظهار الاجتهاد لاجل زيادة الاجرة بخلاف المدارس الميرية  
 فانها لم تكن تابعة لشهوة اجد وما نتج منها موجب للاذعان بصحتها  
 ولزوم اتباعها فان طريقتها هي الجارية عند جميع الملل المتهدنة  
 وسلكها جميع العقلاء فمنها اصول الضبط والربط الذي يجب  
 على كل عاقل ملاحظته والتمسك به من ابتداء شبيبته والاستمرار  
 عليه بين ابناؤه عشيرته حتى يدخل في ميدان الاعمال بينهم ولا

يوجد له ذلك وهو بمنزل اهله فان شفقة الاهل تودي الى اهاله  
 والتغافل عن هوائه ولعبه فربما كانت هذه الشفقة سبباً في فساد  
 خصاله التي قصدت اهله ان تجرده عنها بالتربية ولو فرض  
 وخصص له مودب في منزل اهله فاشتغلهم بامورهم المنزلية  
 والدنيوية يلهم عما يفعله كل منها ويدفع اهله الاجرة يظنون  
 حصول المقصود واي حجة اخرج بها الطفل وتعلل يقبلونها منه  
 سواء كانت صحيحة او غير صحيحة فتمنع المودب عن تاديبه والطفل  
 عن الاشتغال بما فيه نفعه ومن المعلوم بالبداهة في شان العائلات  
 ان الاء يخفي عليهم عيوب اولادهم حتى ان الامهات لزيادة  
 شفقتهم على اولادهم قد يرين ان اولادهم يعلمون زيادة عما  
 يلزم وكذلك الخدم تخفي على سادتهم ما تعلم من عيوب اولاد  
 سيدهم كالحيانة وقلة الادب وعدم الالتفات وكثرة اللعب  
 واصحاب البيوت على اختلاف درجاتهم في الثروة لا يخجلون من  
 تردد المناققين والمتملقين على منازلهم فتسري طباعهم الى ذريتهم  
 فيتعلمون من اخلاقهم وطباعهم ما يزري بهم فاذا بقي الطفل في  
 المنزل بين ابيه وامه مقيداً مع المودب طول يومه فربما يسأم فلا  
 يتعلم او يسأم المودب فلا يعلم ولطول مدة الملازمة عليهما قد  
 تنشأ الكراهة بينهما ويضيع الزمن بخلاف المدارس العامة فلا  
 يوجد فيها شيء مما ذكر بل تكون الاطفال فيها محفوظة من جميع  
 هذه العوارض وتذب فيهم الغيرة من بعضهم في حفظ ما يلقي

اليهم من اسانذتهم لتوهم المحرمان من درجة التمييز او العقاب او الحجز عن الاهل والاقارب والمنع من روية التملكين من الاحباب الذين يترددون على المنازل فيرتدع الطفل ويزيد ميله وجهه لما فيه خيره له وتجري بينهم محاورات ومجادلات فيما يلقي اليهم فيكون الحق مع احدهم تارة ومع غيره اخرى وهكذا. كل يوم فتقوى عندهم اسباب النشاط والاجتهاد ويتنافسون في موجبات التقدم والرشاد وبسبب تنوع الفنون لا يلحظهم ملل ولا يعنبرهم من كثرة العمل فتور ولا كسل بل قد يتلذذ الطفل من الانتقال من الاعمال الجسمانية الى الاعمال العقلية فتنمو قواه البدنية والروحانية وترسم في فكرته اخلاق اسانذته فيعتادها ولكون الاسانذة متخيين من احسن المرين لا يقع منهم ما يخل بشان التعليم وان فرض كان نادراً فيكتسب الطفل في زمن قريب محاسن الاخلاق واخلاق الرجال وتساوي الجميع في الهيئة الظاهرة وطرق التعلم والتعليم فتأكد بينهم الاخوة ويعطف بعضهم على بعض بما ينسون به رافة الامومة والابوة وبالتدرج ينزل ولد العظيم عن تعاضه بعظمة اهله ويرتفع ولد الفقير بادابه ومفضله فهل ترى طريقاً احسن من هذا وان لم تتبعه فماذا

فقال الشيخ ان شفقة الوالدين بولدهما موجب مشقة اقامته بغير بلدها وان كنت اعلم ان بقائه للتعلم في بلاد الانكليز مما يؤول به ان وفق الله الى غاية التكرم والتعزير ولكن استغبر الله

وادخله اذا عدنا المدارس لاكون ملاحظاً احواله ومراقباً اعماله  
مربحاً بذلك خاطري وخاطر امه واما الصنعة فلست ادري ما  
يليق به على نخافة جسمه

فقال الانكليزي الا صوب ان نسأل الغلام فانه اطلع على  
كثير من الاشياء فلعابه وقع استحسانه على بعض الصنائع ومال  
طبعه اليها وهو يتنى ان يكون من اهلها المنتفعين بها والحياء يمنعه  
من اخبارك بما كمن في نفسه فاستحسن الشيخ ذلك واحضر ابنه  
واخبره بما دار بينهما في امره وانها وقفا الحزم في ذلك على استطلاع  
امره واستكشاف سره

وقال له يابني قد عرفت الوظائف الشرعية والسياسية  
واطلعت على صنائع طوائف الناس العلية منها والدنية فهل  
تجد في نفسك الميل الى بعض الصنائع وتحيل افكارك فيما لاحداها  
من المنافع فاني مسيرك الى ما فيه ترغب ومساعدك على كل ما  
مال اليه قلبك

فقال الولد اني طوع امرك فلا ارضى الا ما ترضاه ولا ارى  
خلاف ما تراه ولحدائة سني انت ادري بما فيه صلاح لشأني  
مني وشفتك علي كافلة بما يعود نفعه الي فان اتقتنا على صنعة  
اقمت بها

فقال الانكليزي ان ما قلته دليل على حسن عقلك وكمال  
ادبك وفضلك لكن مرادنا ان نخبرنا بما يميل اليه قلبك

لانه لا بد انك شاهدت اموراً اثرت عليك تاثيرات مختلفة  
منها ما جذب قلبك فرغبتة ومنها ما نفر منه طبعك فكرهته فلا  
تكنم عنا ما سنع بفكرك واطهر لنا ما كمن في شرك . فالتفت الولد  
نحو ابيه واراد ان يصرح بما كان يخفيه

فقال اني مذ عقلت لم اجد امثلي من طريقتك ولا تمنيت  
ان اكون على غير خيلقتك لاهياً عن جميع الحرف موقناً ان ليس  
لحرفة ما لحرفتنا من الشرف وبقيت على ذلك برهة لا تعترضني  
فيه حجة ولا شبهة حتى رأيتك في بعض الاوقات تشكو شدائد  
الايام متضجراً من ضيق المعيشة والعجز عما تحصل به لعمالك  
بعض المرام فاستشعرت ان سأصير الى ما اليه صرت وان سوف  
اكبر مثل ما كبرت وربما خلفت كما خلفت وتكلفت جميع ما  
تكلفت فاخذت حينئذ اتفكر في جهات الاكتمال وما يكون  
لحسن المعيشة احسن الاسباب فوجدتها دائرة بين الامارة والتجارة  
والزراعة والصناعة وما لاحداها سبيل وهي دون المساعدة عسيرة  
التحصيل فطقت انظر محاسن الحرف ومعايبها واعد مثالب  
اهلها ومنافبها فما رأيت لحرفتنا مثلاً ولا تصورت كاهلها اهلاً  
فانها النيابة عن الرسول في تربية العقول واهلها حفظة الدين  
ومعادن العرفان واليقين واكثر من نراهم على تلك الحالة  
عادلين عن سبيل الهداية الى طرق الضلالة حتى استتر الحق  
بالباطل وبذلك صارت حرفتنا ابعد الحرف عن الثراء وانفعا

لصاحبها الى مكابدة العناء ولبعضهم مساع مزرية لا تليق باهل  
 الثروة والعافية كقراءة الخنثات في البيوت بالاجرة وهي ان اجازها  
 امام فقد حرمها امام وكقراءة بعض الاصحاء الاقوياء على المقابر  
 مع كونها لا تليق الا بالضعفة العجزة الجهلة الذين حفظوا بعض  
 القراءة فلم تكن لهم قدرة على ما ينفع الناس الا من هذا الطريق  
 كما قال علي بن الرومي من تقدم بهم الزمان بهجو طبييا  
 افنى واعى ذا الطبيب بطبه

ويكفله الاحياء والبصراء

فاذا نظرت وجدت من عبيائه

اهما على امواته قراء

وارى بين اصحاب الوظائف المديرية رتبا عالية ولها مراتب  
 كافية وافية وليس فيها ما يذم فان جميع تلك الوظائف منوطة  
 بخدمة الاهالي واعانتهم وحفظ حقوقهم فمنهم من وظيفته اصلاح  
 الزراعة وري الاراضي ومنهم من هو محافظ على صحتهم وصيانتهم  
 من الامراض واخرون لسماع دعاويهم والحكم بينهم واصلاح ذات  
 بينهم وايصال الحقوق لاربابها ولكل من اصحاب هذه الوظائف  
 مراتب على حسب درجاتهم تؤدي اليهم سنويا او شهريا فهم  
 بذلك في امن على معيشة عيالهم وجميعهم في ظل المتصرف في امر  
 الجميع فان كنت اخيار صناعة لم اعد صنائع هذه الجماعة  
 فقال له والده يا ولدي اعلم ان الحكم الالهية اقتضت جميع

ما تراه من الاحوال والصفات والترتيب والذوات وقد اقام  
الله الخلق فيما اراد ولا معقب لحكمه ولا راد وليس لنا مناقشة  
فيما قدره ولا اعتراض على ما دبره فان لم تصل عقولنا الى حكمة  
ما وقعت عليه حواسنا فالواجب علينا التسليم وتفويض العلم الى  
العليم الحكيم فرب شيء يظن فيه الخير وهو في الحقيقة ضير  
وبالعكس

وما ندري أفي الامر المرجى \* ام الامر الذي نخشى السرور  
واعلم يا بني واعز شيء علي ان النظام الحقيقي هو هذا  
النظام ومرور القرون العديدة والدهور المديدة على النوع الانساني  
مع عدم تغيير كيفية تركيبه دليل على ان هذا النظام هو ما اراده  
الحق جل جلاله وكما يلحق الصدا الممدن كذلك يكون العلم  
محفوظاً بالجهل والحق بالباطل والخير بالشر والحياة بالموت فلا  
نجد شيئاً الا وهو مقترن بصدده وهذا التلازم ضروري اذ لا تعرف  
الاشياء الا باضدادها فكذلك الحق والباطل ولنا ان نقول ان  
النسبة بينها كنسبة العناصر التي تتركب منها الاجسام الى بعضها  
اعني ان بينها تعادلاً وتوازناً فان تغيرت هذه النسبة بالزيادة  
او النقص بطل التوازن وفسد امر الملة كما يفسد الجسم المادي  
بتغير النسبة بين اجزائه وكما ان الماء لا تكون صفاته ولا توجد  
فيه خواصه الا بوجوده في حالته الاصلية التي فطره الله عليها  
ومنى خرج عن هذا الحد تغيرت صفاته وتبدلت خواصه وربما

كان مضرًا بعد ان كان نافعًا فكذلك حال الملة واهلها اذا زاد  
 الدخيل وكثراهل الزور والباطيل تتهقر امر المستحقين وتقص  
 عددهم ووربما ضرَّ بهم كضرر الداء الدفين لان الدخيل لعدم  
 وفوفه على المحقيقة في الاحكام قد يخرجها عن موضوعها ويستعملها  
 في غير مواضعها وبسبب ان قوتهم الاصلية هي القوة العلية تسير  
 خلفها الملة فتتهوي بهم في مهاوي التلف والدمار وتكسوها بعد  
 الشرف ثوب المذلة والعار وهذا الامر ليس خاصًا بطائفة دون  
 طائفة بل هو عامٌ بجميع الطوائف على اختلاف اهميتها وصغرها  
 وكبرها في كهيتها ولكن حيث ورد (من حسن ايمان المرء تركه  
 ما لا يعنيه) فعن هذا الكلام نعرض وتترك الامر فيه لله ولمن  
 صرفه في خلقه وعليمهم وواه فانهم المسؤولون عن امر انفسهم ورعاياهم  
 واول واجب عليهم اصلاح حال انفسهم وحال رعاياهم فهم الملمزمون  
 بتفقد الاحوال واجراء الامور على احسن منوال والبحت عن  
 الطرق التي يكون بها ثبات هذه النسبة في حدودها حتى يستقيم  
 كل انسان في محله ويوضع كل شيء في موضعه لان اكثر الضرر  
 الذي يتبع من اهل امراء الملة وتساهلهم لا تعود عاقبة امره الا  
 عليهم فيكون اسفهم بقدر ما كانت درجة سعتهم في سلطتهم فمتى  
 تفقدوا بانفسهم احوال الرعية وراعوا للشرع حقوقه المرضية دام  
 لهم السرور واشرفت بهم ممالكهم واملاكهم ودارت بالسعود افلاكهم  
 وقد ترى ما اشرق به الزمان ومنه تجدد اعتدال الاوان فنبسأل

الله له التمام ونرجوه حسن الختام انما المقصود منك ان تفصح لنا  
عما اخترته لنفسك من الصنائع

فقال ابن الشيخ لم يكن في امكاني ولم يحم بجناني معرفة ما يوافقني  
من الصنائع فانها كثيرة ومختلفة ولم امارسها حتى اعلم المناسب منها  
لسني وبنيتي وحيث رأيتا انه لا بد للانسان من صنعة يكتسب  
منها مع الشرف والوقار وحفظ الناموس، والاعتبار فلا مانع وقد  
فوضت تعيين الصنعة الى الله ثم اليكما فكلما اخترتماه واقع عندي  
موقع الصواب بما اعتقده فيكما من ممارسة احوال الناس وكثرة  
التجارب والعلم بما يفيد وينفع وما عليّ الا ان اكون ممثلاً لما  
تأمراني به وان ابذل غاية جهدي لاحقق ما ظننته في فان  
رأيتا ادخالي بالمدارس الميربة فانا راض به راغب فيه خصوصاً  
لما رأيت به بنفسي من احوال من سبق له الدخول بها فاني لم اجد  
احداً منهم الا وهو في ثروة ورفاهية لم يكن فيها غيره واطن ان  
والدي يعلم ذلك فان بالحارة التي نحن بها في مصر جملة منهم  
لم درجات مختلفة اقلها بمراتب كافية وفيهم من بلغ المناصب  
الرفيعة والرتب العالية وله مرتبات جسيمة ينفق منها على الاهل  
والاقارب ويتصدق على الجار والصاحب فضلاً عن الصدقات  
المربوطة للفقراء والمساكين ورأيت جميع اهل الحارة بل واهل  
الخط يراعون خواطرهم لمعروفهم وكرمهم ومساعدتهم الخيرية وليس  
فيهم ابن امير او شريف وقد توجهت ذات يوم مع تلميذ من ابناء

حارتنا هناك فوجدت بها تراتيب ونظامات الفها قلبي واخذت  
بلي فمن ذلك الوقت وددت ان اكون من زمرة من بها لما فيها  
من الامور المرغوبة في حسن التربية وهي تنمية القوى الباطنية  
وتقوية المحافظة والتصور والعقل وتهذيب الاخلاق مع رعاية ما  
يلزم لحفظ الصحة من الصون عن اسباب الامراض والعاهات  
بملاحظة حكاء موظفين لذلك لا يزالون متعدين اغذيتهم  
واماكن مبيتهم ومواضع مدارستهم ومحل نفسهم وتروج انفسهم  
لتجديد نشاطهم وتقوية قرائمهم بالنظر لما اشتملت عليه من الاشجار  
والمياه والازهار والتردد بين ظلالها وذلك الى ما اخنصت به من  
افاضل المعلمين والمؤدبين ورأيت ان الانسان ما دام فيها لا  
يكون مشغولاً بشيء غير التعلم واما الامور الضرورية فموكولة الى  
خدم مخصوصة ملزمة بأدائها في اوقاتها وسمعت ان الانسان اذا  
تم ما فرض عليه في مدرسة اتقل لغيرها على حسب درجة استعداده  
وما ابداه في الامتحانات العامة والخاصة الى ان ينتهي المفروض  
على الشخص معرفته وتكون فيه قابلية واستعداد للخدمة ووطنه فعند  
ذلك تعطى له الرتب اللائقة به ويحظى بمرتباته ويعد من رجال  
الملة وبحسب ما يديه في خدمته من حسن الادارة والصدافة  
يندرج ضمن افاضلها فبناء على ما ذكرته متى كان الانسان كثير  
الاجتهاد متخلقاً بالاخلاق الحميدة كان آمناً على نفسه جميعاً عن  
من عاهات الدهر وتقلبات الايام لانه وهو بالمدرسة يكون محبوباً

مبجلاً بين اقرانه وخوجاته فيميزونه ويعدوناه من اهل الفضل  
 واذا خرج عنها الى اعماله واشغاله يتقدم في درجات الشرف  
 ويعد من اهل العدل بحسب صداقته واستقامته وحسن ادارته  
 ففرح الانكليزي بما القاه ابن الشيخ وشكره وعظم من ذلك الوقت  
 شأنه وقدره حتى انه اضمر في نفسه انه بعد دخوله بالمدارس  
 يساعده ويقوم بكل ما يلزم له من كتب وادوات وان يجعل  
 له من طرفه مكافأة كل ما ظهر في ميدان الامتحان فوقانه على  
 الاقران وان يغتنم فرصته ويؤكد رغبته مدة اقامته في البلاد  
 الاوروباوية ويطلعه على جميع احوال تلك البلاد واسباب  
 ثروة اهلها حتى يكون من ذلك على معرفة تامة لما يراه من الاشياء  
 ويقف على حقائقها وان يريه المعامل والفبريقات واماكن اللهو  
 والترسانات ليؤكد ميله ورغبته واخبر بما اضمر اياه فاطال  
 شكره له وثناؤه عليه

---

### المسامرة السابعة عشرة

في البحر وعمجانه

ثم اخذا في شجون الحديث وتناقلا اخبار القديم والحديث  
 حتى جرى بمناسبة الحال ذكر البحار فتواصفا غرائب ما اودعته من

الاسرار فكان من كلام الشيخ ان قال مستفتحاً هذا المجال املاً ان  
يزيد علمه ويصل الى ما غاب عنه فهمه سبحانه من اجل صنعه  
واحسن كل شي خلقه واتقن وضعه واجرى مواخر البواخر تشرح  
متون الماء وسخر لعباده كل ما اشتملت عليه الارض والسما ومن  
علينا في مدة هذا السفر الحميد بغير ما كنت اخاف منه وعنه احيد  
فلقد كنت انفاً اقراء في بعض كتب الاخبار متاملاً فيما تضمنت من  
عجائب الليل والنهار

فيشتت الافكار ما قاسى الورى

من هول هذا البحر عند ركوبه  
من امواج تلاطم ودفعات على اتساعه تتزاحم ودوائر ببعض  
السفن تدور لا يتظر من دارت عليه الالهة الشور فقد قيل  
داخله مفقود والحارج منه مولود فنسال الله دوام المبرة حتى تنقضي  
بالسلامة هذه السفرة كما نساله دوام العناية حتى نبلغ في كلائته  
اكرم غاية لا ترى البحر الا رهوا ولا ننظر الجو الا صحوا  
ولكن حب الاطلاع سيما في صحبة مثل حضرتكم يهون كل صعب  
فاحب ان نتكلم في امر هذا البحر فلقد رايت في بعض ما قرأت  
ان الجهة الجنوبية من الارض مغمورة بالماء وان للبحر جرياناً مع  
كونه اخذاً نهاية تمدده متوازناً في مفره وقد ذكر لذلك اسباب  
اختلف القول فيها فما عندكم فيه فانتم ابناء البحر وعندكم يقين علمه  
فقال له الإنكليزي اعلم ايها الاستاذ ان الانسان ولو وصل

بما اعطاه الله من العقل وقوة الفكر الى معرفة السياحة في البحار  
 بالسفن البخارية والشراعية واستكشف كثيراً ما فيها من بقاع  
 الارض وغيرها الا ان ما جهله اكثر مما علمه ففي كل يوم يوجد  
 في جوفه ما لا يحصى من المخلوق وهذا الهدء والسكون الذي رايته  
 لم يكن الاً ظاهرياً اذ تخنه عجائب مستورة عن اعين الناس لجسامة  
 طباقه وغور اعماقه فلا تمر عليه لحظة من الزمن الاً وهو في فعل  
 مستمر وحركة مستديمة منها تأثيره على الكرة الارضية فتارة يوتر في  
 الطبقات الظاهرة وتارة في الطبقات الباطنة وبتقلبه المستمر ياخذ  
 من جهة الى اخرى ومن ارض الى غيرها فما هو الاً كما مور من  
 قبل الحق فما ياخذه من هذه يعطيه لغيرها وهذا دابه من ابتداء  
 خلق العالم الى ما شاء الله فلا هده له ولا استقرار ولا سكون له  
 بالليل ولا بالنهار ولعظمه لا يظهر لعواصف الرياح تاثير الاً على  
 سطحه وهول امواجه الظاهري ليس شيئاً بالنسبة لما يحصل من  
 حركة جسمه بتمامه فانه ينشا عنها ارتفاع سطحه الى عنان السماء  
 وسقوطه الى تخوم الارض فتحلل منه ابخرة ترتفع الى السماء ثم يدفعها  
 الريح الى جهات بعيدة فتحلل منها الاملاح وتصير عذبة وتظهر  
 بصورة جديدة فتارة تكون سحاباً فيسير الى الجهة التي قدر الله  
 انصبابه فيها فتخصب به ارضها وتغذى به اهلها وتارة تكون سيولاً  
 جارفة فينسب عنها التلف والمضرات وتارة تكون مطراً لطيفاً  
 باخري تكون ندى كما يشاهد على اوراق الاشجار وبين طبقات

الازهار وبسبب ما في الارض من الجفاف تمتص ما سقط على سطحها وتبتلعه فيجري الى مستودعات يجتمع بها حتى اذا امتلأت وضافت عن احتمال المدد الدائم التلاحق فنجرت عيونًا وطلبت مياهها الأمكنة المطمئنة حسب اقتضاء طبيعة الماء واجتمعت مع المياه السائلة من الامطار فكانت المنابع والانهر والخجان التي تمر بالبلاد التي نساكنها والارض التي نزرعها فيكسوها ثوب الخصوبة ويلطف الجوف يعتدل هواء البقاع وبعد ان استحوذ الانسان على تلك المياه وجعلها في اسره ونصرف فيها على حسب رغبته ولوازم اعماله تعود الى البحر ومعها السفن حاملة مصنوعات الانسان ومحصولات اعماله

فقال الشيخ . شرحتم فادعتم وادعجتم فاجدتم وزدتم بيان سبب تكون السحاب الذي يدور عليه امر الحيوان في جميع المعمورة من اخراج غذائه وتلطيف هوائه وابداء نائه وتحسين روائه فما احسن هذا الكلام كاشفاً عن حقيقة المرام غير ان اناساً من ضعفة العقول ليس لهم من العلم كبير محصول ادعوا لانفسهم الفطنة والذكاء وان لهم كمال الاطلاع على حقائق الاشياء بقراءة بعض الكتب المترجمة من كلام القدماء توهموا ان قواطعها البرهانية تخالف نصوص الشريعة الغراء وادخلوا ذلك على بعض الازهان وتسلفوا بالظن في محكمات آي القرآن حتى احتاج علماء الملة ان يظهروا بصورة المتكبرين على جميع كلمات المتدبرين مشغولين

بالاستدلال على حدوث العالم ونسبة جميع الحوادث ابتداء للاحكام  
 المحاكين مقررين ذلك بين العامة والخاصة حتى صارت كتب  
 الفلسفة منكراً والمشغلون بقراءتها كفره واشتد ذلك في القرون  
 المتوسطة حتى كان يكتب في عهد تولية المحنبيين امرهم والتشديد  
 عليهم بالتفتيش عن تلك الكتب والهجوم على بيوت من يعلم ان  
 عنده شيئاً منها وكان ذلك سبباً لتعطيل المسلمين عقولهم عن  
 استعمالها فيما يمكن للانسان علمه فانتدب المهرة المتوغلون في معرفة  
 الفنون كحجة الاسلام ابي حامد الغزالي ونصبوا انفسهم لفصل ما  
 يضر ما ينفع ويميزوا ما لا يصح ان يهمل من كلام الحكماء عن غيره  
 وسردوا ما يستحق الرد ووضعوا في ذلك كتباً واكثرها وخطأوا  
 راي من اطلق القول في الانكار على الحكماء وقالوا ان هذا النوع  
 من نصر الدين اضر عليه من طعن الملحدين وبين كثير من فطناء  
 المتأخرين كجلال الدين الدواني صحة اشياء كثيرة ما ابطله نحو  
 الغزالي بتفصيل ما اراده المتقدمون فيه وتحقيقه فمن الطعن على  
 القرآن ما حكاه محقق المفسرين فخر الدين الرازي متصدياً للجواب  
 عنه ونص عبارته ( الم تر ان الله يزجي سحاباً ثم يولف بينه ثم  
 يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من  
 جبالٍ فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء )  
 اعلم ان هذا هو النوع الثاني من الدلائل وفيه مسألان . المسئلة  
 الاولى قوله الم تر بعين عتلك والمراد التنبيه والأجزاء السوق

قليلاً قليلاً ومنه البضاعة المزجاة التي يزجها كل احد وازجاء السير  
 في الابل الرفق بها حتى تسير شيئاً فشيئاً ثم يؤلف بينه . قال الفراء  
 بين لا يصلح الاً مضافاً الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب  
 واحد في اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى  
 ( وينشيء السحاب الثقال ) والتاليف ضم شيء الى شيء اي يجمع  
 بين قطع السحاب فيجعلها سحاباً واحداً ثم يجعله ركائماً اي مجتمعاً  
 والركم جمعك شيئاً فوق شيء حتى تجعله مركوماً والودق المطر  
 قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن ابي مسلم الاصمغاني الماء  
 من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كخيال في جمع جبل  
 وقرىء من خلله والمسئلة الثانية اعلم ان قوله يزجي سحابا مجتمعاً  
 انه سبحانه ينشئه شيئاً بعد شيء ويضمحل ان يغيره من سائر الاجسام  
 لا في حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثة  
 ثم انه سبحانه يؤلف بين اجزائه وعلى الثاني يكون المحدث من  
 قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها صارت تلك الاجسام  
 سحابا وفي قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجوده متقدماً متفرقاً اذ  
 التاليف لا يصح الاً بين موجودين . ثم انه سبحانه يجعله ركائماً  
 وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب  
 انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من  
 عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال الطبايعيون ان تكون  
 السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع في اكثر الامر يكون

من تكاثف البخار وفي الأقل من تكاثف الهواء اما الاول فالبخار الصاعد ان كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الابخرة متصاعدة اما ان تبلغ في صعودها الى الطبقة الباردة من الهواء اولا . فان بلغت فاما ان يكون البرد هناك قوياً اولا يكون فان لم يكن تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوايل انما يكون من امثال هذه الغيوم واما ان كان البرد شديداً فلا يخلو اما ان يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كباراً او بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجاً وان كان على الوجه الثاني نزل برّداً واما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهي اما ان تكون كثيرة او تكون قليلة فان كانت كثيرة فهي قد تتعقد سحاباً مائطراً وقد لا تتعقد اما الاول فذاك لاحد اسباب خمسة احدها اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة . وثانيها ان تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح . وثالثها ان تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الابخرة حيثئذ . ورابعها ان يعرض للجسم المتقدم وقوف لتقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد . وخامسها لشدة برد الهواء التريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعوداً يسيراً حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين

يكونون تحت الغمامة يطرون والذين يكونون فوقها يكونون في الشمس واما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا ضربها برد الليل كثفها وعقدتها ماء محسوساً ونزل مبلولاً متفرقاً لا يحس به الا عند اجتماع شيء يعتد به فان لم يجمد كان طلا وان جمد كان صقيعاً ونسبة الصقيع الى الطل نسبة الثلج الى المطر واما تكون السحاب من انقباض الهواء فذلك عند ما يبرد الهواء ويتبض وحيثئذ تحصل منه الاقسام المذكورة والجواب انالما دللنا على حدوث الاجسام توسلنا بذلك الى كونه قادراً مخناراً يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكننا القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه خلق اجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذي ذكرتموه وايضاً فهب ان الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق ممكنة في ذواتها فلا بد لها من مؤثر ثم انها متماثلة فاخصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقاً لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة في هذه الاحوال وخالق السبب خالق المسبب فكان سبحانه هو الذي يزوج سحابا لانه هو الذي خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهوا ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت في صعودها والتصق بعضها ببعض فهو سبحانه هو الذي جعلها ركما فثبت على جميع التقديرات ان وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بين

فقال الانكليزي ان الانسان مع كثرة اشغاله اللازمة لحفظ حياته على قصر عمره لا يمكنه ان يحيط بتحقيق جميع فنون العلم مع كثرتها وتشعبها واختلاف الآراء والمذاهب في اصولها وفروعها وغاية ما يمكن للانسان البازل وسعه واقصى همته ان يتقن الفن او الفنين ومن ذلك كان الناس حسب الوضع الالهي منقسمين الى الطوائف فكل طائفة اشتغلت بما استعدت له واراده الله منها على تفاوت افرادها في ذلك فتمت منافع الناس واستقام امر وجودهم فكان مجموعهم بمنزلة شخص واحد يصرف اعضائه في مصالحه فلم يكن لطائفة ان تنكر على طائفة افكارها واعمالها كما انه ليس للرأس ان ينكر على اليد اعمالها التي لاجلها خلقت بل على كل طائفة ان تكل علم ما جهلت الى الفرقة التي بذلت همتها وانضت اجسامها في تحصيله وتشييد اركانه واضاءة برهانه لا يزري احد على احد عمله ولا ييادر كالانهار بانكار ما جهله فتبين من ذلك ان الواجب على علماء الملة ان يتقنوا اصولها ويحفظوا فروعها غير متعرضين لاقوال غيرهم واعمالهم لا بالتسليم ولا بالانكار ما لم يوافق او يخالف ما ثبت عندهم بالبراهين الموجبة لم علم اليقين او يتعرض بعض الاغرار كما حكيم لتقص اصل او ابطال فرع وكان قد سبق بين حضرة الشيخ وصاحبه معاهدة على انه متى سمع منه كلمة غير موافقة للغة ارشده اليها واتم الفائدة بحكاية اشكالها فقال الشيخ جرى في كلام حضرتكم لفظ عواصف الرياح

وإنما يقال للرياح الجبرية قواصف لأنها قد تفعل القصف وللرياح  
 البرية عواصف لأنها قد تحمل العصف وهو ما ييس من أوراق  
 الأشجار وكلاهما ليس من قبيل الاسم بل من قبيل الوصف كما  
 يقال للرياح التي تلعق اناث الأشجار من ذكورها اللوائح وللخليفة  
 الشديدة المحواشك وللحارة في الصيف البوارح والتي تقدم المطر  
 فتجيء بلبلة المبشرات والتي مع المطر المعصرات والتي تثير الاغبرة  
 الأعاصير والتي تحمل السفا وهو دقيق ما تحت من النبات  
 السواني وهذه الاسماء أكثر ما وردت بلفظ الجمع ويقال للريح  
 اذا هبت لينة الريدة والريدانة والنسيم فاذا تابعت مستمرة فهي  
 الرخاء واذا سمع لها صوت كحنين الابل فهي الحنون فاذا ابتدأت  
 بشدة فهي النافحة والسيح والسيهوج والسهوج فاذا سمع لها مع  
 الشدة صوت فهي الزراف فاذا اشتدت حتى قلعت الخيام فهي  
 الهجوم فاذا زادت حتى قلعت الأشجار او دون ذلك بتقليل فهي  
 الزرع والزعزاع والزعزعان واذا حملت الحصباء اى المحصى فهي  
 الحاصب فاذا درجت حتى ترى لها ذيلاً في الرمل كالرّسن  
 فهي الدروج فاذا كانت شديدة المرور فهي النّوج فاذا أسرع  
 فهي المحفل والجافلة فاذا هبت من الارض نحو السماء كالعمود فهي  
 الأعصار والزوبعة فان حملت غباراً فهي الهبوة فان حملت التراب  
 وترددت به ويسى المور بضم الميم فهي الهوجاء فاذا هبت باردة  
 فهي المحرجف والصرصر والبرية كغنية فان اشتدبت حتى خرقت

الثوب فهي الخريق فاذا كانت حارة فهي المحرور ليلاً والسموم  
 نهراً فاذا كانت بين بين فهي السجج فاذا لم تفتح شجراً ولم تسق  
 مطراً فهي العقيم فاذا كان هبوبها من المشرق فهي الصبا وعن  
 بين المتوجه للشرق الجنوب وعن شماله الشمال والشمال ومن  
 المغرب الدبور فاذا خرجت بين مهبي ريحين من هذه الأرباع  
 فهي النكباء فان كانت بين الجنوب والصبا فهي الجربيا بكسر  
 الجيم وان كانت بين الصبا والشمال فهي الصابية وان كانت  
 بين الشمال والدبور فهي الازيب كجعفر وان كانت بين الدبور  
 والجنوب فهي الهيف بفتح الميم وكانت العرب تنادي بها لكونها  
 تيبس النبات وتعطش الحيوان وتنشف الماء وفي المثل ذهبت  
 هيف لاديانها يضرب لسيء الاعمال اذا جرى على عوائده ولبعضهم  
 نظم الاصول والنكب وهو هذا .

صبا ودبور والجنوب وشمال

بشرق وغرب واليمين وللضد

ومن بينها النكباء ازيب جربيا

وصابية والهيف خاتمة العد

فشكره على ما افاد ثم قال ان اثار الحرارة التي عليها مدار  
 ما اسفلنا شرحه هي احد القوانين التي بها ربط الله جميع احوال

العبر

القانون الاول المجذب الواقع على العبر من الكواكب فقد

ثبت علمًا وعملاً أن القمر بسبب قربه من الأرض يؤثر على سطح  
 البحر المحيط فيجذب ماءه نحوه فيحدث من ذلك موجة ثم يرتفع  
 بعض اقدام فوق سطحه ثم يسير على اتجاه الكوكب في جوف  
 السماء وبعد ان يقطع مسافة في سيره ينصدم بين ارض هولاندة  
 وبين ارض اسيا الجنوبية وبسبب انحساره ينساب التيار بقوته  
 وينقسم الى تيارين احدهما يتجه جهة سواحل الافريقة وبعده ساعة  
 من ظهور القمر تكون تلك الامواج وصلت الى ارض فاس  
 ومراكش وبعد ساعتين تكون ببغاز الطارق وتمرسواحل بلاد  
 البرتغال وفي الساعة الرابعة تكون وصلت الى السواحل القربية  
 من بلاد الانكليز ولا تصل الى سواحل ارض اسويج الا في الساعة  
 الثامنة لانها تتعطل في سيرها بالجزائر الموجودة في بحر الشمال  
 والثاني ياخذ اتجاه سواحل امريكا الغربي بسرعة فيقطع في الساعة  
 الواحدة مائة وعشرين ميلاً ومتى تصادم بارض السواحل المذكورة  
 اتجه الى الشمال فينجس هناك بين جزائر متعددة فترتفع امواجه  
 ارتفاعاً يقرب من ثمانين قدماً ويكون أكبر من ارتفاع الامواج  
 التي تحدث عند اعظم الفورتونات بخمسين قدماً لانه لم يعلم الى  
 الان ارتفاع الامواج باعظم العواصف اكثر من ثلاثين قدماً كما  
 ذكر في التواريخ

والقانون الثاني وان كان ثابتاً بالعلم ولا شك فيه لكن  
 اكثر الناس تجهله لانه غير محسوس ولا يدركه الا اولوا الابصار

من ذوي العلم وهو تأثير حرارة الشمس الذي يكون به الماء سائلاً فان الماء كسائر الاجسام قابل للتخلخل والتكاثف فاذا زاد تأثير الحرارة فيه تتخلخل وكبر حجمه وخف حتى يصير بخاراً مناسباً للهواء واذا نقص تأثير الحرارة فيه تكاثف وصغر حجمه وثقل حتى يكون وزن ذراع من حار اقل من وزن ذراع من دونه في الحرارة ولا ينزال الماء سائلاً ما دامت حرارته في الدرجة الثالثة فما فوقها فتمتى نقصت عن ذلك صار بازدياد تكاثفه مادة لزجة وكلما اخذ في البرودة ازداد جموده وخفته حتى يصير حجراً مناسباً للارض فالماء جوهر دائريين ان يكون ارضاً وان يكون هواءً متبادلاً عليه الجمود والسيلان والثقل والخفة وكل ذلك ناشيء من صحبة الحرارة له وامتزاجها به ومن مفارقتها اياه وخلوه منها ثم انه علم بالتجربة ان الحرارة انما تصل من عمق البحر الى غاية ثلاثة آلاف وستمائة قدم

وبناء على هذا القانون فسطح البحر دائماً في حركة مستديمة وتبادل بين طبقاته فتمتى ثقل بالبرودة نزل الى اسفل وصعد ما تحته فوقه وكل ذلك ناشيء عن تغير الحرارة واختلافها في درجاتها ومن هنا نشأت التيارات العظيمة الحارة والباردة التي تشاهد على سطح البحر في كثير من الجهات فان السياحين شاهدوا ان حرارة ماء التيارات المذكورة ثنائي درجات مع ان درجة حرارة الماء الراكب الملازم لها احدى وعشرون ولذلك قالوا ان راكب

الصندل يمكنه ان يغمس احدى يديه في الماء البارد من جهة  
ويده الثانية في الماء الحار من الجهة الاخرى وكمن عجائب خفية  
تحت طباق الماء يمر فوقها الانسان ويقطع جميع هذه الجور ولا  
يحصل منه ادنى التفات اليها ولا شعور ولا يعلم ما في قراره من  
الغابات المتسعة والوديان المطئنة والجبال المرتفعة والبراري الهائلة  
فكم في قاع الجور من ارتفاعات ووهجات وانخفاضات وكمن في  
من صحاري ووديان ومغارات وصخور فتارة يكون بسيطاً عظيم  
الاستواء مجرداً عن النبات في بعض الجهات وتارة يكون عامراً  
بالنبات والعشب في جهات اخرى وتربى قاع البحر كسطح الارض  
فيه المرتفع والمنخفض والتحل والمحصب وقد شوهد في جزيرة  
سنتهيلينه بالمجس ان عمق البحر اربعة عشر الفاً وخمسة وخمسون  
قدماً وعند القطب الشمالي وصل المجس الى عمق ستة وعشرين  
الف قدم وستائة قدم وذلك عبارة عن خمسة اميال وهذا  
الغور لا يوجد مثله في سائر البحار التي على سطح الارض وفي  
هذا العمق العظيم ترتفع جبال وصخور وجزائر وغيرها

وكان شاهد ان سطح الارض دائم في التغير فبعضه يرتفع  
وبعضه يتخفض فكذلك قاع البحر وذلك محسوس خصوصاً في  
البحر المحيط الجنوبي فقد ثبت علماً ومشاهدة ان استواء الماء في  
المحيط ثابت وان الارض هي المتغيرة خلافاً لرأي المتقدمين فانهم  
كانوا يعتقدون عكس ذلك وقد انقطع الان هذا الشك وزال

الاشكال وبطل هذا الاعتقاد وما بني عليه من الاتقوال  
فقال الشيخ ان من يطلع على ما في داخل الجمار وينظر  
اسكان طباقه بعين الاعتبار وما كمن في خلال قراره ونجوده  
واغواره واجام الاعشاب الطافية على سطحه علم قدرة القادر وعظم  
شأنه وخضع لجلالته فثم ما لا تسعه العقول ولا تنفي بحصره  
ارباب النقول نرى بحارا عميقة وبها حيوانات هائلة واخرى دقيقة  
لا يعلم متمهاها الا الله ففيا وحولها بواقى ما ابتلعه البحر من مخلوقات  
ومعادن ومصنوعات ومكان ما ابتلعه من الازمان السابقة فتري  
الآت الحروب وبواقى القنلى وقطع السفن وكذا الذهب والفضة  
اللذان هما تقود الامم السالفة واللاحقة ومعادن مختلفة كل ذلك  
تحت الصخور وفي فجوات الجور

وفوق ذلك وتحته وداخله انواع مختلفة من المخلوقات باشكال  
وصور وكيفيات لا نهاية لها فمنها الحيوان الدقيق الذي لا يرى  
وما هو اكبر منه وهكذا الى الهائشة التي لا شبيه لجسمها في  
المخلوقات الارضية وما يستغربه الانسان دوام المعركة بين جميع  
هذه الانواع وبعضها فتارة تكون طارئة وتارة تكون مطرودة  
وتارة آكلة وتارة مأكولة وتارة غالبية وتارة مغلوبة هذا دابها مع  
بعضها في جميع فصول السنة وبهذه الكيفية يكون تحت طباق  
الماء سواء كان في هاء او سكون مخاريبات ومحاورات وهجوم  
ومدافعة وممانعة ووجوم وكما يوجد على الارض انواع حيوانات

وطيور فكذلك يكون في الحجر ما يشبه الذئب وما يشبه الأسد وما هو كصاحب السيف وما هو كصاحب السنان وغير ذلك وربما كانت اشد افتراساً وقسوة ولما عندها من الحمل تراها تغتال في الدفعة الواحدة الوفا مؤلفة من الانواع التي اعدّها الله لقوتها ومع ذلك كله فلا يسمع لها صوت ولا وجيب وغاية الامر انه يظهر في بعض الاحيان على سطح الماء كلون الدم وترى اسماك مقتولة عائمة فوق سطحه فيكون ذلك علامة على معركة او مقتلة جرت بين طوائف الاسماك في جوف البحر

فقال الانكليزي كذلك وقد شوهد امور اخرى غير هذه وهي ان ماء البحر يتلون بالوان مختلفة فيكون باللون الزيتوني كما في البحر المحيط الجنوبي ويكون اخضر كما في سواحل العرب ويكون وردياً كما في جهة الكاليفورنيا بالامريكا واحمر كما في البحر الاحمر وجميع هذه الالوان قد تكون مكتسبة من الوان النبات والاعشاب النابتة في بقاع بحار هذه الجهات او من الوان الحيوانات الدقيقة المحسوسة المتخللة بين جواهر الماء فيكون اللون شديداً او غير شديد تبعاً لتكاثف الطبقات وتراكم هذه الحيوانات وهناك حيوانات تجعل لون الماء اسود كما في جهة مالديف واخرى تكسبه لوناً ابيض كما في جهة غينه واغرب من هذا كله ان هناك نوعاً من هذه الحيوانات له لمعان شديد وسمى اجتمع مع بعضه ظهر على سطح الماء لمعان يشبه ضوء النار وهذا

النوع يكون في جميع طباق البحر ولكل من هذه الحيوانات والديدان بقاع تسكن بها وطرق تسلكها عند انتقالها تابعة في سيرها تيارات مجهولة فتنقل من الاقطاب الى دائرة الاستواء ومن قطب الى قطب ومن الغريب ان الهائشة التي جرمها قدر جرم الفيل خمس مرات فاكثر تحتاج لهذه الديدان لغذاءها فلا يهنا لها عيش الا بالحصول عليها فتراها تهاجر خلف هذه الديدان وتسير مسافات بعيدة حتى تحصل منها على ما يلزم لها

فانظر لحكمة الله التي احوجت العظيم للتخير حتى الهائشة التي هي اكبر حيوان صارت محتاجة في غذائها لاحقر شيء وهو الديدان ولم يكن في جميع انواع المخلوقات ماله اكثر ميلاً للاسفار من السمك فنه انواع تنحدر الى الجهات الجنوبية واخرى تصعد الى الجهات الشمالية وهذه تتجه الى الشرق وهذه الى الغرب وبعد ان يقضي كل اربه يرجع الى ما هاجر منه ثم يعود مرة ثانية في وقت اخر وبعضها يخرج من البحر والماء المالح الى النهر والماء العذب كالسردين ابي صغير السمك وربما كان في كثافة عظيمة بحيث يمنع جريان الماء ومنها ما يكون في غاية الملازمة فلا يكون للسنة عليه تأثير وما تاكله الطيور وما يموت شيء لا يحصى ومع ذلك فما يجري تملجه وادخاره لاجل الاتئدام به عند الحاجة اليه اكثر وفيه اكبر المخلوقات ومنه الهائشة وقد مرت والدرفيل والترمسة التي تبلغ الف افة فاكثر وسكان جزائر البحر المحيط الجنوبي بصطادون

في كل عام الوقا مؤلفة من كلاب البحر لاخذ دهنها وزيتها وفي  
البحر من النباتات ما لا نهاية له فمنها ما ياخذ في شكله صوراً  
متعددة ويتلون بالوان مختلفة لطيفة حتى يتكون منها بساتين  
عظيمة تفوق في ظرفها البساتين البرية وكما تميل اغصان الاشجار  
البرية تبعاً للرياح كذلك تميل اغصان النباتات البحرية تبعاً  
لامواج البحر حتى انها في بعض الاحيان تطلع من اصولها وتسير  
الى مسافات بعيدة وتتراكم ويتركب منها طبقة كثيفة فتغطي جزءاً  
عظيماً من البحر وربما منعت السفن من العبور ومواضع هذه  
النباتات معلومة فمنها ما يكون ثابتاً بالصخور فلا تؤثر فيه الامواج  
ولا تقلعه الا ومعه صخوره ومنها ما ينبت بالقرب من السواحل  
واذا نبت بعيداً عنها لا يتجاوز في بعده اربعين باعاً وتثبت في  
جميع البحار ولكن الاكثران هذه النباتات لا تكون الا في البحار  
الجنوبية فتثبت فيها وتمتد الى نحو الف وخمسمائة قدم وتارة تمتد  
على سطح البحر وتغطي ماءه بالكلية وتستره حتى تكون سعتها ثلاث  
مائة ميل في العرض وتنتشر الى خمس وعشرين درجة في العرض  
وقد قطع ( كزومب ) ثلاثة اسابيع كاملة في مروره منها حين  
ذهب لاستكشاف الامريكا وهذه الحشائش عبارة عن مادة هلامية  
اي لزجة مغطاة بقشرة كالجلد وتتشعب الى ما لا نهاية له وكل  
شعب يتفرع كذلك وهكذا حتى يتكون من ذلك شعاب عظيمة  
والجميع ينتهي باوزان رقيقة الاطراف ومنها ما ياكله الانسان

تفكها ومنها ما ينفع لداء الصدر وكثير من الطيور لا تقتات إلا  
منها وذلك في بحر الهند ومنها نوع سكري يمتد الى عدة اميال  
فروعه رفيعة كالخيط وورقه عرض اليد ويستخرج منه عصارة  
سكرية ويوجد على سطح الجار القطبية الشمالية حشائش طولها الف  
قدم واوراقها حمر وردية يحملها الماء بواسطة شبه عوامات موجودة  
تحت عقد الفروع تمتعها من الانفاس وفي بعض الجهات شوهد  
حشائش شبيهة بشجر التفاح ذات فروع حاملة مقداراً عظيماً من  
الفاكهة وجدورها متمسكة بالصخور واوراقها مدلاة في فروع تشبه  
فروع شجر الصفصاف ومع هذا كله ففي قاع البحر انواع مختلفة  
لا يحصرها إلا موجدتها ومن اجتماع هذه النباتات مع بعضها  
تحدث اشكال غريبة ورسوم هندسية عجيبة فمنها ما يلتصق ببعضه  
فيكون قباً كروية كبيرة تارة وصغيرة اخرى ومنها اشكال مخروطية  
فتارة تكون شكلاً هرمياً مربعاً او مثلثاً ومنها ما يسبح على سطح الماء  
ويكسو منه جزءاً عظيماً فيمنع نفوذ الضوء والحارة ومنها ما يكون  
خامات منفصلة عن بعضها وتارة متقاربة تجمعها اخرى وبسبب  
كثرة الالوان والاختلاف في الطول والشكل وكيفية التعشق  
والتداخل يتشكل منها هيئات وتكون لعالم البحر كالمدن والمسكن  
بأوي اليها ويتحصن ببعضه من بعض ويتقي بها من شره ومره  
يبصر تلك الغابات ويتاملها يرى اموراً عجيبة تدهشه لانه يرى على  
اغصانها ديداناً تسبح نحو الورق لتغذي منه ويرى عجل البحر جاثماً

ما بين نبت الماء والقراي الأصلية وكلب البحر ذا العيون الرصاصية  
والنمر ذا المعرفة والذكاء والترسة كلاً في مكانه ومحل راحته ومأمنه  
وما من نوع منها إلا وهو راصد لغيره اما لتحصيل قوته واما للفرار  
من عدوه فهذا بمغزاه راصد لتحصيل غذاه وهذا خائف من اعداء  
غيره واذاه فهذا بقوته يكر وهذا بضعفه يفر ومع ذلك ففي الماء وتحت  
الغابة وعلى فروعها وخلال اشجارها محاربة مستمرة بين الطوائف  
كافة ولو امعنت النظر لوجدت اموراً اخرى غريبة وهي انك ترى  
انواع الحمار مجتمعة متلاصقة منها الكبير ومنها الصغير ولا تسأل  
عما جاورها ولا تشتغل بما بعد عنها بل هي مقيمة في مقرها غير محتاجة  
الى الانتقال ولا تخشى من تقلب الاحوال عالمة كغيرها بان الله  
خافها ودير لها رزقها كما دبر لغيرها وبقدرته تعالى جعل لها ثمناً  
فتكفي بما تاخذه من الماء بما يلزم لها في تجديد الهواء وشفاء الدم  
وغير تلك الانواع والاجناس من المخلوقات ويوجد في البحر عوالم  
لا يوجد مثلها في البر ومنها الحيوان المسمى بالمرجان فقد قيل انه  
اول ما ينشأ يظهر فوق حجب من الاحجار القارة في قاع البحر فرع  
يشبه اصلاً نباتياً مسكون بحيوان ثم يخرج غيره ويذهب مثل الاول  
وهكذا فيتكون على طول الزمن وتوالي الطبقات عود المرجان  
وقد شوهد فرع من هذه الفروع عليه حيوان صغير جداً شكله  
الظاهري يشبه زهر النبات في شكله ولونه ومن دأبه ان يخرج من  
الحجر ويعود اليه وهذا الحيوان وان كان صغيراً جداً لكن يفعل

ما تحار فيه العقول فانه تارة يصنع بيوتاً فترتفع من قرار البحر الى سطح الماء ويمد طبقات وما يستعين به في عمل تلك البيوت من المؤنة لا علم للانسان به ولا بكيفيته ولا تركيبه فسبحان من خلقه وابدعه وفي قرار البحار اودعه وبسبب حسن شكل هذه المنازل الفاخرة والوانها العجيبة الزاهرة اشتغلت بها افكار الخلق في جميع الازمان وتنج من ذلك خرافات كثيرة ومن المستغربات ان هذا الحيوان الدقيق لا يصنع بيته في المياه ذات اللجج الكثيرة الامواج ويبعد عن المياه الكدرة والراكمة واول اساس يصنعه في عميق الماء ومن سنة الى اخرى وقرن الى قرن اخر يصل الى ان يخطط بمساكنه وبيوته الصخرية ساعات عظيمة من قاع البحر وفي بعض الجهات يوجد داخل هذه الصخور بحيرة متسعة لا يكون للرياح ولا للامواج عليها ادنى تأثير وتكون في هدوء وسكون دائمين ومن عادة هذا الحيوان ان لا يعلو بمساكنه سطح الماء وذلك لانه متولد منه فهو ملحق بالحيوان البحري ولا طاقة له بمقاومة الهواء والشمس وكثيراً ما ترى هذه الصخور في البحر عند دائرتي الانقلاب في صور واشكال عجيبة ويرى في وسطها هذه الجائر الراكدة وحوها الامواج الهائلة تتصادم وربما سمع للبحر قرقعة ودوي عظيم وفي داخل الادوار التخفية وعليها تجلب امواج البحر حيوياً وحشائش من اجناس متنوعة فيها بيض طيور مختلفة الجنس وكثير من انواع الحشرات والطيور ياوي اليها وتربي فيها صغارها مع الامن والراحة

التامة وبعد زمن ترتفع فوق الماء وتكون تلك الحشائش جزيرة  
وارضاً يسكن بها الانسان ويعمل بها آثاراً عجيبة فانظر لحكمة الله  
وعظمته

قال الشيخ قد أكثر الناس من وصف العجائب البحرية  
ونقلوا انها أكثر من العجائب البرية وما ذلك على الله بكثر فاشد  
الاشياء قوة واكبرها جسمًا لا يزيد في الخلق على الضعيف الصغير  
وقد اخلف الناس في كثير من الاشياء التي تجلب من البحر كالعنبر  
فمن قائل انه بعض فضلات حيوان بحري استحال الى صلاح  
كاستحالة الدم لبنًا في البهائم ومسكًا في بعض الغزلان ومن قائل  
انه صنع نبات ياكله ذلك الحيوان فيبقى الصمغ في فمه فيلفظه  
وتجده الناس في السواحل ومن قائل انه مادة تكون بنفسها في  
قاع البحر وتبلغ مقادير عظيمة حتى تصير كالصخور فيبتلعها الحيوان  
المشهور عند اهل عمان ونواحيها بالافال وهو الذي تسميه العرب  
العنبر فاذا ابتلعها قتلته وعند ذلك يطفو على وجه البحر فيراه اهل  
تلك الجهات فياخذونه ويستخرجون تلك المادة من جوفه وتارة  
يهيج البحر فيقذف بالعنبر على السواحل واهل الشحر من بني مهرة  
وهم الذين تنسب اليهم الابل المهرية يركبون ليلا في طلبه فيقال  
ان النخبية من ابلهم اذا احست بالعنبر بركت فيطلبه راكبها وياخذه  
وذلك الحيوان الذي يقال انه يتلع العنبر ربما يبلغ طوله اربعمائة  
ذراع فاكثر ويروى ان جيشًا من الصحابة بعثم النبي صلى الله عليه

وسلم الى ناحية ساحل البحر فنقد زادهم قتيماً يوماً يتظنون رزق  
الله اذاهم بذاك الحيوان طافياً على وجه الماء فاخرجوه واكلوا منه  
ثمانية عشر يوماً وماءوا مزودهم واجربتهم من شحمه وقديده وخبث  
ارادوا الانصراف الى المدينة امر امير الجيش ان ينصب ضلع من  
اضلاع تلك السمكة فكان كالقنطرة ومر تخنه اطولهم راكباً ناقه  
ولكن كثرة الخلاف في الشيء تؤدي الى الجهل به او الشك في  
حقيقته . وكالمرجان مثلاً فقد نقل عن ارسطو انه نبات وعن غيره  
انه معدن من قبيل الياقوت والماس والمغنطيس وانه يستخرج  
من سواحل افريقية ونقل المفسرون عند قوله تعالى ( يخرج منها  
اللؤلؤ والمرجان ) عن ابن عباس ان المرجان صغار اللؤلؤ وان  
كبار اللؤلؤ يسمى دراً وعن ابن مسعود ان المرجان الخرز الاحمر  
فهذه هي الكلمات الدائرة بين الناس في امر المرجان انما حيث كان  
سر الحياة سارياً في جميع الموجودات حسب استعدادها وما يناسب  
موضعها فلا يبعد شيء مما قيل فيها ومن ذلك ما يحكى ان السمند  
حيوان يشبه خلق الطائر بخلافه الله في النار وبها حياته وله وبر  
حريري يعمل منه مناديل وان المناديل التي تصنع من وبره اذا  
علاها الوسخ نأى في النار فتخرج نظيفة كما كانت وعلى ذلك قول  
الشاعر

لو أصلي الياقوت نار صباي \* لغيرت احواله وخصائه  
او قرب الطير السمند للمهجي \* لغضى غليه وغظلت حر كاته

فيكون ما حكيم في المرجان ليس موضعاً للانكار غير ان صورته وكونه فروعاً واغصاناً تخرج منها ازهار تقرب القول بانه نبات

فقال الانكليزي يا حضرة الشيخ ان اعتقاد الاورباويين كان كاعتقاد الام المماضية انه نبات كما هو مذكور في كتب اليونانيين والرومانيين والهنود والصينيين وغيرهم فجميعهم كان يزعم انه نبات ينبت في قاع البحر ليناً ثم يتجمد وفي حالة كونه في الماء تفعل فيه الامواج كما تفعل الرياح بالاغصان البرية فيتأليل نحو الشمال واليمين وجميع الجهات لكن لا يخفى على حضرتكم ان كثيراً من الاعتقادات القديمة بطل الان بالكلية بسبب الاستكشافات الجديدة وكذلك كثر من الامور النظرية والتواعد العلمية صارت لاغية لا اعتداد بها بسبب ما حصل من التقدم واتساع دائرة معلومات الخلق فبعضها وجد باطلاً لا اصل له والبعض هجر واستعيب منه باحسن منه ومن ذلك مسألة المرجان وحقيقته وكيفيته ففي اوائل القرن الثامن عشر للميلاد اخبر احد علماء ايطاليا انه استكشف زهر المرجان وانتشر عنه ذلك في جميع البلاد وكتب به مرسوم الى مجلس العلماء هناك وارسل مع المرسوم فرع منه وعليه ازهار ونبات عليه ظن العلماء حين ذاك انه قد ازيل الشك واتضح الحق وثبت عندهم ان المرجان نبات لانه لو لم يكن كذلك كيف يكون وجود الازهار به ثم في سنة ١٧٢٥ احضر احد حكماء الفرنسيين

في سياحه من سواحل الافريقيا صيادي المرجان فاخرجوه له فاطلع عليه وامتنحه امتحاناً تاماً بان وضعه في اجانة وملاًها بالمياه الجرية ونظر اليه بالنظارة المعظمة فرأى حيوانات كثيرة خرجت منه حية وتجمعت فكادت تشبه الازهار فمن ذلك ظهر له ان الازهار التي اشيع عنها انها اغصان المرجان عبارة عن هذه الحيوانات الصغيرة وان المرجان لم يكن الا بيوتاً تصنعها هذه الحيوانات لما واها ولما ثبت عنده صحة ذلك بالامتحان اعلن به مجلس العلماء فشاع ذلك بينهم لكن لم يصدقوه لجزمهم بصحة ما قاله لم التلياني اولاً ومع ذلك فقد اشتهر بين الناس ما ظهر للحكيم فصدقوه لانه لم يقل ذلك الا عن امتحان فتبين من ذلك صحة قول الحكيم من ان الازهار لم تكن الا عبارة عن حيوانات صغيرة جداً تظهر على ظاهر العود متى غمر بماء البحر المالح بعد اخراجه من البحر فعند ذلك يظهر فوق سطحه نتط شكلها نجوي مركب من ثنائي اوراق منفصلة عن بعضها في اخر كل ورقة شعور دقيقة كالاهداب فمن ذلك الوقت بطل الاعتماد القديم وثبت عند الجميع ما قاله هذا الحكيم فتراه يتفرع فروعاً كفروع الأشجار الصغيرة لونها احمر وصلابتها كصلابة الحجر الاصم قابلاً للجلاء ومقطعه يشبه مقطع بعض النباتات مركب من طبقات ثلاثية متحدة المركز وما يكون منها نحو الظاهر هش قليل الصلابة لونه احمر وفيه عيون صغيرة هي مساكن تلك الحيوانات وما يكون

منها نحو المركز صعب قابل للكسر وهو الذي تستعمله الصاغة  
والجهرية فهذا في الاصل حيوان واحد نبت فوق صخرة فتولد  
منه غيره ومن الغير غيره وهكذا حتى يتكون فرع صلب لا تتغير  
صلابته في قاع البحر ولا في الهواء بل صلابته فيها واحدة كما قيل  
والحيوان المذكور اسطواني الشكل ابيض اللون يعلو طرفه ثمانية  
افرع على كل منها شعرات خفيفة دقيقة جداً وفي الغالب تكون  
الفروع او الاوراق متحركة ولكثرة احساسها تنطبق وتنضغط بعض  
الاقوات اذا كان التأثير الواقع عليها كبيراً وتغيرت اتجاهاتها وتارة  
تنطبق على الجسم ويظهر في وسطها ومن اعلاها فتحة صغيرة  
كشفتين هي فم ذلك الحيوان. ومنه يتجه داخل الجسم قضيب  
اسطواني يمتد الى وسطه بحيث يرى كأنه معلق به وارتباطه من  
القم بثنيات واصلة من فروعه الثانية بالانتظام وكل من هذه  
الثنيات مقابل لاحد الفروع على الاحكام فالجزء الظاهر هو ما  
يسكنه الحيوان وبينه وبين الجزء المركزي علائق قوية من حيثية  
التغذية والتكوين لانه مركب من منسوج دقيق محيط بالجسم ومن  
انابيب مختلفة الغلظ فالأكثر غلظاً ملتصقة بالمركز والأقل منها  
فوقها والمنسوج فوق الجميع والمادة الغذائية تصل أولاً للمنسوج  
الظاهري ومنه الى ما تحته وهكذا حتى تصل الى المنافذ الملاصقة  
للمركز بمعنى ان المادة المكونة له لا تصل الى المركز الا بعد استيفاء  
كل قناة ومنفذ قسطها فتمر من السطح الى ما تحته الى المركز بكيفية

قدرتها المحق جل جلاله وعز شأنه وكاله فيتكون منها هذه المادة اللطيفة واللون العجيب

ومن تكرر الاستكشاف ظهر ان الحيوانات المكونة للفرع الواحد تارة تكون من محض الذكور وتارة من محض الاناث وقد يتحد الذكر مع الانثى في الفرع الواحد وان الانثى تقذف بيضها من فمها ففي المبداء يكون ديداناً صغيرة جداً ثم يتبدى في التجسم واخذ الشكل الحقيقي شيئاً فشيئاً وكما يوجد المرجان بافريقيا والاندلس كذلك يوجد بسواحل ايطاليا وفرنسا وكيفية استخراجها عند الجميع واحدة تقريباً وذلك ان المركب المخصصة لذلك مصنوعة بغاية الاحكام وكذلك الاشخاص المستعدة لاجراجه اولوا قوة لمعاناة المشاق لانه يحتاج لتجربة وتعود على معرفة محاله واما الآلة المستعملة لذلك فهي عبارة عن صليب مركب من قطعتين من خشب معلق بهما حجر ثم يربط فيهما الشباك المعدة لذلك ويعلق في ذلك خطاطيف لتمسك جميع ما يعثر به فاذا ظن الصيادون وجوده يجمل رموا شباكهم فيه ثم يسبرون الى امام او خلف ومعهم دواليب لرفع الآلة بكيفية يعلمونها فيأخذون ما تعلق بها وينظفونه

## المسامرة الثامنة عشرة

## في البراكين

وبيناهم يخوضون في هذا الباب ويتأملون في صنع رب الارباب واذا بالملاحين ومن بالمركب من المسافرين يشخصون بابصارهم الى جهة من الافق وقد كثر بينهم اللغظ وكأنا رأوا شيئاً من السماء ستمط والبعض ينظر ببصره والبعض بيده نظارة فلاح من الشيخ التفاتة فنظر الى الجهة التي ينظرون اليها فرأى دخاناً كثيفاً صاعداً الى السماء مختلطاً بلهب ولبعده كان يظهر له انه يخرج من الجرفدهش من ذلك وعن مسألة المرجان اعرض وسال الانكليزي عن هذا الذي في الافق تعرض فقال له ان هذا الذي رأته دخان يخرج من احد الجبال النارية ويعرف بجبل اتنا عند اهل الجغرافية وهو بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سيسيليا وهي صقلية وهناك جبال اخرى بالجرف الابيض بعضها طفيء من زمن والبعض متقد الى الآن مثل جبل ويزوف بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سردينيا فقال الشيخ قرأت في بعض الكتب فوجدت فيها نحو ذلك وهوان برية من الشام تفجرت وخرج منها دخان اقام بعض ايام ثم طفيء وسمعت من بعض اخواننا الواردين على الازهر

من البلاد المشرقية ان ثم جبالا شاهقة منها جبل يسمى دبقاوند ويقال دماوند لا يزال يخرج منها النار ويشد في بعض الاوقات دون بعض سيما ذلك الجبل فانهم يخبرون عنه ان فيه اثني عشرة فوهة يسمع منها دوي كدوي الرعد يخرج منها رياح شديدة الحرارة لا يمر بها شيء الا اهلكته غير ان لها سكوتا في بعض الاوقات وربما ترصد ذلك من يغرر بنفسه من المشتغلين بالكيمياء فيصعد اليها للبحث على كبريت ذهبي صاف يوجد هناك يعتقدون انه يدخل في الصنعة وبصفون ما يشاهدون هنالك من عجائب صنع الله تعالى

واهل مصر لعدم تعودهم على الاسفار وعدم وجود مثل هذه الحوادث في تلك الديار لا يوجد عندهم بهذا خبر ولا يصل اليهم منه علم ولا اثر لما ان بلادهم بلاد الرحمة قد خصها الله من فضله بالنعم الوافرة والالطاف الجممة المتكاثرة

فمن نظر لهذا الجبل وهذه النيران وعلو لهبها وكثرة الدخان الذي سد الافق وحجب ضوء الشمس اقر بقلبه واذعن بعبوديته لربه فسبحانه ما اعظم شاناه

فقال الانكليزي وفي هذه الجزيرة ايضا جزء غير مسكون وهو ما قرب من الجبل وبقاياها معمور بالناس وفيها كثير من الحيوانات وانواع النباتات وبسبب اعنياد الناس على هذا الجبل صار خروج النار منه عندهم كالعبور والآبار من الامور العادية

وهذه النيران وازن كان يحدث منها مضرات لمن جاورها في بعض الاوقات لكنها لا تخلو عن حكم اخضع بها من هو بها اعلم ولهذا الجبل اوقات تهب فيها النيران فتأخذ سعة من الارض تكبر وتضغر على حسب قوة الهيجان وضعفه ثم بعد ايام تسكن ولا يبقى الا دخان وبعض لهب كما هي حالته الآن بخلافه وقت هيجانه فانه يكون في حالة فظيعة وصفات مستغربة ترج منها الارض ويسمع لها دوي وقرقة على بعد عظيم وفي هذه الحالة تقذف مواد فترتفع الى الجو ويعلو اللهب والدخان حتى لا يدرك البصر غاية ومن شدة هوله تظن سكان البقاع المجاورة له زوال بلادهم وخسفتها ومن شدة رعبهم يضطرون الى الفرار وقد ذكر احد سكان الجزيرة حالة الجبل في شدة هيجانه فقال بينما انا في قرية بالقرب من هذا الجبل والناس مشغولون بامورهم وكان ذلك في شهر اغسطس الا فرنجي سنة ١٨٦٢ واذا بارض تنزل وترتج والجبل قد انفجر من اعلاه وخرج من فوهته مواد سائلة فكانت تسيل على سفح الجبل فهدمت منزلاً كان هناك يعرف بمنزل الانكليز وكنت ارى قطعاً عظيمة حجرية تصعد من الفوهة ثم تنزل وتندرد الى سفح الجبل وكان يخرج مع الدخان تراب ناري فينزل على سفح الجبل وبسبب ضعف القذف كان يقع في فم الفوهة فكانت تعطل المواد وتجسبها ولذلك انفتح الجبل من جوانب الفوهة وخرج من كل فتحة دخان ولهب ومواد

فكان ذلك امراً عجيباً ومنظراً غريباً خصوصاً في الليل فكيفت  
الاشكال التي ترسمها المواد المتذوفة ترى بصور تشبه الصور التي  
تحدث عن الصواريخ في ليالي المهرجان والافراح واستمر على هذه  
الحالة الى اوائل شهر يناير سنة ١٨٦٥ فازداد تنزل الارض  
ومتوجها في الجزء الشرقي من جزيرة صقلية وانفتحت في طول  
الفين وخمسة مئذ في راي العين وخرجت منها المواد المحبوسة  
من فتحة مستطيلة ثم في اواخر الشهر المذكور اجتمعت قوة  
الهيجان في نقط من خط الانفجار فتكوّن عن تراكم المواد المتذوفة  
عدة تلال منها ستة كبيرة والجميع كان بحافة المزق وبسبب توالي  
المواد السائلة والرماد والكنبل النارية وستوطها من فوق تلك  
التلال الى الارض تجتمع اكثرها ببعضه وصار كسلسلة جبلية  
غير منتظمة ثم انقطع خروج النيران من كثير من نقطها وبقي  
في البعض فكان يشاهد كأف الفوهات العليا تقذف كتلاً  
جسيمة منجمدة وان الفوهات السفلى تقذف ناراً ولهباً ومواد  
سائلة على شكل مستدير حول الفوهة الاصلية فاستمر الجبل  
على ذلك ثم سكن هيجانه بعض سكون وصار لا يرى فيه الا  
دخان وبعض لهب في بعض الاوقات وفي بعض الايام كان  
يسمع تحت الارض هدة وارتجاج ودوي كدوي الرعد وبعض  
تموج وتزلزل مزعج ويمتلاء الجو بالدخان ويتغير لونه وتجب  
الشمس وكان يسمع على بعد اصوات متنوعة وباختلاطها مع

اصوات المواد السائلة كان يظن قيام الساعة وبلحق الخلق رعب  
كثير وبعد زمن خشع ذلك وصار بعد ان كانت المواد المتدفقة  
تصعد الى الجوف الفأ وسبعائة متر تنازلت الى مائة متر ثم حصل  
الهدء كالاول وقدر بعض العلماء المواد المتدفقة من فوهاته في  
الستة ايام الاول فوجدوا ان الحبل اخرج في كل ثانية تسعين  
متراً مكعباً وكانت سرعة سيلان المواد في الدقيقة الواحدة نحو  
ستة امتار وكلما بعدت عن فم الفوهة تجهدت وقلت سرعتها  
فتكوّن عنها في جميع جهات الحبل اخاديد وتفرع من كل  
اخدود فروع ومنها غيرها وهكذا وقدرت مساحة بعض الاخاديد  
فوجد منها ما عرضه ثلاثمائة وخمسين متراً في المبدأ وعمقه خمسة  
عشر متراً وبعده عن فم الفوهة ستة آلاف متر وفي بعض الجهات  
كانت المواد تقع في اودية ووحدات منخفضة من الارض فكان  
يسمع لها دوي كدوي المياه عند انصابتها من الشلالات وقد  
قيس بعض تلك الوحدات بعد ان طفتت منها المواد السائلة  
فوجد عمقه خمسين متراً وبلغ امتداد بعض الفروع عشرة آلاف  
متراً في الطول وفي وسط شهر فبراير ضعف سير المواد السائلة  
المتخللة بين الصخور فكان يظن سكون الحبل فينجز ثانياً على  
حين غفلة بالقرب من فوهته الاصلية ويملا من المواد المتدفقة  
اودية واراضي واسعة فيتلف كثيرا من اراضي الزراعة والمساكن  
المنفصلة عن البلاد وعدة كفور كانت بالقرب من هذه الجهة

وكتير من المزروعات واحضي ما تلف من الاشجار التي كانت هناك فبلغ مائة الف شجرة وتكوّن من لهب ودخان ما حرقتة هذه المواد مع لهب ودخان الحجيل شعلة كان الملاحون وسكان السواحل يرونها في البحر مسير عدة ايام وحصل لاهل صقلية من ذلك ما لا مزيد عليه من الضرر وحزنوا حزناً شديداً على ما تلف من غاباتهم وراضي زراعتهم التي هي سبب سعادتهم وهذا الهيجان والاضطراب الذي شرحنه لحضرتكم لم يكن شيئاً بالنسبة لما هو مذكور في اخبار هذا الجبل العجيب فان المؤرخين ذكروا انه هاج خمساً وسبعين مرة في ظرف الف سنة واقلمها حصل عنها امتداد المواد المقدوفة الى عشرين الف متر اعني ضعف ما حصل في هذه الدفعة الاخيرة وستر من اراضي الزراعة ما ضلعه مائة الف متر وكانت في الازمان السابقة معمورة بالزراعة والناس وعليها من المدن والثرى عدد كثير ولم يزل يكتسب الجبل ارتفاعاً وامتداداً حتى صار قدر مجسمه الاصلي اربعة آلاف مرة

فقال الشيخ مقتضى ما ذكرته ان ياتي زمن تنعدم فيه هذه الجزيرة بالكلية لما انها في كل هيجان ي تلف كثير من سكانها ومساكنها وتنعدم خصوبة ارضها

فقال الانكليزي لا يمكن الحزم بذلك لان كثيراً ما شوهد في بقماع الارض جبال نارية مثل هذا الجبل او اعظم منه في الهيجان وبعد عدة قرون بردت وسكنت سكوتاً تاماً الى الآن

وجرت بها عيون وانهار ونبت فيها زروع واشجار وسكنها الانسان  
والحيوان فكذلك هذا الجبل يمكن ان يأتي عليه زمن يحصل  
فيه التوازن بين القوى الفعالة تحت الجبل واثقال المواد التي  
قذفها فيطفأ كما طفىء غيره من قبل وربما يحصل لارض الجزيرة  
اتساع عن حالتها الاولى وبما تكتسبه في كل هيجان في المستقبل  
تكون في حالة احسن وتكون حالة من يسكنها الطف من حالة  
سكانها الآن كما شوهد ذلك في كثير من امثالها

فقال الشيخ اني لا عجب من ارض تثمر وبها اشجار تزهر غاصة  
بالنبات والانسان ويخرج من جوفها هذا اللهب والدخان وهذه  
المواد السائلة التي تشبه في اندفاعها اندفاق الماء من اعلا الصخور  
والنابع من عيون الارض فمن اين تخرج هذه المواد وما مستودعاتها  
الْحَقِيقِيَّةُ فهل جوف الارض مملوء بهذه المواد وهل فويان المواد  
الصلبة منسوب لاسباب دبرت بالقدرة الالهية والحكمة الربانية  
فتوثر على المواد المجامدة فتذيبها في جوف الارض فان كان كذلك  
فما كيفية انتقالها بهذه القوة الى ظاهرها ولاي شيء يخرج من  
بقعة دون اخرى وعلى قول اهل شريعتنا وملتنا لا يسعنا الا ان  
نقول تحيرت الالباب في صنع رب الارباب وانه لا يحصل لاحد  
على هذه معرفة ولا وقف الا بطريق الولاية والكشف واما على  
طريقتكم ومقتضى فكرتكم فهل وصل انسان لمعرفة حقيقة ذلك  
وشروح اجوال هذه الحوادث كما وصل لشرح غيرها ولاي شيء

يسكن الجبل نارة وبهيج اخرى ولم كانت الاسباب الفعالة غير مستديمة بل تقوى نارة فتظهر وتضعف اخرى فتستر وقد ذكرت لي انه شوهد جبال بقيت زمانا تقذف من جوفها ناراً ودخانا ثم طفتت وسكنها الانسان والحويون من بعد وصارت بالحويون والانسان معمورة وبالنبات ورونق البهجة مغمورة فاما ان تكون انتقلت عنها اسباب الهيجان الى غيرها او انها عدت دفعة واحدة او تدريجاً في مستقرها حتى لا يبقى لها عودة في المستقبل او انها تسكن ثم تعود كحالتها الاولى

فقال الانكليزي انه الى الآن لم يقف احد على حل هذه المشكلة ولا على دليل، لفهم المسئلة وغاية ما قيل احتمالات وعلل لم تطرد في نفي ولا اثبات . احدها وهو اعتقاد قدماء سكان هذه الجزيرة وكثير من اهل العلم الآن يعتقدوه وهو ان مياه البحر تنصب في اغوار عميقة من قاعه وكلما ازداد عمقها ازدادت حرارتها فاذا اشتدت حرارتها انقلبت بخاراً وبعروض حوادث اخرى واسباب خفية توثر فيما تلاقيه من طبقات الارض فتخرجه عن حاله وبقوة التأثير المتوالية والقوى الفعالة عليها من اسفل تنذف الى جهة سطح الارض فتخرج من تلك الفوهات ممتزجة بالمواد التي اثرت عليها في مرورها بين طبقات الارض وتكون عنها المواد البركانية والدخان والهب وباقي الاحوال التي تشاهد حين صعودها الى الجو وتأثير الجوع عليها تجهد شيئاً قشياً حتى تصير

حجرًا او صخرًا يتكون منه الجبال . ثانيها ما قاله بعضهم وهوان جوف الارض من جهة المركز مشتعل بالنار على الدوام . وان جميع المواد ذائبة والابخرة المتصاعدة تخرج بقوتها من الفوهات البركانية . هذا ما قيل ولم يعلم ايها اصح ولكن رجح كثير من اهل العلم القول الاول لقربه من العقل على الثاني لبعده عنه لان المشاهد ان تركيب البخار المتصاعد عين تركيب بخار الماء سواء بسواء

واخبر احد المهندسين ذلك فوجد ان في كل جزء من البخار تسعمائة وتسعة وتسعين جزءًا من الماء والجزء الباقي مواد اخرى كما هو كذلك في بخار الماء وفي الهيجان الاخير الذي حصل في جبل اتنا قدر احد المهندسين الماء الذي تحصل من البخار فوجد ان الجبل يقذف في كل دفعة ٦٠٠٠٠ متر مكعب وبما انه كان يقذف في كل اربع دقائق مرة ففي مدة مائة يوم يكون مقدار الماء المتذوف ٢١٦٠٠٠٠ متر مكعب وقد شوهد في مواد الفوهة البركانية جميع المواد التي يتركب منها الماء الملح وغير ذلك فان غالب جبال النار التي استكشفت على سواحل البحر او في الجزائر موجودة الى الآن منها ما سكن ومنها ما هو على حاله وكثير ما سكن هذه الجبال بخرج منه عيون ماء حارة متفاوتة في الحرارة والتركيب المعدني والجبال النارية كثيرة جدا ففي البحر المحيط الاعظم وفي

البغاز الموصل الى الاسترالي بارض الهند الصيني مائة وتسعة  
جميعها يقذف مواد بركانية . فمنها ما يقذف دخاناً ولهباً ومعادن  
متنوعة . ومنها ما يقذف رمادا ناريا . ومنها ما يقذف طينا . وفي  
الغالب يترتب على هيجانها انخساف اراض وابتلاع مدن باهلها  
وسكان هذه الجزيرة دائماً في رعب وخوف لما يحصل لهم من هذه  
الحوادث المهولة

وفي جهات امريكا يشاهد خروج اللهب والدخان والمواد  
البركانية من فوهة جبل مستلى المرتفع عن سطح البحر الملح بقدر  
خمسة الآف واربعائة متر ويرى الدخان واللهب من بعد عظيم  
كانه عمود من نار قاعدته في البحر وراسه في السماء يستر ظله جزءا  
عظيما من الارض فلا يرى عليها لاشعة الشمس والضوء ادنى  
اثر ويوجد في ارض مكسيك اكثر من ثلاثين فوهة

وفي مواضع كثيرة من جهة امريكا لانزال الارض في تنزل  
واضطراب وفي بعض اوقات تنفجر ويخرج منها لهب وجميع هذه  
الجبال يشبه بعضها بعضاً في هذه الحوادث . فمنها ما يقذف دخاناً  
ولهباً واحجاراً . ومنها ما يقذف مع ذلك تراباً . ومنها ما لا يقذف  
الأماء حاراً يرتفع الى السماء ثم ينزل الى الارض

والجبال النارية في ساحل البحر الجنوبي اكثر منها في ساحل  
البحر الهندي فالجبال النارية لم ترل فعالة بقوة في جهات جزيرة  
سومتره وجزيرة زافا

ووجد في سواحل بلاد العرب والهند اثار مواد نارية تدل على انه مضى على هذه الجهات زمن كانت فيه متهيجة ومتقدة وعرضة للحوادث والاهوال كالجبهات التي يشاهد فيها ذلك الان ويوجد ايضاً حول البحر المحيط الاتلنتيكي فوهات نارية بعضها يخرج من جبال سواحله وبعضها من جبال جزائره ولكن براكين هذا البحر في الجهة الجنوبية اقل منها في غيرها عدداً وقد ظني أكثرها وسكن

وعدد البراكين التي فوق سطح الارض الان في جميع جهاتها بناء على قول العالم (هومبولد) مأتان وثلاثة وعشرون وزعم غيره انها تزيد على هذا وان كانت لا تبلغ مائتين وسبعين لكن لا يخفى انه لا يمكن الجزم بقول واحد منها ولا ترجيحه لان كثيراً من الجبال سكن زمناً طويلاً ثم هاج وتأجج بقوة أكثر مما كان وبعضها بسبب عظم قوته كان يظن به انه لا يسكن فسكن وطفئ كأن لم يكن ولعدم العلم بقواعد يستدل بها واسباب يستند اليها لا يمكن الحكم باحد العديدين بل تزيد وتنقص باسباب واحوال واما ما كان منها في الازمان السابقة مشتعلاً ثم طفئ فكثير جداً كما علم ذلك من وجود المتذوفات حول الفوهات المتعددة الباقية الى الان

وكثير من الناس يزعم ان غالب الجبال النارية متصلة بعضها من تحت قاع البحر ولكن لا قرينة على هذا الزعم بل القران

تدل على عدم الاتصال وذلك لانه لو كان بينها اتصال لفار الجميع عند فوران احدها والواقع غير ذلك اذ لم يشاهد ذلك في جبال اتنا والويزوف وغيرها من الجبال النارية التي بالبحر الابيض المتوسط لان كثيراً ما شوهد هيجان جبل اتنا مع عدم تحرك جبل ويزوف مع ان الاول مرتفع عن البحر ثلاثة الاف وثلاثمائة متر وارتفاعه اكثر من ارتفاع الثاني ثلاث مرات فلو كان بينهما اتصال وكان منبع هيجانها واحداً لحصل الهيجان فيها معاً وايضاً فالمواد المقذوفة من الاثنين مختلفة ثم ان هول الجبال التي تذف ماء وطيناً ليس اقل من هول الجبال التي تذف ناراً ولها بل هي مثلها او اعظم فان ما حصل من جبال النار من الانلاف والمضار حصل مثله من جبال الماء كما هو مذكور في التواريخ وقد شوهد انه انفتحت فوهة من هذه الجبال بعض ساعات وقذفت ماء وطيناً فاغرقت مدناً وقرى واتلفت ولايات واغرقت اهلها وصيرتها بعد ان كانت معمورة بالناس واصناف التجارة قحمة خراباً لا تجد فيها يوماً ولا غراباً مثل ما انفق في سنة ١٧٩٢ من الميلاد في جبل بابانريانج اعظم الجبال النارية بمجزيرة جافا وهوان الجزء الاعلى من الجبل تمزق واتخذت منه قطعة بقوة وارتفعت في الجو ثم سقطت على الارض فاهلكت اربعين قرية باهلها وخرج من الجبل قناة كبيرة من الماء الساخن فمالت فجوة كبيرة ولم تزل سائحة في جميع الجهات وفي بعض الاوقات

نظهر فيها عيون يخرج منها طين اسود مختلط بالماء الحار ويزى  
من جميع مسام الحبل دخان ويسمع له اصوات تشبه صوت المطرقة  
ولذلك سمي هناك بجبل المطرقة

والجبال الشامخة يندر فيها اتصال سيل المياه والمواد الصلبة  
بل الغالب فيها ان تكون متقطعة وبعضها لا يقذف الا طيناً  
او مادة تشبهه كما يشاهد ذلك في جبل (اكوا) اي جبل الماء وهو  
مرتفع فوق سطح البحر باربعة الاف متر فلا يقذف الا ماء ولذلك  
سمي بجبل الماء

وكذلك سنة ١٥٤٠ ميلادية فتح فيه فوهة فخرج منها ماء  
دفعه واحدة فكان سبباً لازالة جزئه الاعلى وتمزيقه ومن كثرة  
سقوط احجاره وقذف مواده تعدى ضرره الى ما جاوره من البلاد  
فاتلف اكثرها واضطرت الاهالي لنقل التخت بعيداً عنه وكثير  
من جبال جزيرة جاوا وجزيرة فيليبينه لا تقذف في هيجانها الا  
طيناً مختلطاً بمواد بركانية واكثره منجمد بمواد قابلة للالتهاب  
تستعملها الاهالي وقوداً للنار

وفي سنة ١٧٩٢ في جزيرة كدوبو قذف احد جبالها النارية  
مقداراً عظيماً من الماء والطين فاتلف بذلك جميع الاراضي  
المجاورة له واغرق خمسة وثلاثين الف نفس

واكبر من هذه الحادثة ما حصل في سنة ١٧٩٧ في احد  
جبال دائرة الاستواء بالقرب من كنبوم من جهة الجنوب من جبل

تويجوراها فقد تقل ان الجبل انشق من اعلاه الى اسفله فتدهدت منه جهة فاعتبها اندفاق المواد الطينية المحبوسة في جوفه فملاّت مسافة هناك بين جبلين وارتفعت الى مائتي متر في عرض ثلاثمائة وحبست المياه التي كانت جارية هناك

وبالتأمل في حوادث هيجان هذه الجبال المائية وكيفياتها والجبال النارية ومقذوفاتها نجد ان لا فرق بينها الا انها تارة تقذف من اعلاها وتارة من جوانبها وبذلك يستدل على ان القوى الفعالة في بعضها لا تخالف القوى الفعالة في الاخرى الا في زيادة القوى وعدمها

وغالب هذه الجبال لا يوجد الا بالقرب من شواطىء البحار وسواحل الجزائر وهي كثيرة والمشهور منها باوروبا الجبال الموجودة في نواحي جبل قامار على ساحل بحر الخزر والجبال الموجودة في جهتي بغاز بانيكالي الجامع بين البحر الاسود وبحر ازوف فما كان في جهة الشرق فمواده طينية مختلطة بغازات نارية وقذفه متقطع وما كان في جهة الغرب ليس كذلك بل قذفه مستمر في أي الفصول الا ان قذفه في الصيف أكثر منه في الشتاء وهناك جبال اخر مثل ما ذكر اعرضنا عن ذكرها لاجل الاختصار

وهذه المقذوفات منها ما يكون في فصل الشتاء فتكون المواد المقذوفة طيناً مائعاً لا خلطاً بها بياه الامطار ويخرج معها دخان وتكون شديدة الحرارة تصاعد المياه وتجدد بالسطح ويخرج

الدخان من فتحات بالسطح او يقفل عليها فيرتفع سطحها في هيئة  
مخاريط تعلق سطح الارض فيجس البخار الى ان تغلب قوته  
تماسك المادة فيقذفها ويخرج الى الجوى ويستمر الحال على ذلك الى  
ان ياتي فصل الشتاء فتذوب المواد الطينية وتكون كما كانت  
في العام الماضي وهكذا

وقد شوهد في بعض جبال البحر الهندي ان هناك ارتباطاً  
بين اوقات القذف واوقات المد والحزر فيزداد القذف في اوقات  
المد حتى يسمع له دوي وقرقرة داخل الحبل وربما تكون المواد  
المقذوفة حارة وفي الغالب لا تزيد على الحرارة الجوية ويتنص في  
اوقات الحزر

فقال الشيخ وهل الى الان لم يصل احد لمعرفة الاسباب  
المؤثرة في جوف الارض على المواد المترتبة منها طبقاتها حتى انها  
تقذف تارة مواد جامدة مع دخان وهب وتارة ماء ومواد طينية  
وتارة لا يكون الا ماء وتارة طيناً يشبه الوحل فلا بد لهذا  
الاختلاف من اسباب مختلفة لانها لو كانت واحدة لكان خروج  
الماء بكيفية واحدة وقد قرأت في بعض الكتب فرأيت فيها ان  
بعض التجار مر ببعض الحبال فرأى فيها عيون ماء بعضها حار  
وبعضها بارد ولم يكن بين مجراها الا مسافة شبر وحكى بعضهم  
ان هذه العيون منها ما يكون نافعاً للشرب والري ومنها ما لا  
يتنفع به لتغير طعمه ورائحته وقال بعضهم ان من هذه العيون ما

يكون حاراً جداً لا يستطيع الانسان وضع يده فيه حتى ان بعض القاطنين بالصحاري القريبة من هذه العيون يسوي طعامه على حرارته فكل هذه الاختلافات تدل بلسان الحال على العجز عن البحث في هذا المجال وغاية ما وصل اليه فهمي وتخيلتي وهي قياس ما ثبت بالعيان على ما ورد في القرآن من قوله تعالى في كتابه المكنون الذي جعل لكم من الشجر الاخضر نارا فاذا انتم منه توقدون وعلى ما نقل عن العرب من قولهم في كل شجر نار وعلى ما قيل في خشب المرخ والعفرارها نوعان من شجر البادية اذا احنك منها غصن بغيره صار نارا فاظن ان نار هذه الجبال وما ينشأ عنها من الاحوال من هذا القبيل وان السبب هو احنكك بعض الصخور بحكمة يعلمها العالم القدير فتصادف بعض مواد نارية كالكبريت او غيره فينشأ عنها ما ذكر من البراكين فقال الانكليزي قد ذكرت لحضرتكم السبين اللذين نسب اليهما علماء هذا الفن جميع الاحوال البركانية سواء كانت المواد المهذوفة صلبة او مائعة وهما الماء والنار وان من قال بالاول يقول ان في جوف الارض اخلية عظيمة كالمغارات يعلو بعضها بعضاً وبين تلك المغارات والبحر فتحات موصلة بعضها ضيق وبعضها متسع وهذه الموصلات تارة تكون متفرقة كالانهر والمخجان وتارة تكون غير متفرقة وبينها وبين بعضها اتصال وكذلك بينها وبين البحر والفيجوات والمغارات وان ماء البحر متى انصب في هذه الموصلات

ازدادت حرارته وكانت كحرارة الطبقات الصخرية التي يمر بها  
واستدلوا بالتجربة على ان حرارة الماء تزداد كلما ازداد انخفاضه  
في الطبقات الارضية بقدر ثلاثين متراً فاكثروا اذا وصل الماء  
في الانخفاض الى عمق الف متر كانت درجة حرارته مائة درجة  
ومع هذا تبقى سائلة بسبب ثقل الطبقات التي فوقها ولا تتغير  
المياه عن حالة السيالان الا اذا سفلت وانخفضت الى الف  
وخمسمائة متر فحينئذ تكون درجة حرارتها هناك خمسمائة درجة  
تقريباً بمقتضى الحسابات ويوجد في هذه الابخرة قوة على دفع الماء  
الذي ارتفاعه الف وخمسمائة متر ما لم يطرأ مانع وفي هذه الحالة  
تصعد الابخرة وتتدف من خلال الطبقات الارضية وتخالط  
بغيرها من الطبقات الصخرية المحترقة الذائبة بالحرارة ومتى بلغت  
قوة الابخرة حد العظم في الذائبة من الصخور دفعتها الى اعلا  
وقذفتها من الفوهات النارية الموجودة قديماً ان كان التأثير عند  
فتحها نحوها والا اثرت على ما فوقها وفتحت فتحة فيما حاذها تكبر  
وتصغر على حسب القوة الموجودة وربما بلغت ثلاثين الف متر  
في الطول ومائة وخمسين الف متر فاكثروا في العرض فتخرج  
المواد المقذوفة منها الى سطح الارض وبتوالي الزمن وتراكم المواد  
المقذوفة من جوف الارض وسقوطها في بعض الفتحات ينسد  
معظمها ولا يبقى منها الا فتحة او بعض فتحات وعلى طول الزمن  
ينشأ عنها سلسلة جبلية او جبل عظيم او غير عظيم على حسب

الاحوال فان كانت القوى الفعالة قريبة من سطح الارض ودفعت مواد ذائبة الى فوهات البراكين تكون فيها شبيهة ببرك الماء تزيد وتنقص تبعاً لقوة السبب وضعفه وكثيراً ما يحصل كسر الجروف بحسب قوة سيلان المواد المتدفقة على الارض المجاورة وتخرّب أكثرها وتارة يكون انصبابها في البحار فتجعل فيها لساناً ممتداً الى بعد عظيم من ساحله الاصيلي ويتغير شكل شواطئه وبحسب التأثير الواقع على المواد فاما ان تكون صلبة واما ان تكون طينية ويختلف لونها ورايجتها بحسب المواد فان كان التأثير الباطني واقعا على برك من الماء مخزونة في جوف الارض دفعته في هيئة البراكين واسالته كما هي حالة الشلالات وكثيراً ما وجد في هذه المياه حيوانات صغيرة واسماك لا تعيش

واما وجود الماء الحار بالقرب من الماء البارد وعدم صلاحية الاول للشرب وصلاحية الثاني له فسيبه ان اصل البارد المياه التي تشربها الارض من الامطار والثلوج وغيرها واصل الحار من المياه السفلية واخلاف طعمها ولونها من المعادن والمواد التي تركبت منها الطبقات السفلية التي مرت بها في طريقها فكيفت بكيفيتها ويجوز ان يكون ما تخيلت بعض الاسباب فانها ظنون متفاوتة قوة وضعفاً

## المسامرة التاسعة عشرة

## شذور

وبسبب دخول الوقت انقطع بينهما الكلام وانصرف الشيخ ليقضي ما عليه من فرائض الاسلام وبات تلك الليلة متفكراً في صنع الله متدبراً في اصناف المخلوقات وعجائب الكون والكائنات وفي كيفية الاسباب المدبرة بقدرة الله وعظمته سبحانه وتعالى ووجود هذا النظام في طبقات الارض السفلى وفوق سطحها وفي السموات العلى وان لا حركة الا وهو مبدعها ولا ذرة الا وسبق في علمه مستقرها ومستودعها لا يخفى عليه شيء في الارض ولا في السماء يعلم عدد الرمال ومكابيل الجار ومناقيل الجبال لا اله الا هو وهو بكل شيء عليم

وبينا هو يناجي ربه ويهمل واذا بولده برهان الدين لتقبيل يده قد اقبل وعلى حسب عاداتها من وقت نزولها بالسفينة في تشاركها في تعلم اللغة الانكليزية حصلت بينهما المكاملة فيما تعلماه وما اكتسباه من اللغة الانكليزية ولكن كان ولده قد فاق عليه لانه كان طول يومه بين ركاب المركب والمراكبية فكان يسال عن اسم كل شيء رآه وعن معنى كل لفظ سمعه ويكتبه وللطفه ولين طبعه وعذوبة الفاظه وادابه مالت اليه قلوب من بالسفينة

واحبوه ولذكاه فطنته وقوة حافظته كان ما يحفظه في اليوم  
 الواحد يعدل ما يحفظه غيره في ايام فتقدم تقدماً تاماً وحفظ  
 كثيراً من الكلمات والعبارات فاعجب والده حسن حالته فباسطه  
 وسأله عن صحته فاجابه انه بعناية اللطيف الخبير وبركة دعائه  
 في صحة تامة لا يعنيره ملل ولا فتور ولا كسل ثم اخبر والده  
 انه سمع من بعض الركاب انهم في غد يقربون من البر وتظهر لهم  
 المدينة التي هي نهاية مقصدهم وانه من امس اشتغل بكتابة مکتوب  
 الى والدته ويرغب ان يذكر لها فيه بعض نوادر رآها وامور  
 غريبة عن والده وعن الخواجا رواها خصوصاً وقد عثر في السفينة  
 على شخص سبق له اسفار كثيرة في جميع البحار وعان من احوالها  
 احوالاً وكابد في اسفاره ما لم يكابده احد وله معرفة بقليل من  
 العربية تعلمه في بعض جهات سواحل افريقيا فكتبت عنه  
 كثيراً ما سمعته وذلك الشخص اسمه جوس اي يعقوب وانه رغب  
 في مفارقة البحر الان وان يتأهل ويقم في احدى الجهات ليستريح  
 من مشاق البحر لكنه لا يتيسر له ذلك لكونه فقيراً لا يملك شيئاً  
 غير ما عليه من الثياب وله تاريخ عجيب ذكر لي بعضه واخبرني  
 انه يرغب في بقاءه عند الخواجا صاحبنا بصفة خادم وهو  
 يرجوك في التوسط له عنده فان فعلت ذلك اکتسبت ثوابه واظن  
 ان الخواجا لا يخالفك فوعده والده بذلك واثني عليه مكافأة  
 على تذكره لوالدته ودعائه بالبركة ولتقدمه عليه في اللغة الانكليزية

كما تقدم قال له من باب المزاح لا تذكر لوالدتك تقدمك عليّ  
 في اللغة فضحك برهان الدين وطأطأ راسه حياءً منه فقبله الشيخ  
 بين عينيه وسأل الله ان يفتح عليه ثم انحاز كل منهما الى مضجعه  
 ولما حان وقت نداء الفلاح واسفر نور الصباح قام الشيخ على  
 حسب العادة صلى ما كتب عليه وقرأ اوراده وكذلك ولده  
 برهان الدين صلى وقرأ ما تيسر من القرآن ثم حضر الخادم لم  
 بالشاي واللبن على حسب العادة الانكليزية فأخذ كل منهما  
 ما تيسر وبعد ذلك خلع كل منهما ثيابه ولبس ثياباً نظيفة لعلهما  
 بالخروج من السفينة في هذا اليوم ثم خرجا الى ديوان السفينة  
 الذي هو محل اجتماع الركاب فاقاما به برهة مع الناس واذا  
 بالخوaja قد حضر وحياتها وسألها عن صحتها فشكرها

وقال الشيخ ان الذي ذكرته فيما يتعلق بجبال النار وكيفية  
 ثورانها وانواع مواد متذوفاتها والقوى الفعالة في جوف الارض  
 وما ينشأ عنها من المحوادث الفظيعة لعجيب ولولا ان الارادة  
 الربانية اقتضت مشاهدتي لهذا اللهب والدخان وسماعي لذلك  
 الدوي والهيجان لم يكن في علمي من ذلك اثر ولا كنت اثق فيه  
 بخبر غير اني كنت رأيت في بعض الكتب بعض كلمات تدل  
 على ان هناك جبلاً شامخاً واخرى نارية لكنها كانت غير مفيدة  
 للعلم اليقيني الذي علمته بالمشاهدة وتفصيل حضرتم وكنت لا  
 ادقق النظر فيها لاني كنت في ذلك الوقت لا اري لها اهمية

ثوجب الاستغفال بها وكذلك في بعض الاوقات كانت الطلبة  
 تخوض في هذا الحديث فكان يقع بينهم الاختلاف ويطول النزاع  
 ولكون الجامع الازهر هو المدرسة العامة يهاجر اليها لطلب العلم  
 من جميع الاقطار كخزائر العرب وارض الحجاز وبغداد والعجم  
 والتتر والاتيراك والبربر وبلاد السودان والمغرب فكان الكلام  
 بينهم في هذا المعنى يوجب الكفاح بسبب اخلاف آرائهم فمنهم  
 من يعد مثل هذه الحوادث مستحيلاً ومنهم من يجوزه ولا يقيم  
 عليه دليلاً ولعدم اهمية مثل هذه المسائل بيننا كما نرى ان المنازعة  
 فيها والاصفاء اليها لا طائل تحته ومن كان في نفسه  
 على يقين من ذلك لكونه رآها في بلاده كان مجبوراً على عدم  
 التكلم فيها بالكلية لانفراده وكثرة الاخرين واذا اضطر الى الكلام  
 فيها قال يقول العموم لئلا يجبر نفسه الى ما يوقعه فيما وقع فيه  
 غيره ممن خالف راي الأكثر لانه يوجد في بعض الاحيان من  
 جملة المنكرين بعض من اهل الاعتبار والشهرة ولا يخفى ان مخالفة  
 رأي مثل هؤلاء ربما توقع في ضرر وقد استولت علي الليلة الفكر  
 فلم اتم الاقرب السحر فرصفت الزمن في التأمل في صنع اللطيف  
 الخبير البديع التديبر من جبال نصيها وفي مواقعها رتبها وبحار  
 ارضها ومانافع الناس سخرها وسيرها وفي بطون الاودية وشواهد  
 الجبال صيرها وقدرها ولو اردت جمع ما علمت ضمن كتاب  
 لكان هدية لاولي الالباب الذين يتفكرون في خلق السموات

والارض قائلين بلسان الاعتبار ربنا ما خلقت هذا باطلا انفساً  
 هنالك قوم كالسوقة ان عرضت لهم بذلك قد حوا في عقيدتي ورويتي  
 بما لست فيه فهم اناس دأبهم العناد والسعي في الارض بالفساد لا  
 يميلون للمعارف ولا يحسنون من الاشياء غير الزخارف حظ  
 احدثهم ان ياكل وينام ويتزيا بزى اهل الاسلام اذا سمع وصف  
 العجار والجبال قال ذلك لا يثبت الا بحض الخيال وكل ما  
 ليس في كتاب الله ضلال والاشتغال به بئس الاشتغال غافلاً  
 عن قول رب العالمين . وفي الارض آيات للوقنين . وفيهم من  
 يخشى من صولته وَيَرْهَبُ مِنْ هَيْبَتِهِ فربما كان داعية للكفان  
 وسبباً من اسباب الحرمان

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ذم الجاهل ومدح العلم وانها  
 ضدان لا يجتمعان وان الجاهلين لاهل العلم اعداء وهذا امر مجمع  
 عليه بين اهل الملل فلا يتاخر محب العلم عن تعلمه وتعليمه ونشره  
 لنفع اهل وطنه وغيرهم لخوف مضادة بعض افراد او عدم اتباعهم  
 لرايه ومتى كانت الحتمات ثابتة بالبرهان العقلي او الثلي عن اساتذة  
 افاضل فلا عليه من انكار المنكرين وذم الجاهلين فلا يمنعه ذلك  
 عن ارشاد اهل وطنه واخبارهم بما وقع تحت نظره وشاهده خصوصاً  
 اذا كان لهم في معرفته، فائدة بل الواجب عليه حينئذ الاضاح  
 به واشهاره فانه وان لم يصدق الكليل فقد يصدق البعض فيكون  
 محضداً له فتحصل له به المساعدة في نشر معلوماته وعلى تداول

الايام تكثر طائفة اهل العلم وتعلو على طائفة اهل الجهل وتقدم  
 الملة شيئاً فشيئاً وتوضع البركة في ارزاقها وتوسع ثروة اهلها بانساع  
 دائرة العلم بين علماءها وساسة امورها وتكون كغيرها من الملل  
 المتمدنة . الا ترى ان البلاد الاوروبوية بعد ان كانت في حالة  
 التوحش والخشونة قد انتقلت الى درجات الكمال وبلغت في  
 الاعتبار والسطوة ما لم يبلغه غيرها من الملل . هل لذلك سبب غير  
 اتساع دائرة العلم والمعلومات عند اهلها مع ما اضافوه الى ما تعلموه  
 ما اخذوه من الامم المجاورة لهم خصوصاً ما اخذوه عن اهل الشرق  
 فانا نرى في كتب التواريخ ان حرب القدس الذي امتد زمناً  
 طويلاً كان سبباً عظيماً في اخلاط اهل اوروبا باهل اسيا ومن  
 ذلك نشأ اتساع دائرة العلم باوروبا واخذت من ذلك الوقت  
 جميع سبل الثروة في النمو والزيادة ولذلك حصل في جهاتهم  
 للفلاحة والتجارة والصناعة والملاحة التقدم الذي لا مزيد عليه  
 فهذه الواقعة وان تلف بها كثير من الاموال والانفس الا انها  
 كانت سبباً في تقدم اهل اوروبا لانهم تعلموا من المشرقين ما  
 عندهم من المعارف والعلوم فنقلوه الى بلادهم واشتغلوا بهذه المعارف  
 واستعملوها في ارضهم بمناسبة اقطارهم فمن وقتئذ الى الان لم تنقطع  
 سبل الاخلاط بل زادت زيادة بالغة بسبب الطرق والوسائط  
 التي استعملوها لتسهيل السياحة في البلاد البعيدة براً وبحراً وازداد  
 بينهم الامن والالفة وما من سنة تمر الا وترى الوفاً من اهل اوروبا

تسبح بالارض فلا يرون بشيء الا رسموه ولا يرون اثرًا الا تأملوه  
وربما شرحوه وفي بلادهم نشره وبهذه المثابة وصلت اهل اوروبا  
الى التقدم في العلوم واستكشاف بقاع مستعبدة فاستخذوا عليها  
وتغلبوا على اكثر البلاد الهندية والصينية و جلبوا بهذه الطرق الى  
ارضهم جميع خيرات البقاع وجمعوا في بلادهم معارف الملل المتفرقة  
فوق سطح الارض وفي وسط البحار المتسعة فوصلوا بسعيهم  
واجتهادهم الى اعلى درجة في التمدن حتى صاروا في عصرنا هذا  
منفردين باكثر الصنائع متمتعين بين جميع الملل بالرفاهية والحرية  
التامة . رأيم في كل امر نافذ وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ ولا  
شك ان الذي اوصلهم الى هذه الدرجة ليس الا العلم وكثرة  
السياحة اذ لو اقتصرنا على معلوماتهم الاولية ومعارف ابائهم في  
المجاهلية لما وصلوا لشيء من ذلك بل كانوا الان يجهلون كيفية  
زرع النبات خصوصاً النافع منه لغذاء الانسان وقوته فانهم انما  
تعلموا ذلك من المشرقين كما تعلموا منهم اصول التجارة والملاحة  
هذا ولم يكونوا في سابق الزمان على ما تراه الان من تحرير العلوم  
والبحث في مسائلها واستخراج ثمراتها وتضمينها الكتب ونشرها في  
العالم بل كانوا لا يشتغلون بغير كتب الديانة محظوراً عليهم  
النظر في غيرها كائناً ما كان فمن كان يتكلم بخلاف ما يتكلم به  
القسس في الكنائس ووصل خبره اليهم كان عرضة لانواع مختلفة  
من الاهانة . فمنهم من مات مسحوناً ومنهم من قتل ومنهم من حرق

بالنار ومنهم من نفي من وطنه فبقي طول عمره في قيد الذل  
 والمسكنة ومع هذا كله فبعد زمن غلبت غصبة الحق لانهم كلما  
 رأى الناس اهانتهم عطفوا عليهم ومالوا بقلوبهم اليهم فزادت شهرتهم  
 ورغبت الخلق في سماع اقوالهم ونصروهم واحفوا بهم حتى كبر جاههم  
 وعلت كلمتهم وظهروا بمذاهب فاتبعها الناس لما وجدوه فيها من  
 المنافع حتى انتشرت بذلك علومهم لما روا فيها من الاشياء النافعة  
 والاختراعات المفيدة كالمطبعة فقد اوصلتهم لشر طرقهم وعلومهم  
 بين الناس وظهرت الكتب من كل فن من جميع الاجناس  
 وتحصل عليها القبر والغني والذكي والغبي وامتدت بها اغصان  
 شجرة العلم الى اطراف البلاد فاستوى في اقتطاف ثمارها سائر العباد  
 ومن ذلك اخذت العلوم في الاتساع وكثر المخترعون والمؤلفون  
 حتى كان من المشتغلين في كل فرع من العلوم والصنائع  
 والمحرف عدد غير متناه وما من يوم الا وتظهر كتب جديدة  
 واختراعات مفيدة

فقال الشيخ تبين من هذا الكلام ان المانع من تقدم العلوم  
 والصنائع في البلاد الاوروباوية كان من قبل قسس الديانة  
 العيسوية لكن الامر في البلاد المشرقية والديار الاسلامية على  
 خلاف ذلك اذ ليس في احكام الديانة ما يمنع من التقدم في اي  
 علم من العلوم النافعة ديناً ودنيا بل كتاب الله واحاديث انبيائه  
 وسائر رسله آمرة بذلك وما من نبي من المتقدمين ولا عالم من

العالمين الآ وكان له صنعة يتقوت منها

فقد سئل بن عباس عن صنائع الانبياء فقال كان آدم حراثاً وكان ادريس خياطاً وكان نوح نجاراً وكذلك زكريا وكان هود تاجراً وكذلك صالح وكان ابرهيم زراعاً وكان اسماعيل قنصاً (اي صياداً) وكان اسحق راعياً وكذلك يعقوب وشعيب وموسى وكان يوسف ملكاً وكذلك سليمان وكان هارون وزيراً وكان الياس نساجاً وكان داود زراداً (اي يعمل زرد درع الحديد) وكان عيسى سياحاً وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين مجاهداً ولذلك قال . جعل رزقي تحت ظل رمحي . وكان صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عزوجل يحب المؤمن المحترف ومن امسى كالآ من عمل يده امسى مغفوراً له

وكان صلى الله عليه وسلم يحث على البكور (اي السعي في اول النهار) في طلب الرزق وغيره من حوائج الدنيا ويقول اللهم بارك لامتي في بنكورها . وقال الشافعي رضي الله عنه احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس . قال حكيم من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير وقال بعض الحكماء الحركة بركة والتواني هلكة والكسل شوم وكلب طائف خير من اسد رايض ومن لم يحترف لم يعتلف . وسأل معاوية سعيد بن العاص عن المروءة فقال العفة والحرفة

قال انس رضي الله عنه جاء رجل من الانصار (اي اهل

المدينة ) الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله شيئاً فقال له  
اما في بيتك شي قال بلى جلس ( اي فراش ) نلبس بعضه ونسبط  
بعضه وقعب ( اي انا ) نشرب فيه من الماء فقال صلى الله عليه  
وسلم ائني بهما فاتاه بها فاخذها بيده فقال من يشتري هذين فقال  
رجل انا آخذها بدرهم فقال صلى الله عليه وسلم من يزيد على  
درهم مرتين او ثلاثا فقال رجل بدرهمين فاعطاها اياه واخذ  
الدرهمين فاعطاها الانصاري وقال اشتر باحدها طعاماً فانبذه الى  
اهلك واشتر بالآخر قدوماً فائني به فاتاه به فائت فيه رسول  
الله صلى الله عليه وسلم عوداً بيده ثم قال اذهب فاحنط وبع  
ولا اريتك خمسة عشر يوماً ففعل ثم جاء وقد اصاب عشرة دراهم  
فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً فقال رسول الله صلى الله عليه  
وسلم هذا خير لك من ان تجيء بالمسئلة نكتة في وجهك يوم القيامة  
وكان صلى الله عليه وسلم كثيراً ما يقول لان يخطب احدكم حزمة  
على ظهره خير له من ان يسأل الناس وكان صلى الله عليه وسلم  
يقول كثرة المسئلة كدوح ( بضم الكاف اي قروح ) في وجه صاحبها  
وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول اني لأرى الرجل  
فيعجبني فاقول هل له حرفة فاذا قالوا لا سقط من عيني

أفبعد هذا كله يتوهم ان اندثار بعض العلوم والصنائع في  
بلاد العرب من جهة من سلف من علماء الملة مع انه ما من فن  
الآن ولم فيه التأليف المفيدة ولا حرفة الآن ولم فيها الاختراعات

العديدة ومن زعم في المشرقين غير ذلك فقد ماخرج الحق عن موضعه اما بعداوة او حسد او نحو ذلك بقصد تحويل الافكار عن طريقة الحق الى طريقة الباطل ولم ينكر احد من النوع البشري فضل الإسلام وتقدم اهله في اي الفنون والصنائع فهذا امر لا ينكر وظاهر كالشمس في رابعة النهار بل اظهر لان الاسلام كان سبباً في احياء ما اندرس من الفنون والصنائع وجمع ما تفرق منها في اقاصي المواضع احياء التمدن القديم بدرىاق اسراره النافعة وانزال ظلمة الكون بانواره الساطعة اذ هو الاساس الحقيقي والمنبع لما يسمونه بالتمدن الجديد المتبدع فلولا دين الإسلام وعلماء العرب لضاعت العلوم القديمة باسرها لانا نرى في الكتب العربية القديمة كثيراً من المستكشفات التي تعزى الان الى الافرنج ومن تتبع كتب السير والتواريخ وجد صحة ذلك وهل ينكر احد ظهور شذمة قليلة من بلاد العرب ملكت اكثر بلاد الدنيا في ظرف مدة يسيرة وفي اقل من مائة سنة صارت دولة اكبر من دولة الاسكندر واظهرت تمدناً ابهى من تمدن اوربا في عهد اغسطوس اكبر القيصرية ولو نظر لحال العلم قبل الإسلام عند اليونانيين والرومانيين ونحوهم من الهند والصينيين لوجد انه كسبح بلا ثمر او بحباب بلا مطر في ظهور علماء الإسلام ظهر اصله واتضح وشاع نفعه وورج وبعده ان كانت الخلق غارقة في بحار الاوهام لا يتخيلون للمعلوم الا كاضغاث احلام ظهر لهم بظهور هذا الدين

علوم مؤسسة على قواعد حقية واتضح الدليل وتبدد شمل الاباطيل  
 وامتدت اغصان التمدن من ارض الاندلس الى نهر الكنج ببلاد  
 الهند وعمت فوائده جميع ارض الاسلام فكانت الثروة والقوة  
 للمسلمين لتشبثهم بفوائده وتمسكهم باصول قواعده وما من احد من  
 ذوي الاطلاع الا ويعلم ذلك ولا ينكره وبالجمله فينبغي لجميع  
 علماء اوروبا ان يدعوا للعرب بالتقدم في الفضل والعلم وان  
 كان لم يسمع للعرب اسم ولا ذكر الا من وقت ظهور الاسلام  
 فما يعزى للعرب يعزى الى اهل الاسلام فحيث يكون الاسلام  
 هو المنبع للتمدن والعلم اذ لم يظهر العلم والتمدن بالبلاد الاوروباوية  
 الا بعد ظهور الاسلام بخالف سنة وحيث كان الامر كذلك  
 فحقها ان لا ينسب الا لاهل هذه الملة الا انه كما يكون للتقدم  
 اسباب فله موانع وذلك لانا لو شبهنا اهل الملة بالعائلة كان  
 رئيس الملة كرئيس العائلة وكما ان رفاهية العائلة وسعادتها تابعة  
 لحسن ادارة رئيسها كذلك الملة وكما ان تربية الاطفال موكولة الى  
 راي والديهم فكذلك اتساع دائرة الملة موكول الى حسن راي من  
 يسوسها ويدبر امرها وكما تحصل الشورى بين الوالدين في امور  
 العائلة والذرية ويكون تقدمها وعدمه تابعا لما ينخط عليه رأيهم  
 وانه يلزم ان يكون لمدير امر العائلة علم تام بما يلزمها وما يلزمها  
 حالا واستقبالا وان يكون ذا بصيرة بمجواتث الامور وتقلبات  
 الدهور ليبنى قوانينهم على قواعد متينة واصول ثابتة مكيئة ويسلك

بهم في امر المعيشة الطرق الموصلة الى المطلوب والراحة في الدنيا  
 على الوجه المرغوب فان كان الامر بخلاف ذلك او كانوا على  
 جهل مما يلزم لذريتهم في حال حياتهم وبعد ماتهم او كانوا مختلفين  
 في المعرفة اختلفت آراؤهم واختلفت افكارهم واضمحلت حال العائلة  
 لعدم اتفاقهم على ما يصلح لحالم وعن قريب يحيط بهم الفقر ويحل  
 بساحتهم جيش الذل والتهمر ويدخلهم في قيد الاسر وسجن الذل  
 طول الدهر ما لم يقبض الله لها من بعض افرادها من يزيل شينها  
 ويزين شأنها فكذلك الملة تابعة في سلوكها طريقة رؤسائها  
 وملوكها وما انحط عليه رأي جمهور رجالها فان كانت رجال  
 الجمهور من ذوي المعارف الذين مارسوا الامور واطلعوا على  
 اسباب التقلبات التي حصلت في سابق الدهور قد بيضت  
 الحوادث سواد ملتهم واخلفت التجارب لباس جدتهم وارضعهم  
 الدهر من وقائع الايام اخلاف اخلاق ذريته وعلموا بكثرة الممارسة  
 تصاريف اقداره واقضيته واحاطوا بمجوات اهل ملتهم وحوادث  
 الملل المجاورة لهم والبعيدة عنهم عالمين باسباب السعادة فيحشون  
 الرعية عليها واسباب الشقاوة فينهونها عنها فما وجدوا فيه نفعا  
 لاوطانهم جلبوه او ضرراً اجتهدوا في ازالته واجنبوه كان ذلك  
 سبباً في ازدياد البركة وحصناً من الوقوع في مهاوي الهلكة فحينئذ  
 يصفو بهم الزمان ويعيش في ظل عدلهم كل انسان وان كانوا من  
 ذلك بالعكس وقعت الرعية في العكس بلا لبس فقد قيل عدل

السلطان المنفع من بخصب الزمان

وكتب بعض عمال عمر بن عبدالعزيز يشكوا إليه من خراب  
مدينته ويسأله مالا يرمنها به فكتب إليه عمر قد فهمت كتابك  
فاذا قرأت كتابي فخصن مدينتك بالعدل ونقّ طرقها من الظلم  
فانه امرتها والسلام قال

ولم أر مثل العدل للملك رافعا

ولم أر مثل المحور للملك واضعا

وفي رواية ان عامله كتب اليه هدم الدمص وعدم النص  
وان روضها رابض ومرعى رياضها بارض وانها بحاجة الى عمارة  
وزراعة وحرثانة ومناعة

فكتب اليه عمر ما ذكر (والدمص بكسر فسكون كل صف  
من حجارة الحائط الا الاسفل فاسمه رهص بزنته والعرق يتخين  
بهما والنمص بكسر فسكون اثار التبت بعد رعيه والربض  
يتخين المراد به الماشية ورايض ضعيف هزيل من قلة المرعى وهي  
لزيد بلفظ يارض)

ومن طالع توازيج المتقدمين وجد ان جميع الملل في سيرها  
مائة بسير مدبر امورها ان خيرا فخير وان شرافسر ومن تأمل مصر  
نما كانت عليه قبل استيلاء المرحوم الحاج محمد علي باشا ونظر  
الى حالها الآن وجد ان لا نسبة بين الحاليين ولا مناسبة بين  
لزمين ففي الازمان السابقة كان ينذر وجود الإفترنج في بلادنا

وإما الآن فلا أقل من وجود مائة ألف نفس وكذلك كان لا  
 يوجد واحد من أبناء جنسنا يتكلم بلغة الأجنبية وإما الآن فيوجد  
 اللف يتكلمون بلغات متعددة ولم يعلم قبله ان احد المصريين سافر  
 الى بلاد اوروبا وإما في زمنه فما من سنة من السنين الا والمصريون  
 في هلب وإياب من مصر الى اوروبا ومن اوروبا الى مصر ما  
 ذاك الا لتعلم العلوم النافعة والصنائع المتنوعة وذلك خلاف  
 المكاتب الصغيرة التي تراها فوق الاسئلة فلم تكن حالتها فيما تقدم  
 من الزمان كحالتها التي هي عليها الان حيث ضبط ريعها وحفظت  
 من الضياع رباها وضياعها وتنوعت فيها فنون التعليم زيادة عما  
 كانت عليه في الزمن القديم حتى صارت ملحقة بالمدارس الميرية  
 في الترتيب والمقاصد الخيرة فضلاً عما حصل في هذا العهد من  
 تقدم الزراعة واتساع طرق الفلاحة وازدياد النباتات وتسهيل  
 طرق الري في جميع الجهات وكذلك الفنون تسرت لطلابها  
 اسبابها والصنائع كثرت بين المصريين اربابها وكذا العلماء والاطباء  
 والحكماء الالباء الذين عم نفعهم البلاد واشتهرت مزاياهم بين جميع  
 العباد فبسببهم ارتفعت العاهات وامن القطر من جميع الآفات  
 وبما رتبته من القوانين الصحية ودبره من المواد الطيبة تخلص الناس  
 من الامراض والعلل كالجذام والزهري (اي المبارك) والبرص  
 والحرب والمجدري وكذلك نشأ من ابناء الوطن مهندسون اعلمهم  
 تغني اللبيب عن ذكر صفتهم وهكذا في كل صنعة من الصنائع

كالمحدادة والبرادة والنجارة حتى صار القطر بهم غنياً عن سواهم  
 هذا الى من برع من رؤسا في العلوم العسكرية وعلماء مدرسين  
 في الفنون الحربية كل ذلك وغيره اكثر منه لم اذكره للاختصار  
 ما وجد الا بوجود هذه العائلة العلوية احسن الله سعيها وادام  
 سعدتها وبعد ان كان امر الملة بيد الاغراب المسلمين عليها  
 بالسلب والنهب وانواع العذاب صار الان موكولاً الى رأي  
 ابنائها فلوم من الله على هذه البقعة بهذه العائلة ما كان لما تراه  
 اثر بل كان اهل هذه البقعة كغيرهم من جاورهم كالبربر وعرب  
 الشام والحجاز باقين على ما كان عليه اباؤهم واجدادهم من العادات  
 المخالفة عن المزية والمعلومات التي تعزى الى الجاهلية فمن ذلك  
 ثبت ان كل ملة تسير خلف مديريها وجمهور رجالها ومديريها ومعا  
 وصلت اليه الديار المصرية من التقدم لا يخفى ان تربية الملل امر  
 صعب يلزم لها زمن طويل لان هناك عوائد قديمة واخلاقاً راسخة  
 في الازهان ذميمة وافكاراً فاسدة واعتقادات كاسدة فلا تزول بمجرد  
 بعض التجديدات بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم في السن  
 الى الممات بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان فلا  
 تنعدم بالكلية الا بعد انقراض جميع هؤلاء او اكثرهم فعلى حكم العقل  
 يلزم التربص الى اتقضاء ثلاثة اجيال اعني مائة سنة او مائة  
 وخمسين سنة وسبب ذلك ان الافكار التي لم ترد في كتب المؤلفين  
 ولا نص عليها احد من السالفين وكذلك المشاهدات والاستكشافات

الواردة في كتب السياحات التي لم يشتهر للعلماء فيها كلام ولم يتقدم لاحد بها الملم ربما تقابل بالرد او المعارضة وعدم التصديق والمناقضة فحينئذ يجب اتقاؤها تدريجاً انما من سعادة الملل قد يظهر لها في بعض الاحيان من يحصه الله بافكار عليه ومعلومات ربانية تفوق معلومات البشر فيغير حال الملة في زمن اقل من ذلك بما يدخله من الترتيبات المستحسنة التي تجذب القلوب الى تلك التراتب والتجديدات من الفوائد العامة فتترك اوهامها الفاسدة وتتنازل عن افكارها الكاسدة وتأنف هذه التجديدات وفي الزمن اليسير تتغير الاحوال والطباع والعوائد والاخلاق والاضاع كما هي حالة مصر الآن فان من رآها من منذ عشرين سنة لو رآها الان لا يجد بها ما نظره شيئاً ويرى انها انقلبت وصارت كبقعة من اوروبا مع ان ما جاورها من الاقطار لم يتغير عما كان عليه فهل لذلك سبب غير ادارة وتديبر صاحب الوقت ومشاورته لجمهور رجاله

فقال الانكليزي حاشا ان يكون في فهمي او ميربوهي نسبة تهقر العرب الى الدين المحمدي او انسب اليه المنع من تقدم العلوم النافعة ولو كان كثير من مشاهير بلادنا وعلماؤها الف كتباً كثيرة في معارضة الديانة المحمدية وانت تعلم ان طبعي لا يميل الى البحث في الاصول الدينية ولا الى المجادلة في الاحكام الشرعية وان ذلك ليس من شأنني والذي يجري بيننا من المباحث انما

علي سبيل الاستفادة والافادة بشأن المتصاحبين في الاسفار والتعاريف بين  
 في الافكار ان ياتي كل منها لصاحبه من غامض افكاره بما يسليه  
 من العبارات وان يختار منها ما فيه فائدة مطلقاً سواء كان من  
 مشاهدات الانصار او من مبتكرات الافكار حتي نتأكد بينهم حبال  
 المودة والصفا وتمتد اليهم اسباب الالفة والوفاء متجايفين الجدل  
 متخامين موجبات الملل لان المقصود الموائمة ولا أكد لذلك من  
 المناوذة في العلم والمعلومات وازالة كل ما عند صاحبه من  
 الشبهات من غير ضرر ولا اضرار ولا فخر ولا افتخار وحيث قضى  
 الله سبحانه بين الخلق بالاختلاف فلا راد لما قضاه ولا خلاف  
 فالاولى عدم الخوض في الاصول الدينية والبحث في القواعد المللية  
 بل نعدل الي علوم سواها وتقتصر عليها ولا تتعداها ما يطيب  
 الخاطر ويسر السرائر ويمكن المحب من الضمائر فاقول ولو ان  
 بعض مؤلفي النصرى اطال الكلام في معارضة دين الاسلام  
 لكن كثير منهم ممن صنف الزم نفسه نصر الحق وانصف حيث  
 قرر وافصح وبرهن على حقيقة الملة المحمدية وشهرتها في العلم على من  
 عداها من الموسوية والعيسوية وقد ترجمت من احد المؤلفات  
 الافرنجية نبذة في اثبات تقدم العرب ان اذنت لي قراتها عليك

فقال الشيخ لا باس

فاخرج الخواجا كراسة قراء فيها ما نصه

## المعامرة العشرون العرب

انه فضلا عما استفادته العرب بالترجمة من اللغات المختلفة فلم الفضل ايضا في استكشافات كثيرة امتدت بها حدود العلم الى الغاية واتسعت بها دائرة التقدم بلا نهاية فكانت العرب هي المقدمة للعلوم في الزمن الخالي والاساس لتقدمها في الزمن الحالي فلولا ان حنيناً ترجم علوم الفلك من اللغة اليونانية الى اللغة العربية في عهد حفيد (تيمورلنك) ما امكن (كبلير) الفلكي ان يوسع قواعد هذا العلم بما اضافه اليه بالبحث والاستنباط من الطرق التي كانت مرسومة من قبل عند علماء الفلك من العرب في كتب شتى ومؤلفات لا تحصى اغلبها الى الان موجود بجزائن الكتب باوروبا ومخبأ لم يطلع عليه احد ولم ينكر احد ان العرب لا غيرهم هم الذين حققوا حركة اوج الشمس وان مدارها ليس دائرة منتظمة وانهم ضبطوا مدة السنة

وكذلك يعزى للعرب اثبات النقص التدريجي الذي يتصف به ميل منطقة البروج واختراع المزاويل والربع والساعة الفلكية ذات الرقاص وغير ذلك مما يطول ايراده وهم الذين حرروا كتاب بظلموس الفلكي المعروف بالمجسطي وقياس الدرجة من خط

نصف النهار واليهم تنسب الازياج الفلكية والمجداول الجغرافية  
 واختراع خرط للمساعدة على الملاحة وجوب البحار وقد وجدت  
 خريطة منها في سنة ١٤٧١ ميلادية عند المعلم ( قان ) احد المغاربة  
 الذي كان في ارض ( الجوزران ) ببلاد الهند وقد اخذه معه  
 وسكود وجاما معرفا بحريا الى مدينة ميلغده بجزيرة زنجبار وكان  
 عند اليورق البرتغالي لوحة اي خريطة اخرى من رسم شخص  
 من ابناء العرب يقال له عمر كان يهندي بها في سفره في بحر عمان  
 والمخليج الفارسي

ويعزى اليهم ايضاً من العلوم الرياضية اتصال الخطوط  
 الماسة في حساب المثلثات واستعواض الجيوب بالاوثار وتطبيق  
 الجبر على الهندسة وحل المعادلات التكميلية

ومن مآثرهم الجليلة ومخترعاتهم الجميلة علم الكيمياء الذي  
 كانت تجهله جميع الامم قبل الاسلام وتركيب حمض الكبريت  
 وملح البارود والماء الملكي واستخراج الزئبق وتجهيزه وتجهيز الالكول  
 واستنقاع النيذ وغير ذلك

وزيادتهم في علم النبات نحو الالفين على ما في كتاب  
 الاعشاب تأليف ( دستوردي ) واستكشاف التنائح بين النباتات  
 حتى يتولد بين النباتين نبات ثالث مغاير لها وقد يكون في الشجرة  
 الواحدة صنفان وانشأ بساتين مخصوصة لتنمية النبات والاعشاب  
 وتكثيرها

وفي علم الطب المعالجة بالحزام واستعمال الراوند والتمر هندي  
والمن وورق السنامكي والكافور في التداوي وتفضيل السكر على  
العسل في تركيب اشربة الجلبة

وانشأ اجزاخانات ومدارس لعلم الطب ومجوارها شفاخانات  
لعلاج المرضى ومدرجات لتعليم التلامذة علم التشريح والجراحة  
بالمشاهدة وتأليف كتب ضخمة ورسائل حجة فيما يتعلق بانواع  
الامراض الالتهابية والحميات والسموم وغير ذلك من الدآت  
وفي انواع الحيوانات مؤلفات كثيرة منها حياة الحيوان للمجاط  
وهو يشبه مؤلف العلامة الفرنسي بوفون وانشأ بساين لتربية  
اصناف الحيوانات وتكثيرها

وكذلك لهم في علم الزراعة مؤلفات كثيرة ولم يعزى  
استعمال تقاوي المزروعات اثر بعضها كل زمن بحسبه واخترع  
السواقي ذوات الطوانس والقواديس وبحسن تديبرهم وقوة اجتهادهم  
حصل للزراعة نجاح عظيم حتى وفد اليهم من البلاد المجاورة لهم  
والبعيدة عنهم خلق كثير للاستزاق والاقامة فزاد بالوافدين  
عمارهم وبنابهم سرورهم وهم الذين علموا اهل اوروبا زراعة الارز  
والقطن وشجر الثوت الابيض وقصب السكر وشجر النخل والفتق  
زورد يابونيا وزهر الكاملي الاحمر والابيض ونبات الهليون وغير  
ذلك مما لا حصر له

ولهم في علم السياسة اختراع الاوراق للعاملة بها بدل النقود

ويعزى للعرب من الصنائع اختراع طواحين الهواء والآلات  
المتخذة من الزجاج وبيت الابرّة وعمل الورق ونسج الحرير وطرق  
الحديد وسقيه

وما يدل على شهرة العرب وتقدمهم في الصنائع العمارة التي لم  
يسبتم اليها احد فان الاوروباويين لم يتعلموا الصنعة القرطبية  
المشهوره في الابنية الا منهم

وما يشهد بنحرم ايضاً وعلو قدرهم على من عداهم في هذا الفن  
مساجد الشام وبلاد الاندلس فمنها تعلمت اوروبا عمل القباب  
العالية والاعمدة المرتفعة وتناسب اجزاء ذلك واحكامه مع الرونق  
واللطف والتفنن في الاشكال والهياكل وامتزاج الخطوط المستقيمة  
بالخطوط المنحنية في صور مختلفة خصوصاً بما دخلها من الازهار  
في تعشيق الخطوط

ولم يعزى الخط الستيني وتحلية الحيطان بالقيشاني وغيره من  
انواع الزينة والزخرفة ولم تنكر الافرنج ان دخول التفننات البنائية  
العربية في بناءهم كالنقش والتمويه ازال ما كان فيها من العمارة  
الرومانية من الثقل والتشويه فلو قارنا مباني الافرنج الموجودة  
الان بمباني العربية القديمة  
الموجودة الى الان لوجدنا مباني العرب في سالف الازمان احسن  
وانفن

ولما علم العرب ان التجارة من جملة اسباب الرزق بل عليها

مدار معيشة أكثر الخلق اغنوا بها كما اغنوا بغيرها ففتحوا الطرق ونظموها وجعلوا لها قانوناً لحفظها وحفظ المارين بها والمتريدين وجعلوا بها فساقى للمياه وخانات لتقلولة المارين ومبيت المسافرين ومن ذلك سهل التردد بين الهند وبلاد الصين وبين افريقيا وجزيرة صقلية وبلاد الاندلس والمغرب وحصل الامن ومبادلة مصنوعات البلاد ببعضها فانتفع كل بلد بما عند الآخر فلم ينزل البيع والشرا متصلاً بين اهالي جميع اقسام الدنيا القديمة خصوصاً في الارز والسكر والقطن والزعفران والعنبر والعاج والتبرالزنجباري وبلور الصخور والسحمة دمشق وطليلة وجلود النمر وطقوم خيل الحمل والمشال والسروج والجلود السخنيانية القرطبية والجوخ المصنوع في كورة بجميع الوانه والجلود والاقمشة والسجادات الفارسية والشامية واقمشة الحرير واصناف الكشمير ومنسوجات الموصل والعقاير الطبية واذا تتبعنا احوال متقدمي الاسلام ومشاهير امرائه والحكام لم نجد احداً منهم الا وله حرفة يتقوت منها او صنعة لا يستغني في معيشته عنها علمية كانت او عملية سواء في ذلك الكبير والصغير والمامور منهم والامير فاصحاب العلوم توضع الطرائق وتزيل العوائق وارباب العمل يتبعون ما رسموه وبنوه ويعملون على مقتضى ما استحسنوه وحيث كان القرآن الشريف حائثاً على العمل والسعي في طلب الرزق حتى كاد يعد فرضاً خصوصاً وقد مدح التجارة والصناعة لم يبق عند العرب

اوهام بالنسبة لاتضاع الصنعة وشرفها فلم يكن احد منهم يرى انه اشرف من غيره ولا انه قروي وذاك مدني ولا انه فقير وذاك غني بل كانوا جميعاً لا يرون الفضل الا لمن اتبع سبيل الرشاد فكانت الصنائع تشرف بهم لا انهم يشرفون بها بخلاف المجاري في البلاد الاوروباوية والديار النصرانية فشرف الرجل عندهم بقدر شرف صنعته فلذلك كانت رجال الدولة الاسلامية وقادة الجيوش وروساء الاقلام لا يبالون باسما صناعتهم حيث تيسر لهم بها في الدنيا امر معيشتهم كالخياطة والعطارة والجمهورية فكان ابو بكر بزازاً وعمر رضي الله عنه دلالاً وعثمان رضي الله عنه تاجراً وكان علي لصغير سنده ساعياً في خدمة ابن عمه صلى الله عليه وسلم ولما كبر كان يجلب الوقود للصاغة احياناً فعلى مقتضى الشريعة المحمدية يلزم كل انسان اميراً كان او مأموراً ان يقتات من عمل يده وهكذا كان كثير من الخلفاء والصالحين والعلماء العاملين ففي سنة ١٧٥٤ ميلادية اعني في عهد قريب منا كان السلطان محمود الاول جوهرياً وكان يصرف ثمن مصنوعاته في ماكولاته وما يلزم له وكلما اكثرنا البحث في الكتب وتبعنا اثار العرب وجدنا لهم من التمدن الحسن وحسن الاختراع ما يبهر العقول ويتعسر على غيرهم اليه الوصول فمن ذلك استعمال خيل البريد لسرعة الانتقال متى شأوا بشغور بلاد الاندلس من الحدود الفاصلة بلادهم من الهندستان والصين واعظم من ذلك

البوسطة لتوصل المكاتبات الى البقاع الاسلامية كافةً وكانوا يجعلون على الطرق جنوداً منتظمة لحفظ المارة والتجارة من امتداد يد اهل العدوان من المفسدين والعربان وعلى السواحل فنارات تهتدي بها السفن في سيرها في البحار ونحو ذلك من محاسن الآثار

وبالجملة فلم تر العرب شيئاً إلا عملته ولا فناً نافعاً الا تعلمته فمن ذلك الاشارات الرمزية المستعملة الآن لتوصيل الاخبار السرية وكانت الدروب والطرق داخلاً وخارجاً لاتزال مطروقة بام مختلفة في تحصيل الضروريات المعاشية والاسباب التجارية ونحو ذلك من المصالح الدنيوية والمقاصد الدينية كالخج الى بيت الله الحرام والسفر لزيارة الصالحين وصلة الارحام وكان بكل مدينة دفاتر لحسابها وقضاياها وديوان يضبط امور رعاياها وعسس يطوف بالليل الى الاشراق وملاحظون بالنهار لما عساه يحصل بالاسواق ومحاسبون لضبط الميزان والمكيال ومواخذة من طفف بقدر ما يروونه من انواع النكال

واما ادارة الحكم في جهات المملكة فلم يكن القائم بها واحداً بل كان السلطان يامر في كل جهة بانتخاب مجلس من اهلها فيقومون بتدبير ما يروونه من المصلحة ومع حصرها في مراكز معينة فكان يرتب لها مأمورون يرون بالاقاليم ويلاحظون ما بها من المزارع وغيرها وينبهون على ارباب الخدم والوظائف

باداء الواجبات في اوقاتها وتحصيل اموالها وتجز ما فيه مصلحة  
 لاقواتها وكانت حكام الاقاليم ملزمة في كل شهر بتأدية قوائم  
 ماجرياتها وقراري قضايا جهاتها ومع هذا كله فكان السلطان يقف  
 وقوفاً تاماً على جميع ذلك ويامر بما يراه موافقاً للحال من نجاز  
 الاعمال واصطلاح الاحوال وبهذه المثابة كانت جميع مصالح  
 المملكة والرعية مدبرة تدبيراً حسناً وكان من ضاقت عليه  
 الاحوال واحاطت به جيوش الاهوال اذا دخل في حكم اهل  
 الاسلام واتقاد لما لهم وعليهم من الاحكام غمره السرور وانجلي ما كان  
 به من المضائق والشرور كما حصل لاهل صقلية والانديس حين  
 تخلصوا من يد اليونان ودخلوا في حكم المسلمين فحصل لهم وبهم  
 الراحة وقاموا جميعاً بتحسين الصناعة والفلاحة وجلبوا لهم مستنبتات  
 لم تكن عندهم من قبل كبذر القطن والشمام وكثير من انواع  
 الرياحين كالفل والمام فاستنبتوها من ذلك الوقت وكان من  
 جملتها قصب السكر وشجر الفستق ولسان العصفور وبهم تفننت  
 العرب في منسوجات الحرير وعرفوا كيفية استخراج المعادن  
 والعقاقير واستعمال مجاري المياه من انابيب معدنية حتى وصلوا  
 في اقرب وقت الى اعلى درجة في العز والرفاهية

وكان بمدينة طليطلة اذ ذاك على ما قاله العلامة (دوروي)  
 الفرنساوي مائتا الف نفس وباشبليه ثلاثمائة الف وكان محيط  
 احدى المدن ثمانية فراسخ وبها ستون الف قصر وستائة مسجد

وخمسون قشلة للمساكين وثمانون مدرسة وتسعمائة حمام غير التي  
 في البيوت وكان فيها من النفوس مليون (اعني الف الف) وستة  
 الاف نول لتسج الحرير خاصة ومن يراها الآن لا يجد بها شيئاً مما  
 كان فلا يعلم اي داهية دهنها واي مصيبة اعترتها حتى اخلت  
 امرها وتغير حالها ولم يبق بها من الناس الا نحو ستة وخمسين  
 الفا

وكانت تهرع طلبه المعارف من جميع اقسام الدنيا لتعلم  
 العلم في المدارس الاسلامية وقد اسلم كثير منهم وكانت بلاد  
 الاسلام تتأنق في المباني بانواع الزخرفة خصوصاً ببلاد  
 الاندلس

وكان في كل من مدينة سبته والقيروان والجزائر وتونس  
 وطرابلس مدارس عامة وكتبخانات وكان ثغر سيراف وعدن  
 وجدة والسويس مرسى متاجر جسيمة وارده اليها وذهابة منها وكان  
 سوق مدينة فيول موعداً لاجتماع الناس من جميع جهات اسيا  
 واما الرجال الذين نبغوا في رياض الفنون العقلية والعلوم  
 الادبية فلا سبيل الى حصرهم ولا طريق للوصول الى عددهم وذكرهم  
 فان ذكر مشاهير كل فن يحتاج الى مجلد

وخلاصة القول في هذا التمام ان علماء العرب واهل الاسلام  
 لم في كل فن اليد الطولى وكل فضل هم اجتق به من غيرهم  
 واولى لا سيما الخلفاء العباسية ومن قبلهم بعض خلفاء الاموية

فكان ابو جعفر المنصور العباسي مقدما في كل فن خصوصا في علم النجوم والفلسفة محبا لاهلها ولما افضت الخلافة الى السابع من الخلفاء وهو عبد الله المأمون بن الرشيد تم ما بدأ به جده واقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه فداخل ملوكا وسألهم ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منها بما حضرهم من كتب افلاطون وارسطو وبقرات وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم واحضرهم مهرة المترجمين ثم كلف الناس قرائتها ورغبهم في تعلمها فنفق به للعلم اسواق وشمرت دولة الحكمة في عصره عن ساق وكان الباعث له على ذلك فيما يقال انه رأى في منامه رجلا حسن الشائل فقال له من انت فقال انا ارسطاليس فسأله عن الحسن فقال ما حسنه العقل فقال ثم ماذا فقال ما حسنه الشرع فكانت هذه الرويا من اقوى الاسباب الداعية لاجراج الكتب من هذا الفن الى اللغة العربية وكان بينه وبين ملك الروم مراسلات فكتب اليه يسأله انفاذ ما يختار الكتب القديمة المخزونة بالروم فاجابه الى ذلك بعد امتناع فانفذ المأمون جماعة منهم الحجاج بن مطر والبطريق وغيرها فسلمهم ملك الروم بيت الحكمة فاخذوا منها ما اخناروا ورجعوا به الى المأمون فامرهم بتقله الى لغة العرب فنقلوه وكان ممن انفذ الى الروم لهذا الخصوص يوحنا بن ماسويه وكان محمد واحمد والحسن بنو شاكر المنجم من عني باخراج الكتب ومن نقل العلوم الحكيمية

الى اللغة العربية اصطفان نقل لخالد بن يزيد بن معاوية وكذلك  
 البطريق نقل للمنصور ايضاً شيئاً بامره وابن يحيى الحجاج هو  
 الذي نقل كتاب المجسطى واقليدس للمامون وكان في ايام  
 البرامكة ابن ناعمة عبد المسيح الحمصي وسلام الابرش وهلال  
 بن ابي هلال الحمصي وابن اوى وابن رابطة وعيسى بن نوح  
 وحنين وكان امام وقته في صنعة الطب وكان يعرف لغة  
 اليونانيين معرفة تامة وهو الذي عرب كتاب اقليدس ونقله من  
 اللغة اليونانية الى لغة العرب ثم جاء ثابت بن قرة بعده فتحه  
 وهذبه وكذلك كتاب المجسطى وكان حنين المذكور راشد اهل  
 عصره اعنأ بتعريبها واسحاق ولد حنين وكان اوجد عصره في  
 علم الطب وكان يلحق بابيه في النقل ومعرفة اللغات وتعريب  
 اللغة اليونانية وخدم من الخلفاء والروساء من خدمهم ابوه ثم  
 اقتطع الى القاسم بن عبدالله وزير الامام المعتضد بالله واخص  
 به حتى ان الوزير المذكور كان يطلعه على اسراره ويفضي اليه  
 بما يكتمه عن غيره

وكان هو وابوه في القرن الثالث من الهجرة

وكان يحيى بن عدي وابن المقفع من نقل من الفارسية الى

العربية وكذلك الحسن بن سهل وغيرهم

وكان الوزير ابو علي الشهير بابن سينا قد برع في علم الطب

فذكر عند الامير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان وكان

قد مرض فاحضره فعالجته حتى برىء واتصل به وقرب منه ودخل  
الى دار كتبه وكانت عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب  
المشهورة بأيدي الناس وغيرها ما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه  
فضلاً عن معرفته فظفر ابو علي فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها  
فانتخب فوائدها واطلع على اكثر علومها واتفق بعد ذلك اختراق  
تلك الخزانة فتفرد ابو علي بما حصله من علومها فاتهم بانه حرقها  
لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه الى نفسه ولم يستكمل ثمانى  
عشرة سنة من عمره الا وقد فرغ من تحصيل العلوم باسمها وكان  
منشأه بخارى ولما اضطربت امور الدولة السامانية خرج ابو علي  
منها الى كركانج وهي قسبة خوارزم واختلف الى خوارزم شاه  
علي بن مامون وما زال تنقلب به الاحوال من بلد الى بلد الى  
ان استوزر لشمس الدولة وكان في اوائل القرن الخامس من  
الهجرة واليه تنسب القصيدة المشهورة التي وصف فيها النفس واولها

هبطت اليك من المحل الأرفع

ورقاء ذات تعزز وتمتع

محبوبة عن كل معانة عارف

وهي التي سفرت ولم تنبرقع

وصلت على كره اليك وربما

كرهت فراقك وهي ذات تجمع

وكان في القرن الثالث والرابع من الهجرة ابو نصر الفارابي

صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى اخذ علم الفلسفة عن  
يوحنا في ايام المتقدم وشرح غوامضها وكشف اسرارها وقرب  
تناولها وجمع ما يحتاج اليه منها

حكى انه لما ورد على سيف الدولة بن حمدان وكان مجلسه  
مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأدخل عليه وهو يزى الاتراك  
وكان ذلك زيه دائماً فوقف فقال له سيف أقعد فقال حيث  
انا ام حيث انت فقال حيث انت فتخطى رقاب الناس حتى  
انتهى الى مسند سيف الدولة فزاحه فيه حتى اخرجه عنه وكان  
على رأس سيف الدولة ممالك وله معهم لسان خاص يسارهم به  
قل ان يعرفه احد فقال لهم بهذا اللسان ان هذا الشيخ قد اساء  
الادب وانى سائله عن اشياء ان لم يوف بها فاخرقوا به فقال له  
ابو نصر بذلك اللسان ايها الامير اصبر فان الامور بعواقبها فعجب  
سيف الدولة منه فقال له اتحسن هذا اللسان فقال نعم احسن  
اكثر من سبعين لساناً فعظم عنده ثم اخذ يتكلم مع العلماء المحاضرين  
في المجلس في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى  
صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم اخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم  
سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في ان تاكل فقال لا  
فقال فهل تشرب فقال لا فقال فهل تسع فقال نعم فامر سيف  
الدولة باحضار المغنين فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بانواع  
الملاهب فلم يحرك احد منهم آله الا وعابه ابو نصر وقال له

اخطأت فقال له سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصنعة شيئاً  
فقال نعم ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها فاخرج منها عيداناً  
وركيها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها  
وركيها تركيباً اخر ثم ضرب بها فبكى كل من كان في المجلس ثم  
فكها وغير تركيبها وضرب بها ضرباً اخر فنام كل من في المجلس  
حتي البواب فتركهم نياماً وخرج ويقال انه اول من وضع الآلة  
المسماة بالقانون وكان في القرن الثالث من الهجرة ابو الحسن علي  
بن يحيى بن المنصور المنجم النديم وابنه يحيى ابن النديم

وكان في القرن الخامس ابو علي يحيى بن عيسى بن جزله  
الطبيب الماهر وكان نصرانياً ثم اسلم وصنف رسالة في الرد على  
اليهود والنصارى وبين معائب مذاهبهم وذكر فيها ما قرأه في  
التوراة والانجيل في شان ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وانه  
مبعوث وان اليهود والنصارى اخفوا ذلك ولم يظهروه وما زالت  
العلوم الحكمة تداول من عصر الى عصر ومن قطر من بلاد  
العرب الى قطر حتى وجد بمدينة القاهرة الكبير المعظم والفلكي  
المنجم العلامة بن يونس مخترع البندول (اي رقاص الساعة)  
والربع

وكان في القرن الحادي عشر جلال الدين ملك شاه احد  
الملوك السلجوقية الذي صارت الناس تؤرخ بعصره فيقولون كذا  
كنا في سنة كذا من التاريخ الجلالى

وكان في القرن الثاني عشر من الميلاد بمدينة قرطبة فتح بن ماجية وكان يصنع الاضطراب ويعلم العمل به ويقال انه لم يكن اطلع عليه وكان يرسم على كرة فيينا هو يسير يوماً على فرس وبين يديه كرة اتفق ان سقطت وداس عليها الفرس فانسبطت واعجبته الصورة التي صارت الكرة اليها فاخذ في عمل الاضطراب على وفق تلك الصورة فاذا صح هذا كان من مخترعاته اذ لم يكن رأى قبل ذلك من عمل غيره

والبيروني وكان مشيراً وصديقاً للسلطان محمود الغزنوي وكان في القرن الثالث عشر من الميلاد بالموصل العالم الكبير والعلامة الشهير بن رشد شارح مؤلفات ارسطاليس وكان باصبهان ابو حنيفة مؤلف الازياج والتواقيع الفلكية وكان بمراكش ابو الحسن الجغرافي وكذلك ناصر الدين الطوسي مؤلف الازياج والتواقيع الجغرافية وكذا الغزالي احد شعراء الترك

وكان في القرن الرابع عشر تيمورلنك الذي انشاء ديواناً لمذاكرة العلوم واحيائها في مدينة سمرقند ثم ابو الفداء المؤرخ صاحب حماه

وكان في القرن الخامس عشر شاه رخ نجل تيمورلنك وهو الذي نقل العلوم الى بلاد هراه وكان بالقاهرة العلامة المقرئ الذي لم يسمع بمثله الزمان ومن مؤلفاته تاريخ مصر وذكر احوال

من تسلطن بها من المماليك وغيرهم المسمى كتاب الخطط وله قاموس تاريخي وكذا اولوغ بيك التتاري حفيد تيمورلنك ومن اثاره انشاء رصدخانه في مدينة سمرقند

وكان في القرن السادس عشر بمصر جلال الدين السيوطي ومن اثاره تاريخ مصر المسمى حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة وكذا خورمير الفارسي ومن اثاره خلاصة التاريخ وهو الذي عثرنا فيه على استعمال اهل الاسلام الورق بدلاً عن النقود في المعاملات وكان ذلك في القرن الخامس عشر من الميلاذ بمدينة طهران وكان في القرن السادس عشر ايضاً اظهار العلامة كاتب جلبي لرسالة الجغرافية وهي كتاب عجيب في بابها حتى ان كثيراً من الناس ينكرونه له اذ لم يسبق له مثال

وما ذكرناه في سرد اسماء بعض المشاهير بالنسبة لما ترك اقل من القليل الاّ انه يتوصل به من اطلع عليه الى معرفة ما كان للمسلمين من المصنفات العلية والعلوم الحكيمة حيث لا مانع لهم من معرفة ما فيه فائدة تعود على الوطن فقد غاصوا في ببحار العلوم واستخرجوا بقوة ادراكهم درره واستكشفوا غرره وهذا كله في علماء فرع من العلوم العقلية فما بالك بعلماء العلوم الادبية والشرعية ومنه يعلم ان سائر الامم الذين كانوا في الاعصر الخالية انما شغلوا غليل ظمائمهم بما اغترفوه من ساجل بحار معلومات اهل الاسلام اذ ليس لها اصل تستمد منه سوى الاعتراف من بحر معارفهم الى

هذا الرومان وكذلك شعراؤهم وعلماؤهم ومؤلفوهم لم يهتدوا الى ما  
اهتدوا اليه الا بمؤلفات اهل الاسلام وكذلك فواميسهم المتضمنة  
اخبار البلدان ومشاهير الرجال وحوادث الزمان انما تعلموها مما  
وقع في ايديهم من كتب العرب فخذوا حذوها فقد دون اهل  
الاسلام في علم التاريخ فضلا عن غيره تدوينا امتازوا به على غيرهم  
بقوة فكرهم وحلاوة تعبيرهم والاهتداء لطرق استنتاجهم وهذه المزايا  
من البرهان على تعودهم على ملاحظة الكائنات الطبيعية والتجارب  
والاعمال البشرية فقد يوجد نحو الالف واثلثمائة مؤلف في  
خصوص علم التاريخ باللغة العربية فضلا عما ألف في ذلك  
باللغة التركية والفارسية

فلما وصل في الكلام على تقدم اهل الاسلام الى هذا المقام  
قال الانكليزي لا ريب في تقدم اهل الاسلام في كثير من  
الفنون وسبقهم غيرهم بفوائد جليلة اخذت عنهم واستفيدت منهم  
فمن ذلك استعمال البارود الذي تكافأت بسببه قوى الامم  
او قويت من المكافوء حتى هدأت الفتن وقل عددها وتقصرت  
مدة ما تحرك منها فما قامت حرب الا فعدت ولا الهبت نيرانها  
الا بسرعة خمدت على خلاف ما كان في الاعصر الخالية حيث  
كان الناس يعتمدون على قوى ابدانهم ومضاه صوارمهم وروماحهم  
الى غير ذلك من الآف المكافحة فكانت المحروب خصوصا في  
العرب تنشأ من امر صغير بين نفر يسير ثم لا تزال تزداد وتطول

من فتنة فتن يصطلي حرها خلق كثير وتطول مدتها فربما  
 اقامت الحرب الواحدة السبب زيادة عن اربعين سنة فلما  
 اهتدى الناس الى استعمال البارود وآلات اطلاقه خمدت الفتن  
 وصار الغالب على الناس الامن بعد ان كان الغالب عليهم  
 الخوف ولا شك في سبق اهل الاسلام الى استعمال البارود وان  
 لم يعلم عين مخترعه فقد كان اهل مصر يدخلون ملح في بعض الادوية  
 ويسمونه ملح البارود الابيض ويبردون به الماء بدل الثلج واستعمله  
 المسلمون في حروبهم ومحاصرتهم بعد القرن الخامس من الهجرة  
 وما سبق اليه المسلمون ايضاً بيت الابرّة الذي يستعملونه في تحوير  
 محارب مساجدهم فيتعرفون به جهة قبلتهم التي امروا باستقبالها في  
 صلواتهم اذ لم تكن الشمس كافية في ذلك لغيبتها ولا الاقطار  
 لاستنارها في بعض الاحيان وكثير من الاماكن وقد عمت منفعة  
 بيت الابرّة سائر الناس حتى ان المسافرين براً وبحراً لا يستغنون  
 عن استصحابه ليعرفوا بدلالته الاتجاه الى مقاصدهم . وما ينسب  
 لاهل الاسلام عمل الورق فقد وجد عندهم سنة ٢٧ من الهجرة  
 وكان اهل بخارى يعملونه من الحرير ثم عمله في حدود المائتين  
 يوسف ابن عمر امير مكة في ايام بني العباس من القطن وكان  
 اهل الاندلس يصنعونه من الكتان والتيل . وما سبق باستعماله  
 المسلمون الورق بدل النقود واوراق الحوالات التي تسمى بالسفينة  
 ياخذها المسافر من تاجر في بلدة الى تاجر في بلدة اخرى لحفة الحمل

والامن من قطاع الطريق واهل الفساد وقد رأيت في بعض التواريخ العربية من جملة اعمالم العائدة بالنفع حفرم الخليج العتيق المعروف بخليج القلزم وان ذلك كان باذن من عمروابن العاص او من عمر بن الخطاب رضي الله عنها وذكر بعض المؤرخين ان عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصال البحر الاحمر بالبحر الابيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا تعبر منه الافرنج البحر الاحمر فيكثرون بالمشرق وبلاد العرب . ثم لما كانت ايام السلطان الفاخر عزم وزيره على الشروع في حفره فعرضت له موانع عاقته عنه ثم استعوض ذلك بالعزم على توصيل بحر جرجان بالبحر الاسود بان يحفر خليج بين نهري الطونة واولفة فمنعه عن ذلك ايضاً فساداخلاق طوائف القزاق المقيمين بسواحل تلك المياه

فعند ذلك طاب خاطر الشيخ بما القاه اليه صاحبه الانكليزي اولاً واخراً اذ رآه محباً للحق وفي الحكم منصفاً وبتقدم الملة الاسلامية في سائر الفنون معترفاً وزاد حبه له اضعاف ما كان وكان الشيخ قبل ذلك يمنع نفسه من المباحث في الامور الدينية خوفاً من ان يكون ذلك سبباً في حصول النفور بينهما وكان الانكليزي مراقباً ذلك ايضاً قائماً بما يجب للشيخ من الحقوق لما رأى فيه من كثرة الورع والتخلق بالاخلاق المرضية وفي ابتداء الكلام بينها هذه المرة في امر الديانة ظن الشيخ ان الانكليزي

ربما يشير الى العناية بما يدنسها فلما قص عليه ما قصه ولم يظهر  
من كلامه في شأن الملة ادنى نقص حيث امتنع عن الجدال ولم  
ينسب للملة الاسلامية من التاخير ادنى سبب بل عزى اليها استمرار  
التقدم بما اكتسبته في الزمن الخالي حتى صارت اساساً يعتمد  
عليه النوع البشري في تقدمه الحالي والمستقبالي وانه لولاها  
لارتفعت من بين الناس موجبات الالفه والمسار وامتنت عنهم  
اسباب التمدن والميسار فمن ذلك الوقت اعترف الشيخ لصاحبه  
بكثرة الاطلاع والوقوف علي حقائق الامور والاضاع

فخاض معه بحر هذا البحث المتعلق بالدين ثم قال . وما  
يستطرد في هذا المقام ذكر اديان العرب قبل الاسلام  
كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاة . وكانت  
اليهودية في نير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة . وكانت  
المجوسية في بني تميم

واول من غير دين الكهنية عمرو بن لحي ابو خراعة وهو انه  
رحل الى الشام فرأى العالقي يعبدون الاصنام فاعجبه ذلك  
فقال ما هذه الاصنام التي اراكم تعبدونها قالوا هذه اصنام نستطرها  
فتمطرنا ونستنصرها فنصرنا فقال اعطوني منها صنماً اسير به الى  
ارض العرب فيعبدونه فاعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة  
فنصبه وامر الناس بعبادته وتعظيمه

ولول ما كانت عبادة الاحجار في بني اساعيل وسبب ذلك

انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم فغفروا  
 في البلاد وما من احد يظعن الا حمل معه حجراً من حجارة الحرم  
 تعظيماً له فحيثما نزلوا وضعوه وطاقوا به كطوائفهم بالكعبة ثم تناسلوا  
 فنسوا ما كانوا عليه من دين اسماعيل فعبدوا الاوثان وصاروا  
 الى ما كانت عليه الامم قبلهم من الضلال

وكان لاهل كل دار صنم يعبدونه فاذا اراد الرجل سفراً  
 تسمع به حين يركب وكان ذلك اخر ما يصنع اذا توجه الى سفره  
 واذا قدم من سفره بدأ به قبل ان يدخل الى اهله فاتخذت العرب  
 الاصنام وعكفوا على عبادتها

وكانت لغريش وبني كنانة العزى وكان حجابها بني شيبه  
 وكانت اللات لتقيف بالطائف وكان حجابها بني مغيث من ثقيف  
 وكانت مناة للاوس والخزرج ومن دان بدينهم واما يغوث ويعوق  
 ونسر فقبل انهم كانوا اسما اولاد آدم عليه السلام وكانوا اتقياء  
 عبادات احدهم فحزنوا عليه حزناً شديداً فراوا ان يصوروا صورته  
 ليذكروه اذا نظروه فصوروه من صفر وورصاص ثم مات اخر  
 ففعلوا ذلك الى ان ماتوا كلهم فصوروه هناك واقام من بعدهم  
 على ذلك الى ان تركوا الدين وعبدوها الى ان بعث الله نوحاً  
 عليه السلام فنهاهم عن عبادتها فقالوا ما اخبر الله به عنهم لاتذرن  
 آلتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً (الاية)  
 ولما عم الطوائف الارض طمها وعلا عليها التراب زمناً طويلاً ثم

اخرجها مشركوا العرب فعبدوها وكان ودّ على صورة رجل وسواع  
على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس  
ونسر على صورة نسر

هذا ما كانت عليه العرب قبل الاسلام وقد صاروا بعده  
امةً واحدة قوية والفضل في ذلك كله للقرآن المحيد ومن العجيب  
انكم معاصر الاوروبيين تعلمون ذلك وتعزون الى الاسلام تاخر  
النوع الانساني في المدنية

فقال الانكليزي لا يخفى على سيدي عادة اهل المذاهب  
والاديان من التعصب والتحزب من قديم الزمان فكل يميل الى  
ترجيح مذهبه بما يصل به الى بلوغ مأربه ويعزو الى دينه كل  
فضيلة ويصفه بكل صفة جميلة فيأخذون بجواس المتدينين  
ويجذبون اليهم قلوب الجاهلين فلا يرون الا راي اسلافهم ولا  
يعلمون الا ما سطر في تأليفهم ولا يضاھون قوانينهم بقوانين غيرهم  
ولا قواعدهم بقواعدهم الا لمقاصد فاسدة واغراض كاسدة ولا  
يفرقون بين الصحيح والاعم والراجح والارجح واما انا فلست من  
هذا القبيل ولا اليه عقلي يميل وليست النصرانية عليّ محنمة ولا  
احكامها عندي محكمة بل الواجب عليّ اتباع الحق كما هو الواجب  
على كل عاقل من غير فرق وانا اعلم من قبل ان الله سبحانه  
وتعالى لم يبعث الرسل عبثاً بل ارسلهم هداية من اتبعهم وما قصدت  
بفراقي بلدي واهلي واولادي وتوجهي الى بلاد المشرق واقامتي بمصر

وتعلمي اللغة العربية الآ الوقوف على حقيقة الملة الاسلامية ودرجة علمائها فان مؤلفات الاور وباوين في هذا المعنى مشحونة باكاذيب مضلة واخلافات مخلة كقولهم في كتبهم ان محمداً يقول ان النساء لا يدخلن الجنة يوم القيامة

فالتفت الشيخ للخواجاء عند ذلك وقال مثل هذا لا يقال من امثالك ولئن كان معتقد علمائكم من هذا القبيل ومؤلفات قدمائكم على نحو هذا التمثيل وها هو كتاب الله بيننا يتلى وكذلك كتب المفسرين وحكمة الشريعة اجمعين لم يوجد فيها لمثل ذلك ادنى اشارة فضلاً عن التصريح بعباره وقد قدمت لحضرتكم ان جميع كلام النبوة شرح للقرآن قال تعالى ( وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم ) واذا تتبعنا القرآن العظيم لم نجد يذكر المؤمنين الا ومعهم المؤمنات ولا المسلمين الا ومعهم المسلمات ولا الصائمين الا ومعهم الصائمات قال تعالى ( ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً ) وقال تعالى من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنجينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون ) وقال تعالى ( ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين

الله كثيراً والذكريات اعد الله لم مغفرة واجراً عظيماً ( هو الجنة وما فيها ) وهكذا في غير ما اية وابن اودت ان اطلعت على مواضع ذلك من المصحف الشريف لتقف على الحقيقة بنفسك فعلت فالكتاب والسنة والاجماع على ان للنساء ما للرجال من الثواب وعليهن ما عليهم من العقاب لا فرق بين حرٍ ورفيق وهولى وعتيق وقال صلى الله عليه وسلم ايا امرأة غاب عنها زوجها فحفظت غيبته في نفسها وطرحت زيتها وقيدت رجلها واقامت الصلاة فانها تحس يوم القيامة عندها طفلة فان كان زوجها مؤمناً فهو زوجها في الجنة وان لم يكن زوجها مؤمناً زوجها الله من الشهداء فكيف جوهم فيمن اتصف بالعدل فضلاً عن اخصافه بالفضل ان يضيع عمل عامل او يحرم الراجي فضله الشامل فقال الانكليزي لو علمت نساء اوروبا بقولك لاحبين دين الاسلام لكن ربما يمنهن شيء اخر اشق عليهن من كل شيء واخر وهو اتخاذ الرجل منكم عدداً من الزوجات فتبسم الشيخ وقال اراك قد خرجت عما نحن فيه اذ لا دخل لتعدد الزوجية ولا لدين النصرانية في احياء العلوم الادبية ولا تقدم الفنون والصنائع الدنيوية اذ لو كان كذلك لما احتجتم الى اليونان فمن بعدهم من العرب الى الآن في الوصول الى ما وصلتم اليه فانهم لكم في كل ما علمتموه ملاذ واحبا بكم اليهم كاحتياج المتعلم الى الاستاذ

واما ما كان من امر تعدد الزوجات فليس هذا مخصصاً بنا بل هو عامٌ لنا ولغيرنا ولم يمنعه الاطائفة النصراني فقط حتى ان من قبلهم كانوا يجوزون التعدد ايضاً فقد رأيت في بعض كتب التواريخ نقلاً عن دانيال القسيس ان ملوك فرانس الاولين كانوا متزوجين بزوجات متعددة مع انهم كانوا متدينين بدين النصرانية ومن ثم كان لكل من غنطران وشرير وداغوير الاول ثلاث زوجات ولم داغوير وهو فلودومير اربع زوجات في آن واحد وفي سنة سبعمائة وستة وعشرين من الميلاذ كتب البابا غراغوار الثالث الى الواعظ يدسفاس حين ارسل اليه يسأله عن جواز التزوج بامرأة ثانية اذا اصبحت المرأة بقاء يمنعها عن القيام بحق الزوج جازله ان يتزوج بامرأة اخرى وعليه لهصابة مؤنها الضرورية

ولعل المحكمة في اباحة تعدد الزوجات عندنا وعند من كان على رأينا ان التدبير الالهي لما ميز الرجل بقوة البنية وطول زمن التناسل بالنسبة للمرأة وسلامته من الاعذار المعتادة للنساء في اوقات معينة كالحيض والنفس راعى الشرع جانبه لذلك واما حكمة الافراد التي عزلم عليها واستندتم في الحكم اليها فلا يمكن المجزم باطرادها في كل طبيعة ولا بانها تقطع ما تخشونه من المفسد ذريعة فقد يأتي زمن يمنع فيه كثير من الامور الفظيعة التي لا وجود لها في بلادنا كقتل الاطفال واسقاط الاجنة

ونحو ذلك

فقال الانكليزي هذا كلام معقول لكنني نظرت في المصحف  
 مرة فرأيت في السورة الثالثة من سورة البقرة ما ظاهره الامر  
 بضرب النساء مع انه يخل بشرف الانسانية  
 فاجابه الشيخ الا ان هذا لا يوجد الا اذا علم الزوج منها  
 خلاف ما كان يعهد على انه ليس له ذلك من اول الامر بل  
 يستعمل معها النصيحة فان ابت فبالهجر فان ابت ضربها بشرط  
 ان لا يضربها على ان حسن العشرة المأمور به في القرآن ربما  
 جعل التشديد عليهن مذموماً وصير من عاقبين على كل ما فرط  
 منهن ملوماً كقوله تعالى (الطلاق مرتان فامسك بغيره او  
 تسريحاً باحسان) وكقوله صلى الله عليه وسلم احلوا النساء على  
 اخلاقهن وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينبغي للرجل ان  
 يكون في بيته كالصبي فاذا طلب ما عنده وجد رجلاً وقال بعض  
 الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم ما حق زوجة احدنا عليه قال  
 ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه  
 ولا تقبح ولا تهجر الا في البيت ومعنى لا تقبح لا تسمها المكروه  
 ولا تستهها ولا تغل لها قبحك الله ونحو ذلك الى غير ذلك مما  
 يعظم امر النساء ويوجب رعايتهن والمبادرة الى القيام بحقوقهن وهل  
 حرية النساء الا ان يبلغن حقوقهن على ازواجهن حسبما تقتضيه  
 المروءة وصيانة النساء عن الدخول فيما ليس لهن من خصائص

الرجال كما نهت على خفايا حدوده وابدت ظواهرها الشرائع  
وليس فيما يقبل العقل المنزه عن العصبية ان تكون حرية النساء  
عبارة عن تخليتهن وما اشتبهن مع ما يشاهد في الاكثر من غلبة  
شهواتهن واهوائهن على عقولهن

وبيناهما يتجاوران اذا بضجة في صدر السفينة تبين انها اشارة  
للولوصول الى المينا فحبي كل صاحبه بالسلامة وهما بالصعود الى  
البر وتذكر الشيخ رجاء ولده في امر يعقوب فاخبر به صاحبه وبلغ  
باجابته المرغوب فخرجوا متوجهين الى بيوت المسافرين

---

### المحاضرة الحادية والعشرون كتاب برهان الدين

فلما استقر قرارهم واطأن بهم المنزل قال الانكليزي للشيخ  
ان غدا توجه البوستة الى مصر  
فقال الشيخ لابنه اين كتابك لوالدتك فاخرج له كتاباً  
هذه صورته

حضرة الوالدة العزيزة المصونة . وحق الهد والدر الذي لا يقوم  
مقامه الشهد ومناغاني في السحر ما غاب شخصك عن خيالي ولا  
خطر التسلي عنك ببالي بل مذ فارقتك لم ترقأ لعيني دمعة ولم

تهدأ لقلبي لوعة ولم اجد لعيني في النوم فراراً ولا لقلبي راحة  
 وكنت قبل ذلك اجهل الفراق والمه لجهلي باحواله ومشاقه وكنت  
 اذا قرأت في بعض الكتب واطلعت على ما قيل فيه من شعر  
 العرب وغيرهم اراني لا ادوق له معنى ولا افهم ما يراد منه بل  
 كان يمر بي ككلام الساهي او اللاعب اللاهي الى ان تبين  
 الخبر بالعين وارتفع الشك فذقت مرارته ووقعت في بحر هوله  
 غريباً

شكا الم الفراق الناس قبلي \* وروع بالنوى حمي وميت  
 واما مثل ما ضمت ضلوعي \* فاني ما سمعت ولا رايت

فصرت اردد في الاسحار قول من تناولته يد الاسفار  
 احبابنا لو لقيتم في اقامتكم

من الصباية ما لاقيت في الظعن

لاصبح البحر من انفاكم يسا

كالبر من ادعني ينشق بالسفن

وما زادني قلقاً وشجوناً وأرقاً ما اراه في عالم المثال فتارة اراك

تعانقيني وتقبليني وتارة اراك نائمة عن شمالي وتارة عن يميني وتارة

ارى انك تنصحيني وتارة ارى كأن الرياح اشتدت والامواج الى

الجوف قد امتدت وان الحق تعالى على خلقه غضب وكان السماء

تمطر ماء كافواه القرب ونحن في المركب لا نسمع الا ايناً واستغاثة

وحينئذ وان الجبال قد تقطعت والقلوع تمزقت وانقلبت المركب

وغرق من بها فارى نفسي على خشبة وكان الامواج تدفعني الى  
 جزيرة وكان اقواما اخذوني وهموا بتقلي فاقوم من الفراش على قدمي  
 فاستعبد بالله واسمى ثم اعود ثانياً بقصد الرقاد فما ارى الحال الا  
 في ازدياد ولم ازل هكذا كل ليلة الى الصباح ففي ليلة رايت ما  
 رايت وتوجهت الى والدي وقبلت يده فعلم اني لم اغتض بنوم  
 فسالني عن حالتي فاخبرته بما وقع لي طول ليلتي فسكن روعي  
 وطيب خاطري بكلام رفيق اروى لك منه ما امكني حفظه قال  
 ما يمنع عنك ذاك ويثيك التخيلات والاحلام ان تستحضر  
 وانت على الوسادة ان حالة اهلك احسن من حالة كثير من  
 العباد ولا تنظر لما في الاسفار من المشاق الوقتية والمضار بل انظر  
 لما يعقب ذلك من النفع العائد عليك وعلى اهلك فان ذلك  
 يغير ما عندك من الانفعالات بضعها واصرف افكارك الى ما  
 يسليك ويجلب لك السرور ويسهل لك معاناة الشدائد ثم عطف  
 واخذ يورد على سمعي من الحكم والمواعظ ما انساني هي وارقى  
 تلك الليلة فقال يابني كن في جميع احوالك كامل العقل متسماً  
 بسمة اهل العلم والفضل واشتغل بها يعينك متجافياً عما يشينك  
 ويعينك قائماً بها يجب للناس من توقير كبيرهم وملاطفة صغيرهم  
 متخلياً بصفات اهل الكمال متخلياً عما يزرى بك من الاقوال  
 والافعال واياك واصحاب الشهوات والاخلاق الذميمة ولد بمن  
 يصلحك حاله ويرشدك الى الخير مقابله وغد قلبك بثمرات العلوم

كما تغذي جسمك بما تستطيب من المشروب والمطعم ولا تكن  
 لكل ما تطلع عليه اسير التقليد كمن ظن الورود وهو عن الشط  
 بعيد ولا تغتر بمجلاوة الالفاظ فكل لفظ له باطن وظاهر ولا يقف  
 على الفرق بينهما الا اللبيب الماهر فاكل ما يعلم يقال ولا كل ما  
 حسن ظاهره يقبل على كل حال بل تارة يوافق الصواب فيمدح  
 وتارة يضل عنه فيستعجب ولا ترو شيئاً من غير دليل فتكون كمن  
 يطب غيره وهو عليل ولا تثق الا بما ترى فائدته بديهية ومنفعته  
 عمومية ولا تتبع المقاصد الشخصية والفوائد الذاتية الوقتية وكن  
 غالب وقتك مستفيداً فوافق رأيك فاحفظه وما لم يوافق  
 مذهبك فالنظره واعلم ان غالب هموم الناس تخيلية وتصورات  
 وهمية منشأها امور طرأت عليهم ولم تكن من قبل مألوفة فلعدم  
 علمهم بكيفياتها يصورونها في انفسهم بصورة غير صورتها ولجهلهم  
 باسبابها يلبسونها ثياباً غير ثيابها فتظهر لهم في الصورة التي رسموها  
 وتكبر في اعينهم على قدر الهيئات التي بها وسموها فتتمكن من مخيلتهم  
 وتحل في وجودهم كحلول الروح في الجسد فتشتغل جميع الحواس  
 بها ويتحول الفكر بكليته نحوها وعند ذلك لا يرى الانسان غيرها  
 فان كان ما تخيله خيراً عظم عنده شيئاً فشيئاً حتى لا يرى ان  
 هناك اعظم منه وان كان شراً رأى انه فوق ما يتصوره المتصورون  
 ويقدره المقدرين وانه لم يتقدم مثله لاحد من ابناء الزمان وانه  
 ليس في الامكان ابداع ما كان فيكون حزنه وفرحه في التقديرين

بقدر ما توهمه في المحالين ومن تكرر هذه الصور في القوة المخيلة  
 تتزايد حتى تظهر لصاحبها كأنها من جملة الامور المرئية وتؤثر فيه  
 كأنها حقيقية وان كان التأثير زائداً عن الطاقة تتج منه مضار جسيمة  
 اما في العقل فينحل واما في الجسم فيعتل حتى انه في بعض  
 الاحيان يرى الموت وكأنه قد كان فما رايت في نومك من التمثيل  
 ليس الاً من هذا القبيل لان الفرق امر لست معتاده فصورته في  
 نفسك بصورة غير صورته فتارة رايت ان السفينة قد غرقت بمن  
 فيها وتارة رايت انها رست على بقعة من الارض عامرة بالناس  
 والاشجار فكانت هذه الرؤيا ما ظننته وفي يقظتك توهمته  
 وكذلك رؤيتك لوالدتك واخواتك وعماتك سببه تصور حبك  
 لهم ورغبتك في صلاح حالهم وخشيتك من فقرهم وفاقتهم فلذلك  
 رايت ما رايت من لعبهم تارة وبكائهم تارة اخرى في البيت فلو  
 تفكرت فيما يحصل لاهلك ووالدتك وللمحبين في عودتك لاسما  
 اذا راوك متحلياً بجلل الادب متصفاً بصفات اهل العلم والرتب  
 ولاحظت ما يصفونك به من العلم والورع والعفة واجتناب البدع  
 مع ما تحوزه من الشهرة فلا اظن انك تقول بمثل هذه الوسوسة  
 بل يخلو قلبك منها ويدخل عليك السرور في الغدو والروح  
 وتعيش عيشة اهل التقى والفلاح الذين رموا انفسهم في بحار  
 تقديره ووكلوا امورهم الى تصارييف تديره عالمين بانه اللطيف  
 بحالم الخبير بما يصلح لهم في حالهم وما لهم واعلم يا ولدي وفلذة كبدي

ان من استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط  
الاندال حقر ومن جالس العلماء وقرو من مزح استخف به ومن  
اكثر من شيء عرف به ومن اكثر كلامه اكثر خطاه ومن اكثر  
خطاه قل حياؤه واحذر يا ولدي اذا وصلت الى والدتك وسألتك  
ماذا رايت وماذا رويت ان تقول لها شغلي حبك عن تحقيق ما  
رايت او منعي شوقي اليك عن حفظ ما رويت او تفكري في  
حال عماتي واخواني الصغار شوش فكري انا الليل اطراف  
النهار بل قدر انك تقول لها رايت كذا ودريته ورويت كذا  
وفهمته وما كفاني ما كنت اتعلمه بالنهار بل كنت اسهر نارة مع  
والدي ونارة وحدي الى الاسبحار فعند ذلك تعظمك وتجلك  
كثيراً . فقبلت يده وانصرفت وعملت باشارته فاطمن قلبي  
وانشرح خاطري وصرت من ذلك الوقت الى الان مشغلاً  
بالاستفادة مجتهداً في الاستزادة ومن تفضل الله علي اجتمعت في  
السفينة بشخص انكليزي مع احد الملاحين له المام باللغة العربية  
فوقع بيني وبينه مزيد الالفه وارتفعت بطول الصحبة من بيننا  
اسباب الكلفة

المسامرة الثانية والعشرون

برهان الدين وصاحبه

( تمة من الكتاب )

فصرت ارتع معه في رياض العلم وامتتع من فوائده بها لم  
اجد عنه اعنياضاً فتشبتت بحبال وده وتمسكت وتعظرت بطيب  
اخلاقه وتمسكت لانه فضلاً عن كونه يعلمني درسي في اللغة  
الانكليزية قضيت معه ايام السفينة في مسامرات وجدت لها مزية  
اذ كشف لي من الامور معامها وجلا عين فكري بعد عماها فتارة  
كان يحدثني عن سابق اسقاره وتارة يطرفني بحكايات ونوادير وتارة  
يتخفي بالفاظ كأمثال الجواهر وكنت قبل ذلك لا التفت لتشويح  
اساليبه بل كان جل مثلي اليه لاجل التسلي به لكن رايت ان  
جميع ما يحكيه لا يجلو من فوائده اذا كان السامع نبيها فقلت في  
نفسى لماذا لا اكتب ذلك عنه واحفظ ما اسمعه منه وكل كتاب  
خزرتة لوالدي يكون بغضه من ذلك والبعض من فكري لتعلم  
ما علمت وثقف على قدر ما حفظت وثسلى بعباراتي عن روية  
ذاتي فصرت لا اسمع منه شيئاً الا اكتبه حتى جمعت من ذلك

جملة تصلح ان تسمى عند المسافرين بالرحلة وجعلتها كسفينة آخذ  
منها ما يلزم واحرره لك وها انا اسرد عليك بعض ما نقلته عنه  
واستفدته منه وأبدأ بذكر سبب معرفتي به وهو انه لما ازمننا من  
الاسكندرية على الرحيل وصرنا بعيداً عن ميناها بنحو ميل نظرت  
الى الساحل والمدينة فوجدتها يصغران شيئاً فشيئاً كلما بعدنا  
وكنت لا استطيع صرف نظري عن هذه الجهة حيث انها مسط  
راسي حتى صرت لا اراها الا كقطعة سوداء في وسط ضباب او  
هلال شك في خلال سحب الى ان صرت لا انظر غير الماء  
والسحاب المسخر بين الارض والسماء فكنت ارفع نظري الى اعلى  
واتامل في قدرة الخالق ولا اعلم من شي شيئاً وكنت ارى السحاب  
نارة يندم ونارة يتقطع ونارة يكون منفرداً ثم يتجمع ونارة ارى  
سحابة صفراء ذات نقط زرق وخضر حلت محل سحابة بيضاء ونارة  
كنت ارى على سطح البحر في آن واحد جملة منها في اشكال وصور  
والوان مختلفة تبهر النظر وكأنها تطوف حول اخرى ثم اراها حلت  
محل بعضها وتبادلت او اخذت في التناقص او تكاملت وبعد  
برهة من الزمن يندم ذلك كله كان لم يكن فكنت اقلب طرفي  
الى الافق من جميع جهاته واتبعه في استدارته واخلاف اشكاله  
وهيآته فارى للشمس ساطعة على وجه الماء لا يحجب نورها  
حاجب فعند ذلك ارى للماء الواناً لا حصر لها واذا كان البحر  
هادياً والريج في سكون رايت فيه من الصور والهيات ما لا اراه

حين يكون الغيم او تهب الرياح فارى تلك الصور تبرز مع بعضها  
وتتعاقد ومنها ما يعلو بعضه بعضاً فما سفلى يمر في جهة وما علا  
يمر الى جهة اخرى وعند ذلك تسمع اصوات مختلفة كالحنين تارة  
وكالانين تارة وكل هذه الحركات يتعدى اثرها الى السفينة فتارة  
تتايل مع اللطف وتارة تتحرك بقوة وعنق ولكون هذه اول سفرة  
ركبت فيها البحر واول مشاهداتي لعجائب هذه الامور كنت لا اتحول  
من موضعي الاً بنداٌ والذي اما لتعاطي الزاد او لقضاء الحاجة او  
للرقاد وكنت اظن انه لو تركني وشاني لكنت اقضي الليل والنهار  
في مشاهدة هذه الاثار فيبيننا انا اتامل في اسرار هذه الآيات التي  
لا يحيط بعلمها الاً عالم الخفيات واذا برجل من ملاحي المركب  
يقول لي بلغتي ما رايت في سفر البحر وما هذه العزلة عن الناس  
فقلت له انها اسلم واشرف واحسن شيء والطف اذ تجعل الافكار  
متجهة الى التأمل في عظمة الخالق وقدرته وتعين الانسان على  
معرفة بديع صنعته فمن اين لك بمعرفة لغتنا ولست من جهتنا  
فأبن لي جلياً امرك واصدقني فقال اني تحصلت على علم العربية  
باربع سنوات من عمري قضيتها في الاسر والعبودية عانيت فيها  
انواع الاهوال من الذل والاهانة ومشاق الاحوال وسأشرح لك  
قضيتي ان طالت معك صحبتي لكن نسيت الان اكثر ما علمته  
لعدم المسامرة فيه مع اهله لان كثرة اسفارنا كانت لبلاد غير بلاد  
العرب ومن وقت تحولي الى سفن الكومبانية المخصصة لجوب جهة

مصر والجهات المشرقية اخذت في تذكار ما نسيت فان اردت ان اعلمك لسان الانكليز وتعلمني اللسان العربي كان ذلك مامولي وغاية اربي فرغبت في ذلك لوجهين الاول ان يكون سميري فانسلى بما ينقله من سابق مشاهداته والثاني ان اتعلم اللغة الانكليزية من غير تكلف ومما حملني على الميل اليه كون والذي مع صاحبه الانكليزي دائماً في محادثاتهم العلمية فلذلك قبلت قوله لما فيه من الفائدة لي وله

فصرت اعلمه ويعلمني واظن ما استفدته منه اكثر مما استفادته مني كما سترينه وتيقنت ان ذلك سر دعاء والدي وبركة رضاها عليّ ولوان كلام والدي فيه اكتفاء لكئي كنت لا ادري الطريق الموصلة الى معرفة ما ارشدني اليه فعرفتها من حين عرفت هذا الرجل لانه كشف لي عن امور كثيرة كنت اجهلها ومن عباراته المتنوعة وحسن لفظه اشتغلت بكتابة ما كان يلقيه وحفظه فوصلت الى درجة لم ادر مبلغها وكنت ملازماً له لا يفصل ذاتي من ذاته الاّ اداء ما عليه من خدماته فانتقضت مدة البحر على احسن حال وهو باق معنا الى الان

فاتفق ان شاهدي ذات يوم وانا انظر الى البحر وتعجب من عظته وقدرة مدبره ولذا به قد نهني بيده وقال لي فيم اطلت الفكر فقلت له في عظم هذا البحر فقال لي ليس هذا هو البحر لانه واز كان عظيمًا لكنه صغير جداً بالنسبة لغيره من البحار اذ هو كجدول

من نهر او جعفر من بحر فقلت لا زلت ملاذا وهل هناك بحار  
غير هذا فبسم متعجباً ونظر اليّ مستغرباً وقال كانك لم تقراء علم  
الجغرافية فقلت وايّ علم هذا فضحك وقال هو العلم بسطح الارض  
وهيئاتها في الطول والعرض وما فيها من البحار والمدائن والانهار  
وما اخص به كل بقعة منها واديان اهلها وكيفية حكومتهم وما هم  
عليه من الاخلاق والاحوال وغيرها فقلت له لم اسمع بهذا الا  
منك ولم اروه الا عنك فقال كيف هذا مع ان العرب هم الذين  
دونوه واسسوه افتراهم الان تركوه ونسوه مع ان معرفته عند جميع  
اهل الاديان من اهم الواجبات على كل انسان اذ به يعلم ما على  
الكرة من المخلوقات ويقف على حقيقته كثير من الكائنات وبدونه  
تكون معرفة التاريخ عسرة ثم قال فاذا يكون علم التاريخ عندكم  
مفقوداً فقلت له لا الا اننا لا نجعله من الامور الضرورية اللازمة  
بل نعهده من ضمن القصص والاختبار اذ ليس علماً يحتاج  
الى معلم فيمكن ان يقره الانسان من نفسه فلما سمع ذلك مني  
عيس واعرض وطاطا راسه الى الارض وسكت ملياً ثم رفع راسه  
وقال الان علمت سر تنهقر الملة الاسلامية وسبب ضعف اهل  
البلاد المشرقية وهوانها لما هجرت علم التاريخ بمدارسها زال من  
بين رجالها معرفة سير الماضين الذين كانوا سبباً في سطوتها وعظم  
بطشها وتمكن قوتها وحيث لا قوة للملة الا بقوة رجالها ولا تكمل  
قوة الرجال الا بالعلم كان ترك علم التاريخ وباقي العلوم مما

يضعف قوة الملة ويضيع شهرتها ويجعلها تحت أسر غيرها فيجور عليها ويذلها واعلم يا ولدي ان فن التاريخ جم الفوائد عزيز الفرائد اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى يقتفي اثرهم من يروم الاقتداء بهم في احوالهم الا انه محتاج الى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل فرما لا يامن فيها من مزلة القدم ومنفعة علم التاريخ عامة للخاصة والعامة وهو مشير كل امير وامير كل مشير وسير كل وزير وظهير كل سفير اذا سئل عن خبر اجاب وابدى فيه العجب العجاب ترتاح به الارواح الفاضلة وتميل اليه النفوس الكاملة من الحكماء والاساطين والملوك والسلاطين وهو مرآة الزمان ولاخبار الماضين كالترجمان فكف فيه من حوادث وامثال به تنف على ما كان عليه اباؤنا واجدادنا ومشاهير كل ارض وامة والحوادث التي مرت بين الامم وبعضها والفتن التي ارجبت انقلاب البقاع باهلها ونرى الامم واحوالها والامراء وافعالها والعلماء واقوالها وما مر على الخلق من خير فواجب تقدمهم وشهرتهم ومن شر فواجب فقرهم وفاقتهم فلم يترك سيرة ملك الا احصاها ولا احوال رعية الا استقصاها فهو خزانة الحوادث كل احد ياخذ منه ما يلزم لصنعتة فياخذ منه المجاهد ما يلزم للجهاد والعالم ما يزيد به شرفه بين العباد وصاحب الحرفة ما يزيد الرغبة في صنعتة

فهو اليسوب لكل فن والمفتاح لكل اثر حسن وغير حسن فناخذ  
 منه ما يلزمنا فنعلم المدوح فخبه والمذموم فنخبه فهو المنبع والاصل  
 لاكتساب حلل الفضل والحصن المانع من غوائل الجهل واهم  
 شي يجب تدريسه بالمدارس والمكاتب لتبنيه ابناء الملة على صفات  
 الكمال فيرغبون في اكتساب تلك الصفات ويجوزون بها اعلى  
 الدرجات فيعلمون صفات الابطال وما حازوه من الشرف عند  
 النزال لمحاماتهم عن اوطانهم ويطلعون على صفات الصالحين  
 الذين اورثوا ملتهم ثرات علمهم وعلمهم فيتعودون من الصغر على  
 الاتصاف بصفاتهم والافتداء بافعالهم ولا يكفي ان نتعلم الاطفال  
 كيفية النثر ونظم الشعر واصول الكلام بل الاهم من ذلك  
 اكتسابهم حب الوطن وتمرينهم على ما سبق من حوادث الزمن  
 حتى يكونوا مثلاً وقدة ومن الغريب اننا نرى اغلب الخلق  
 يرغبون في الاطلاع على سير مخترة وخرافات واكاذيب ونحو  
 ذلك من الاساليب ولا يعلمون لمن اشتهر من ابناء جنسهم اثراً  
 ولا يروون عنه خبراً فنراهم يجهلون سير المشهورين من ابناء ملتهم  
 ولا يعرفون نسبهم ولا حسبهم ويعتنون بمعرفة من مات من منذ  
 آلاف سنين اكثر من اعنائهم بنسبة اقاربهم وجنسهم والمتصرف  
 في امرهم ويرغبون في معرفة البلاد البعيدة ولا يعتنون بمعرفة  
 ارضهم وارض المدينة القاطنين بها  
 فحجبت من كلامه وتمت ان تكون تربيتي حسب مراده

فحين رأى ذلك متي أراد ان يذهب المحجل عني . فقال لا باس عليك فانه لم يهتد بنفسه احد وليس التصير من قبلك وانما اللوم والمعتبة على من نُصبت له اعلام الهداية وهو ينظر فلم يذل عليها وبانت له غاية الرشد فلم يسلك بنفسه واتباعه اليها وعلم فوائد التربية فلم يطلبها واعطي كواسب الجوارح فلم يرسلها وظهرت له الفضائل فلم يكسبها من كافل ارتفق وساد الراحة وقعد به الكسل وهو يرى نجاحه وامير اخمد هتمه الاغفال واختم ذكر مساعيه الاهال وكل راع عن رعيته مسؤل وكل طالب مآخذ الخيرات عليها مدلول

فقلت له نصحت فابلغت وسمعت فوعيت فلك الشكر على ما افدت واسأل الله ان يبلغني بك ما قصدت فلقد دلت طالباً ونهيت نائماً وعرفت مجهولاً وانلت مسؤلوا وفحمت لي ابواب الطلب وشدت يدي منه باقوى سبب وتركتني انظر الامر بعين ما كنت انظر بها فلقد انشي بمصر مدارس لتعليم الشبان اظن ان العمل جار فيها على ما وصفت ومسلوك بابنائها في التعليم والتربية الطريق التي اوضحت

فقال ان صح ذلك فقد طابت اعمالهم وتساقت في رضاهم امالم واستحق ولايتها الثناء الجميل واستفادوا من الملك الاعلى الجزاء الجزيل وانا ان شاء الله تعالى لا آلو جهداً في ارشادك وتبليغك من المعرفة الى مرادك ان طاب مقامي وبلغت مرامي فقلت له

ما مرارك وبم يطيب مقامك فاطرق اطراق الحزين حتى سمعت  
من صدره بعض الاين ثم رفع راسه مصعداً انفاسه وقال  
الانسان معتن ولا عنب على الزمن فقد الجأتني الضرورة الى  
الاحتراف وترامت بي الحاجة فيما تراه من الاعنساء فليس لي  
امنية غير سكنى الارض القارة ولو قدرت ما اقمث بهذه المنازل  
الكاراة الفارة فان بلغت مقصودي بذلت في تربيتك مجهودي  
وارجوك ان تسأل حضرة الوالد ان يكلم صاحبه في امري واني  
ارغب الدخول في جلته والتمكن من الاقامة بخدمته فوعده  
بذلك واقبلت عليه مستخرجاً بالسؤال مكنون ما لديه فبادر  
بالاجابة وقال ان شئت جعلنا اول مسامرة بيننا كلاماً اجمالياً  
من علم الجغرافيا فيما يتعلق بهذه الارض التي هي مسكننا يكون  
كالمقدمة المشوقة الى الاعنساء بتعرف تفاصيل ذلك العلم النفيس  
وعند بلوغ المقصود ان شاء الله تعالى تحصل على ما يلزم لك من  
الآلات التي تجعلك بالنظر فيها عند التعلم كانك تنظر من  
مكانك الى جميع بقاع الارض وبجارها وانهارها وجبالها فاضهرت  
الابتهاج بحسن نيته واثبتت على لطف اخلاقه وحسن سجيته  
واخذت القلم لاكتب ما يلية لاتذكر ما اسمعه منه واعيه فلم ينطق  
بكلمة الا اكتبها ورايت ان اثبت ذلك في هذا الكتاب الذي  
سطرته لكي ادخل السرور والاطمئنان على قلب اشفق الناس  
علي واميلهم لايبال كل خير الي ليزيد سرور والدتي بما حصلت

عليه من المعارف ولتاخذ في تتبع افكار اخوتي بما يكون محمود  
 العاقبة لها ولاولادها ان شاء الله تعالى فاني علمت انه ليس انفع  
 من طرح بعض المعارف الاولية في اذهان الصغار فانه يكون  
 كالبنذر يلقي في الارض الثقية يرحي ان تظل اشجاره وتجنبي باطراف  
 الانامل ثماره وما علي ان يطول المكتوب اذا اشتغل على اجل  
 مرغوب ومطلوب

---

المسامرة الثالثة والعشرون

الجغرافية والنارنج

( قيمة من الكتاب )

قال يعقوب يابني كان الناس في سالف الزمان يعتقدون  
 في اكثر الامور خلاف ما هي عليه فمن ذلك امر الارض فان  
 الناس كانوا يعتقدون انها قطعة بسيطة كالصحيفة ذات شكل  
 مربع او مثلث وسمك بالغ ما بلغ الى ان جاء الحكماء المشهور  
 ارستطو فقال ان الارض كسائر الكواكب على شكل الكرة

وبرهن على ذلك وما زال الناس مشتغلين بهذه المسألة حتى صار العلم بكون الارض كرة من قبيل العلوم الضرورية الآن فيها نوع الخساف من جهة قطبيها فهي كالبطيخة . وقطباها عبارة عن القطبين اللتين احداها بمنزلة عنق البطيخة والاخرى بمنزلة ما يقابله منها والدائرة العظمى التي تقسمها نصفين فيما بين القطبين تسمى خط الاستواء لكونها تحاذي الشمس في السنة مرتين فيستوي عند ذلك الليل والنهار وموقعها من الفراغ على بعد ( ١٥٢٨٨٢٥٠٠٠٠ ) ميريامتر من الشمس وتم دورتها حول الشمس في ثلث مائة وخمسة وستين يوماً وخمس ساعات وثمانى واربعين دقيقة وتسع عشرة ثانية وتم دورتها على نفسها في اربع وعشرين ساعة وقدر نصف الخط الواصل بين قطبيها ٦٢٥٥٩٤٢ متراً وقدر نصف قطر دائرة الاستواء ٦٢٧٦٨٥١ متراً ومساحتها ٥٠٩٨١٥٧ ميريامتر مربع ( والميريامتر ) كلمة افرنكية معناها عشرة الاف متر وهي عبارة عن ٢٨٢٢٢ قصبه وحجمها ٦٠٨٢٦٢٤٠٠٠ ميريامترمكعب وتنقسم من المركز الى السطح بالنظر للمواد التي هي مركبة منها الى قسمين الاول القسم المركزي وهو ما قارب المركز نصف قطره ( ٥٦٠ ) ميريامتر والثاني القسم السطحي وهو القشرة الباقية وهي ما فوق القسم الاول الى ظاهر سطح الارض ويختلف سمكها من اثنين من الميريامتر الى اربعة منه فاما القسم الاول فان الناس

وان لم يصلوا الى رؤية شيء منه البتة الا انهم بحثوا فيه وتكلموا  
عليه وتطلبوا معرفته بالفكر والنظر العقلي والاستدلال ببعض  
الامور الارضية كالمياه الحارة النابعة من جوفها وجبال النار  
والزلازل وغيرها فقالوا ان ذلك القسم جميعه معدني شديد  
الحرارة ملتهب مائع واما الجزء السطحي فهو ايضا وان لم يتعمق  
الانسان فيه زيادة عن ستمائة متر الا انه علم تركيبه من المواد  
المقذوفة من افواه جبال النار المعروفة بالبراكين ومن تركيب  
طبقات الجبال الشاخنة فالجبل الذي ارتفاعه ثمانية آلاف متر  
مثلا يدل على تركيب عمق من الارض بقدر ذلك الارتفاع وعلى  
اي حال فهذا الجزء السطحي من الكرة عبارة عن طبقات متوالية  
مختلفة التركيب والسلك والاتجاه وقد قسم علماء فن الجيولوجية  
(اي علم طبقات الارض) هذا الجزء من الكرة الى طبقات سماوية  
كل طبقة منها باسم مخصوص وتفصيل ذلك في كتب الفن  
المذكور وانما الذي يلزمنا الان هو ان نعلم ان سطح الكرة ليس  
مستويا وان به محال مرتفعة عن الماء خارجة عنه وتسمى اليابسة  
والقارة ومحلات منخفضة مغمورة بالماء وتسمى البحار وهذا الارتفاع  
والانخفاض اما لاسباب قوية اثرت في بعض اجزاء الارض فخفضتها  
واما لقوة فعالة قذفت البعض الاخر فرفعته فحصل ما تراه من  
الارتفاع والانخفاض وعلى كل فالمرتفع من الارض اعني القارة هو  
المسكون ويتقسم الى سهل وجبل وجزيرة وشبه جزيرة وغير

ذلك والمنخفض منها ينقسم أيضاً الى بحر وخليج وبحيرة وغير ذلك  
وسعة الأرض اليابسة ١٢٦٦٢٩٩ ميريامتر مربع وسعة البحور  
٢٠٨٥٢٠٥٠٨ ميريامتر فجميع الأرض اليابسة لا تزيد عن ربع  
سعة البحور تقريباً ولكل من البحار والأرض القارة تفصيلات  
واقسام لها أسماء واصطلاحات ستعلمها فيما بعد ان شاء الله تعالى  
ولا حاجة لنا الى الكلام عليها الآن وإنما نقول ان الأرض القارة  
كما ارتفعت عن البحر قد ارتفعت بعض جهاتها عن باقيها فما  
ارتفع منها ان كان كثير الارتفاع فهو الحبل وان كان قليل  
الارتفاع فهي الهضبة ومتى اتصلت الجبال ببعضها وامتدت الى  
مسافات بعيدة قيل لها سلسلة جبال وقد يخرج من الجبل في  
بعض الجهات فروع تمتد الى انحاء مختلفة ويخرج من هذه  
الفروع فروع اخرى حتى تشغل الولاية بتمامها ولا بد لكل جبلين  
من وهدة بينهما إما صغيرة ويقال لها الشعب او كبيرة ويقال لها  
الوادي وفي هذه الوهاد تكون مجاري الأنهر والخلجان فتسير منها  
حتى تنصب في البحار فنباع الأنهر من الجبال ومصبتها في البحار  
ويوجد على سطح الكرة نباتات وحيوانات منها ما يختص  
بجهة ومنها ما يوجد بسائر الجهات وهي تكثر كلما قربت من جهة  
خط الاستواء وتقل كلما قربت من القطبين والذي علم الى الان  
من اصناف النباتات قريب من ثمانين الفا وهي تنقسم الى قسمين  
الاول النباتات اللابزرية وهي نباتات عديمة الفلقة البزرية

كالشبية والمحشيش البحري والقسم الثاني النباتات البزيرية وهي التي لها فلتة بزيرية كالحنطة والنخل . والذي علم من اصناف الحيوان قريب من مائة الف وقد قسمت الى اربعة اقسام القسم الاول الحيوانات الفقارية وهي التي لها هيكل عظمي كالانسان . القسم الثاني الحيوانات الرخوة وهي عديمة العظام من داخل ولها غطاء من الظاهر كالمحار . القسم الثالث الحيوانات المفصلية وهي مركبة من كثيرة متحركة على بعضها كالعنكبوت . الرابع الحيوانات الشعاعية وهي حيوانات تكون فيها قوة التركيب ضعيفة وهي تقرب من النباتات ولذلك تحسب واسطة بين الحيوان والنبات ولا يعلم لها من الحواس الا اللمس وذلك كالاسفنج فانه اذا وضعت عليه اليد وهو في البحر اقبض وانكمش وتحت هذه الاقسام انواع كثيرة واشرف جميع هذه الانواع نوع الانسان لانه يعيش في جميع بقاع الارض فجميعها مسكته ومحل سلطانه وهو وان كان نوعاً واحداً لكنه ينقسم ثلاثة اقسام الاول الابيض ويعرف بالتوقاسى نسبة الى قوقاس . ويقال قوة قاف (كوه قاف) اي جبل قاف وهو جبل في بلاد المجر كس بين بحر الخزر والبحر الاسود وهذا القسم يمتاز ببياض اللون وحمرة الخد ورقة الانف وشمه وضيق الفم واستقامة الاسنان القواطع وحسن استدارة القحف ولين الشعر وطوله واسترساله وكثافة اللحية وعلو الجبهة ومنه سكان بلاد اوروبا ونسلم في امريكا وسكان غربي آسيا اي العرب والفرس .

واليهود والسريان والتار وهو في شمالي اوربا وأواسط آسيا  
يندرج في القسم الثاني حتى لا يكاد ينتسب عنه وقد انتسب الى  
قوقاس لان اهل تلك النواحي اي الجراكسة والكرج اجل اهل  
الدنيا واكمل هذا الاسم في صفاته الخصوصية القسم الثاني الاصفر  
ويعرف بالمغولي نسبة الى المغول وهو قسم من التار ويقال انهم  
في الاصل من جبال التائي في شمال الصين وهذا القسم يمتاز  
بكونه اصفر البشرة مربع التحف مخروطي الجبهة عريض الوجه  
مفرطه ناتئ الخدين اسود العينين ضيقها مع ميلها الى الجهة  
الوحشية صغير الانف افطسه خفيف اللحية اسود الشعر قليلة مع  
المحشونة وهو اقصر قامه من القسم الاول ومنه اهل الصين  
والهند ويابان وشمالي اسيا وشمالي بلاد المسكوب في اوربا وشمالي  
امريكا غير ان سكان امريكا المعروفين بالاسكيمو لهم تعلق بالقسم  
الثالث حتى زعم البعض انهم نتاج اختلاط القسم الثاني والثالث .  
القسم الثالث الاسود وهو يمتاز بسواد البشرة وله ثلاثة فروع  
اولها الملقب نسبة الى شبه جزيرة ملقا ويمتاز باللون الزيتوني  
وسواد الشعر وغزارته مع جعودة قليلة وضيق الراس وكبر الانف  
ومنه سكان ملقا وجزائر المحيط وجزيرة ماداغسقر ويقال انه  
فرع من القسم الثاني المتقدم ثانياها الاميركاني ويمتاز باللون النحاسي  
وسواد الشعر واسترساله وخفة اللحية وانخفاض الجبهة وارتفاع  
عظم الخد وطول القامة ومنه سكان امريكا الاصليون الذين

وجدوا في القارتين الغربيتين قبل وصول اهل اوربا الى هناك  
 ثالثها الزنجي ويمتاز بشدة سواد البشرة وجعودة الشعر وسواده  
 وقصره وانخفاض الجبهة ومقدم التحف وفطس الانف وعرض  
 الحنك واتساع الفم وضخامة الشفتين وبروز الفم على هيئة الخرطوم  
 وبياض الاسنان ومنه اكثر سكان اواسط افريقية وجنوبها وهذه  
 الاقسام في بعض الجهات قد امتزج بعضها ببعض وتنج من ذلك  
 فروع عديدة يتعسر المحاقها باصونها والانسان وان شارك غيره  
 من الحيوانات في كثير من الصفات الا انه اخص بامور كثيرة  
 منها حسن الصورة واعندال القامة والتسلط علي ما في الارض  
 والتمتع به والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط  
 به نطاق العبارة واعظم ميزته العلوم والادراكات بما ركب فيها  
 من القوى المدركة التي يميز الحق من الباطل والمحسن من  
 القبيح فيعلم بافكاره جميع احتياجاته ويعبر عنها بالنطق فالتك  
 حينئذ هو الآلة التي تسوق الجمعية البشرية الى الكمال وتتمام  
 الالفه وحسن الخصال



المسامرة الرابعة والعشرون

العبادات

( نعمة من الكتاب )

وجميع أفراد النوع البشري مائلون بالفطرة الى تعظيم الخالق سبحانه لكن منهم من استدل فاهتدى ووصل ومنهم من اخطأ طريق الصواب فضل وأضل ويتسم الخلق بحسب الاعتقاد الى قسمين وكل قسم تحته طوائف ومذاهب كثيرة القسم الاول من يقول ان الاله المعبود لا يكون الا واحداً في ذاته وفي صفاته وان العبادة لا تكون الا له  
القسم الثاني من يقول بتعدد الآلهة وتحث هذا القسم فرق متعددة

الاولى جعلت لبعض الكواكب تأثيراً فعبدوها وكان ذلك كثيراً في الامم السالفة ولا يوجد الآن الا عند القليل الغاية جعلت صفات الالهية لبعض مخلوقات اخر فعبدوها وهم الممجدون من الامم السابقين وقد انقطع اثرهم بالكليّة  
الثالثة يقول ان الاله يظهر في صور متعددة سماوية وبشرية

وحيوانية وهم البراهمة باسيا ومن هذه الفرقة من يعتقد ان الاله عبارة عن متسع في الجو يجتمع فيه ارواح المخلوقات وفيه مجتمع اهل السعادة الذين تجردوا عن المادة وانهم ينزلون الى الارض في صورة بشرية لتطهير النوع البشري من الاوزار ويسون هذه الارواح (بوضا) وعدد هذه الفرقة اكثر من مائتي مليون

الرابعة وان لم يتحقق لنا اعتقادها الا انها تميل الى تعظيم المادة وهي بعض سكان اسيا من جهة المشرق . فاما القسم الاول فينقسم الى ثلاث طوائف الاولى العبرانية وهذه لا تصدق الا بما جاء به موسى وانبياء بني اسرائيل ويتظرون المسح وعدد هذه الطائفة قريب من اربعة ملايين وهي متفرقة في جميع بقاع الارض . الطائفة الثانية العيسوية يقولون بما انزل على موسى والانبياء وبما انزل على عيسى بن مريم وقد انقسمت هذه الطائفة الى فرقتين الاولى التابعون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية وعددهم قريب من مائتي مليون وهم باوروبا من جهة الشمال والثانية التابعون للكنيسة الرومية وهم باوروبا من جهة الشرق وعددهم ستون مليوناً تقريباً ولا فرق بين الكيستين الا في بعض عقائد دينية وكون البابا نائباً عن المسيح او لا وينقسم اتباع الكنيسة الرومانية المذكورة الى قسمين كاثوليكية ومعتقدم ان البابا هو رئيس الديانة فيعتقدون صدقه ويتقدون به في فعله وعددهم مائة واربعون مليوناً والثاني البروتستانت وهؤلاء لا يقولون الا بما في الانجيل وعددهم ستون

مليوناً ويجيزون زواج التيسيس ولا يقولون بالصور والتماثيل بخلاف فرقة الكنيسة الاولى وكذلك فرقة البروتستانية تنقسم الى مذهبين احدهما اللوتيري نسبة الى واضعه لوتير والثاني الكلفيني نسبة الى واضعه كلفين واهل المذهب الاول يقولون بحضور عيسى حقيقة في العشاء الرباني وهو عندهم عبارة عن خبز ونبذ يقدمها الكاهن للناس بعد التقديس ويقولون انهما يستحيلان الى جسد المسيح ودمه بل الى لاهوته ونفسه الناطقة واهل هذا المذهب يقبلون تفاوت درجات التقسس بخلاف اهل المذهب الثاني

الطائفة الثالثة المحمدية قال وانت اعلم بعقيدتهم واصول دينهم ومذاهبهم وفرقهم فلا ينبغي لي ان اشرحهم لمثلك وانما احب ان اسمع منك ان نشطت شرح بعض امورهم فقلت نعم الملة المحمدية هي دين الاسلام وهي مبنية على التصديق بما جاء به نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد اختلفت وانقسمت كغيرها حسبما اخبر به صلى الله عليه وسلم الى ثلاث وسبعين فرقة منها الفرقة الناجية وهم الذين على ما كان عليه رسول الله واصحابه وقد كان المسلمون عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة وطريقة واحدة الا من كان بيطن النفاق ويظهر الوفاق ثم نشأ الخلاف فيما بينهم اولاً في امور اجتهادية لا توجب ايماناً ولا كفرًا وكان غرضهم منها اقامة مراسم الدين وادامة مناهج الشرع

التوهم وذلك كاختلافهم في موضع دفنه بمكة او المدينة او القدس حتى معمول ما روي عنه من ان الانبياء يدفنون حيث يموتون فدفنوه بالمدينة وكاختلافهم في الامامة وما جرى في وقعة الجمل وصفين ثم اختلافهم ايضا في بعض الاحكام الفرعية وكان الخلاف يدرج ويترقى شيئاً فشيئاً الى اخر ايام الصحابة حتى ظهر معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري وخالفوا في القدر واسناد جميع الاشياء الى تقدير الله ولم يزل الخلاف يشعب والآراء تفرق حتى تفرق اهل الاسلام وارباب المقالات الى ثلاث وسبعين فرقة كما ذكر وهي ترجع الى فرق كبيرة

الفرقة الاولى المعتزلة اصحاب واصل بن عطاء كان في مجلس الحسن البصري فدخل رجل فقال للحسن يا امام الدين ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة (يعني جماعة من الخوارج) وجماعة اخرى يرجئون الكبائر (يعني المرجئة) ويقولون لا نضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكيف تحكم لنا ان نعتقد في ذلك فننكر الحسن وقبل ان يجيب قال واصل انا لا اتحول ان صاحب الكبيرة مؤمن ولا كافر ثم قام الى اسطوانة من اسطوانات المسجد واخذ يهرر على جماعة من اصحاب الحسن ما اجاب به من ان مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر وثبت له المنزلة بين المنزلتين فقال الحسن البصري قد اعتزل عنا واصل فلذلك سمى هو واصحابه معتزلة وهم يقولون بان الخادم اخص

وصف الله لا يشاركه فيه ذات ولا صفة وينفون الصفات  
الزائدة على الذات ويقولون بان كلامه مخلوق محدث وبانه غير  
مرئي في الاخرة الى غير ذلك

الفرقة الثانية الشيعة اي الذين شابعوا علياً رضي الله عنه  
وكرم وجهه وقالوا انه الامام بعد رسول الله بالنص اما جلياً واما  
خفياً واعتقدوا ان الامامة لا تخرج عنه وعن اولاده وان خرجت  
فاما بظلم يكون من غيرهم او بتقبة منه ومن اولاده

الفرقة الثالثة الخوارج ومنهم الذين خرجوا على عليّ عند  
التحكيم وكفروه فسماوا المحكمة وهم اثنا عشر الف رجل قالوا من  
نصب من قريش وغيرهم وعدل فهو امام ولم يوجبوا نصب الامام  
وكفروا عثمان واكثر الصحابة ومرتكب الكبيرة

الفرقة الرابعة المرجئة لقبوا به لانهم يرجئون العمل عن  
النية اي يؤخرونه في الرتبة عنها وعن الاعتقاد او لانهم يقولون  
لا ينفع مع الايمان طاعة كما لا يضر مع الكفر معصية

الفرقة الخامسة النجارية اصحاب محمد بن الحسن النجار وهم  
يوافقون اهل السنة في خلق الافعال وان العبد يكتسب فعله  
ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات الوجودية ونفي الروية وحدوث  
الكلام

الفرقة السادسة الجبرية قالوا ان المعبود مجبور في افعاله

ومنهم الجهمية اصحاب جهم بن صفوان القائلون بان العبد لا قدرة له اصلاً ولا مؤزرة ولا كاسبة وهو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها

الفرقة السابعة المشبهة شبهوا الله سبحانه بالمخلوقات  
الفرقة الثامنة الناجية وهم اهل السنة والجماعة الذين قال  
فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين على ما انا عليه  
 واصحابي ومذهبهم خال عن بدع الفرق المتقدمة وقد اجمعوا  
على حدوث العالم ووجود البارئ سبحانه وانه لا خالق سواه  
وانه قديم متصف بالعلم والقدرة وسائر صفات الجلال لاشييه  
له ولا ضد ولا ند ولا بجل في شيء ولا يقوم بذاته حادث ليس  
في حيز ولا جهة ولا يصح عليه الحركة والانتقال ولا الجهل ولا  
شي من صفات النقص مرئي في الآخرة ما شاء الله كان وما لم  
يشاء لم يكن غني لا يحتاج الى شيء ولا يجب عليه شيء ان اثاب  
فبفضله وان عاقب فبعده لا غرض لفعله ولا حاكم سواه لا يوصف  
فيما يفعل او يحكم بجور ولا ظلم وهو غير متبعض ولا له حد ولا  
نهاية وله الزيادة والنقصان في مخلوقاته والمعاد الجسماني حق  
وكنا المجازة والحاسبة والصراف والميزان وخلق الجنة والنار  
وخلود اهل الجنة فيها والكفار في النار ويجوز العفو عن المذنبين  
والشفاعة حق وبعثة الرسل بالمعجزات حق من آدم الى محمد  
عليهم الصلاة والسلام واهل بيعة الرضوان واهل بدر من اهل

الجنة والامام يجب نصبه على المكلفين والامام الحق بعد رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ولا تكفر  
 احداً من اهل القبلة الا بما فيه نفي للصانع القادر العليم او شرك او  
 انكار للنبوة او لما علم محيئه عليه السلام ضرورة او لمجمع عليه  
 كاستحلال المحرمات واما ما عداه فالقائل به مبتدع غير كافر  
 وهذه الملة الاسلامية اعمال بدنية واعمال قلبية وواجبات ومحرمات  
 ومندوبات ومكروهات فالبدنية ترجع الى خمس خصال شهادة  
 الا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقامة الصلاة وائتاء  
 الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله والقلبية مرجعها الاخلاص  
 لله عز وجل في القول والعمل والواجب مثل ما ذكر من الاعمال  
 ومثل اداء الامانات والانفاق على ما تلزم نفقته من الامل والعيال  
 والمحرم مثل الغش والغيبة والنميمة والمحدد والمحدد والاضرار  
 بأحد في نفسه او عرضه او ماله الا بجهته والمندوب مثل اصطناع  
 المعروف وانظار المعسر والمكروه مثل اخفاء عيب في سلعة لا يلزم  
 به ردها ونحو ذلك فهذه نبذة اجمالية من احوال هذه الامة  
 والتفصيل يحتاج الى التطويل واريد ان تعود الى تشييم ما بدأت  
 من الكلام فما المعروف الا بالتأمل

## المنازمة الخامسة والعشرون

### الانسان وهياة الاجتماع

( تمة من الكتاب )

فقال نعم قد قدمنا القول على اقسام نوع الانسان وديانته بما استأق به القول الى هذا المقام والان تقول ان هذا النوع الانساني من طبعه حب الالفة والميل الى الجمعية ولذلك يقولون الانسان مدني بالطبع اي لا بد له من الاجتماع الذي هو معنى المدنية في اصطلاحهم وبيان ذلك ان الله تعالى خلق الانسان وركبه على صورة لا بقاء له عليها الا بالغذاء وهده الى التمامه بظفرته وتحصيله بما اودع فيه من فكره وقدرته الا ان فطرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته وغير وافية بما يلزم لمادة حياته فلو فرضنا اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل الا بعلاج كثير من الطحن والعجن والخبز والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال يحتاج الى مواعين كثيرة وآلات لا تم الا بكثير من اهل الصناعات كالحداد والتجار والفاخوري وغير ذلك ولو فرضنا انه يأكله حياً من غير علاج فهو ايضاً يحتاج في تحصيله

حَبًا الى اعمال كثيرة كالزراعة والحصاد والدرس الذي يخرج  
الحب من غلاف السنبل وكل واحد من هذه يحتاج الى آلات  
متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى ومن المستحيل ان توفي  
قدرة الواحد بذلك كله او بعضه فحيثئذ لا بد من اجتماع القدر  
الكثير من ابناء جنسه فيحصل بالتعاون قدر الكفاية لضعافهم  
وكذلك يحتاج كل واحد في المدافعة عن نفسه الى الاستعانة بابناء  
جنسه لان الله سبحانه وتعالى لما ركب الطباع في الحيوانات وقسم  
القوى بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القوة  
اكمل من حظ الانسان فقوة الفرس مثلاً اعظم من قوة الانسان  
بكثير وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف قوته  
ولما كان العدوان طبيعياً في الحيوانات جعل لكل واحد منها  
عضواً لدفع ما يصل اليه من تعدي غيره وجعل للانسان عوضاً  
عن ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع خادمة للفكر  
والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة في  
جميع الحيوانات للدفاع كالرماح النائية عن القرون الناطحة  
والسيوف النائية عن المخالب الجارحة لكن قوة الواحد من البشر  
لا تقاوم قوة الواحد من الحيوانات العجم لاسيما المفترسة فهو عاجز  
عن مدافعتها وحده ولا تفي قدرته ايضاً باتخاذ الآلات المعدة  
للمدافعة وحده مستقلاً بنفسه لكثرتها وكثرة الصنائع اللازمة  
لاعمالها واستعمالها فلا بد له في ذلك كله من التعاون بابناء جنسه

لتم حكمة الله تعالى في بقاءه وحفظ نوعه والألم يتيسر له  
غذاؤه ولا المدافعة عن نفسه فيكون عرضة للخطر وفريسة للحوانات  
وطعمة للطيور ويبطل نوع البشر فإذا وجد التعاون حصل له  
القوت للغذاء والسلاح للمدافعة فظهر بما ذكر ان الاجتماع ضروري  
للنوع الانساني ثم اذا حصل هذا الاجتماع فلا بد لهم من وازع  
ورادع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان  
والظلم اذ ليس السلاح الذي جعل دافعاً للحوانات العجم كافياً  
لدفع عدوانهم على بعضهم لانه موجود عند جميعهم فيحتذوا لا بد لهم  
من شيء اخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يتصور ان يكون  
من غير جنسهم لتصور مدارك جميع الحيوانات عن مداركهم فيتعين  
ان يكون واحداً منهم وان يكون له عليهم الغلبة والسلطان حتى  
يتمكن بذلك من كف القوي منهم عن الضعيف ويستخلص  
للعاجز من القادر ويتصرف للمظلوم من الظالم فينكف شربعضهم  
عن بعض بعدله ويعم الأمن جميعهم تحت ظله وهذا هو معنى  
الملك فلا بد لهم منه ولا بد ايضاً ان يكون متميزاً عنهم بخواص  
حتى يقع التسليم له والتبول منه لينفذ حكمه فيهم وعلينهم من غير  
انكار ولا تزيف ولكن لا يتم عز هذا الملك الا بالشرعية والقيام  
لله بالطاعة والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشرعية الا بالملك  
ولا عز للملك الا بالرجال ولا قوام للرجال الا بالمال ولا سبيل  
الى المال الا بالعمارة ولا سبيل للعمارة الا بالعدل والعدل هو

الميزان المنصوب بين الخليفة نصبه الرب وجعله له قيا وهو الملك  
ولذا يقال لا ملك الا بالجند ولا جند الا بالمال ولا مال الا  
بالخراج ولا خراج الا بالعمارة ولا عمارة الا بالعدل ولا عدل الا  
باصلاح العمال ولا تصحح العمال الا باستقامة الوزراء وراس الكل  
نفقد الملك احوال رعيته بنفسه واقتداره على تاديبتها حتى يملكها  
ولا تملكه وقد وضع في هذا المعنى دائرة جامعة لثاني كلمات حكيمية  
سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتد اعجازها على صدورها فلا يتعين  
طرفها وهي هذه وقد رسمتها لك في ظهر الجواب لتخفي صورتها  
مع الورق الذي عندك في الدولار

ثم قال لي بعد ذلك ان الحكومة تنقسم الى صورتين الاولى  
الحكومة الجمهورية وهي ان يكون الحكم مفوضاً لمجلس مركب من  
اعضاء تنتخبهم الرعية لادارة امور الملكة تحت قوانين يلزمهم العمل  
بها وعدم الخروج عنها . الثانية السلطنة والحكومة الملكية وهو ان  
يكون زمام الحكم والتدبير والامر والنهي بيد شخص واحد وهو  
الملك وهذه ايضا تنقسم الى قسمين مقيدة ومطلقة لانه اما ان  
يكون الملك مقيداً بقوانين وشرائع لا يستطيع الخروج عنها الى  
هو نفسه وهي الحكومة الملكية المقيدة واما ان يكون غير مقيد بشي  
من ذلك يحكم برأيه ويتصرف بهوى نفسه فيكون . رايه شريعة  
الملكة وحكمه قانونها وهي الحكومة الملكية المطلقة وتنقسم الادارة في  
الحكومة الى ادارة دينية وادارة سياسية وادارة عسكرية وادارة مالية

ولا بد لكل دولة من ايرادٍ كافٍ لها وهو عبارة عن مجموع مقادير مقررة على الرعية للقيام بما يلزمها من النفقات وتكون هذه المقادير مضروبة على الاشخاص او على املاكهم وارضيتهم او على ما يتجرون فيه ويستعملونه وينضم اليه ما يحدث من بعض العوائد كالمكوس والمجبارك ومتى كان ايراد الدولة غير كافٍ لما يلزمها من المصارف الضرورية او ما تريد استحداثه من الامور النافعة لعامة الرعية كاجراء الانهر وعمل القناطر استدان ما يلزم لذلك وقد كان الناس في مبادى احوالهم قبل اخنلاط الامم واتصالهم متفرقين في بقاع الارض تسكن كل امة في جزيرة او قطعة من القارة محدودة بالجبال او بالانهر لا تختلط بغيرها الا عند بعض حروب تكون بينها وبين من يليها من الناس وكانت مساكن الناس في اول الامر متبعدة متفرقة ثم تضامت وتقاربت فحدث من ذلك الكفور والقرى والبلدان والمدن فكانوا غالباً على شواطئ الانهر والبحار وتارة في المواضع المرتفعة من الاودية وفي النادر فوق الجبال وازدياد التمدن اتصت المدن ببعضها بواسطة المسالك والطرق وكان غالب الطرق اولاً في المواضع المنخفضة من الاودية للتوصل الى الجهات المشهورة ثم عملت طرق مقاطعة لها ولم تعمل الطرق الموازية للجبال الا اخيراً ولما اتسع التمدن وكثرت علائق الاجتماع ووجدت تلك الطرق غير كافية حدثت الحيطان الصناعية القاطعة للانهر والجبال وغير القاطعة لها وصار

توزيع فروق ارتفاعاتها بواسطة احواض تعمل في محلات تقاطعها واتصالها بغيرها ( وهي المعروفة بالهويسات جمع هويس محرف حوض ) ولانعدام بعض الحدود الطبيعية للارض بسبب اختراع الطرق القاطعة لها نتج اعمال الحصون والقلاع لتمييز الحدود والفصل بين المتجاورين من الامم وبعضهم ومع هذا فكانت الحدود الطبيعية احسن فائدة لان بها يتم شروط الامن والملكية واحسن الحدود ما كان بالصحاري ثم ما كان بالابحار ثم ما كان بالجبال ثم الانهر ولكن لما كانت تلك الحدود في الغالب لا تفي بتحصيل الامن بين الامم المختلفة اضطر الناس الى تكميلها بموانع صناعية فنشأ من ذلك اتخاذ الحصون لحصول هذا الغرض وهي قسمان ثابتة وغير ثابتة فالاولى هي الحصون البرية وتبنى بمصاريف كثيرة وموثة كبيرة وتكون على رؤس الاودية وسواحل البحار والانهار ومحلات تقاطع الطرق وسائر المواضع التي ليس فيها موانع طبيعية او فيها موانع غير كافية للحفظ وهذه الموانع سواء كانت صناعية او طبيعية لا تفي بالغرض المطلوب الا اذا استكملت شروطها من الاتصال ببعضها بحيث يكون بينها ارتباط يمنع العدو من الاستيلاء عليها من غير ان يكون عرضة للاسر والتلف والخطر والثانية اعني غير الثابتة هي السفن الجرية ثم كل من هذه الموانع الثابتة وغيرها لا تقوم بنفسها في صد العدو والمحاماة عن الدولة والامة بل لا بد من طائفة من رجال الامة يقومون عليها ويدافعون عن

المملكة واهلها وهذه الطائفة التي تقوم بامر المدافعة اما ان تكون  
 عساكر مخصوصة معدة لهذا الامر مستعدة للسير والسفر الى كل  
 جهة تؤمر بالمسير اليها فيكون لها علوفات ومرتبات بقدر الكفاية  
 واما ان تكون رديفاً يطلب عند الاحتياج وليس لهم علوفة ولا  
 مرتب وبعض هذه العساكر يكون في البر وبعضهم في السفن في  
 البحر وتلجىء البرية في تقلبات احوالها الى القلاع والحصون  
 الارضية وتلجىء البحرية الى الميناء المحصنة قال ولذلك تفاصيل  
 شرحها يطول ولك الان في هذا القدر مقنع وكفاية وسنصل  
 ان شاء الله بالتدرج للغاية



المسامرة السادسة والعشرون

ختام كتاب برهان الدين

فهذا آخر ما القاه عليّ من هذه المسائل كتبت له لينتفع به  
 اخوتي كما ذكرت وتعلمي درجة اجتهادي واشتغالي بما حررت  
 وانا ارجوان لا تحرميني من وعظك واتحاف في برقيق لفظك ولا  
 تكتمني عني شيئاً من امركم فاني متشوق لجميع خبركم ونحن بفضل  
 الله في صحة تامة مجتهدين في تعلم اللغة الانكليزية والذي مع  
 صاحبه وانا مع صاحبي وفي بعض الاوقات احضر مع والذي  
 بعض دروسه واتقل ما اجده في كراريسه واما الخواجا فانه  
 رجل ذو لطف وادب لم يتغير عن اسلوبه لحظة ولم اسمع منه  
 ما يجلب بشرفنا لفظة ملتزماً معنا حسن السيرة ورأفته بنا لا توصف  
 ومعاملته معنا قل في غيره ان تعرف لا يترك فرصة فيها سرورنا الا  
 جالبها ولا يعلم تغير طبعنا من خصلة الا اجنبها أحلّ والذي  
 في رأيه وغرضه محل سنته وفرضه فشكر الله مسعاه ووقفه لطريق  
 الصواب وهداه وان سألت عن اقامتنا في السفينة فاقول ان  
 القمر التي كانت اعدت فيها لنا عبارة عن خزنة صغيرة تزيد في

الارتفاع عن قامة الانسان بقدر مدّ الذراع وطولها طوله سواء  
بسواء وبها كوة لدخول النور والهواء ولكنها في غالب الاوقات  
متفولة خوفاً من دخول الماء وبكل قهرة فرش للمجلس والنوم  
على حسب عادة القوم وفيها اباريق وأنية معدة لما عساه يحصل  
من القيء وما يعتري الانسان في بعض الاوقات من الشئ  
ولكن القيء لم يحصل لنا الا قليلاً لان البحر مدة السفر كاد ان  
يكون ساكناً فلم يحصل لمركبنا اضطراب الا في اوقات قليلة  
فكنت ارقد وادفع ضرره بهذه الحيلة وانما حصل لوالدي مرتين  
وذلك في ابتداء الامر وكاتنا خيفتين وعند دخولنا السفينة  
وصعودنا على ظهر البحر شمننا له روائح مائية رديئة اعدمت منا  
شهوة الاكل فتركناه بالكلية الى ان قال لنا الانكليزي على وجه  
النصيحة بسبب ما تعلمه بالتجربة لكثرة اسفاره لا بد لراكب  
السفينة من الاكل ولو بتكلف لانه اذا كانت معدته خالية  
اصابه الدوار بسبب اضطراب السفينة وفترت قوته فالاولى  
للانسان ان يتحايل على ان يتناول من الطعام ما يقوي بدنه  
ليشتمد ويقوى على حركة البحر واضطراب السفينة فامثلنا وفعلنا  
واسترحنا بذلك الى ان وصلنا وانما كانت القهرة تضايقتنا وترتيب  
فرش النوم لا يوافقنا لاننا كنا ننام على شيء شبيه بالدرج على  
قدر الانسان لا يكاد يزيد عنه وكان محلي فوق محل، والذي  
وكنت اردت اولاً ان امتنع من ذلك فأبى والذي حفظه الله

الا ان انام كما رتبوا وقال لي الضرورات تبيح المحظورات واما  
 الطعام فكان في الكثرة فوق المرام لاننا كنا ندعى للاكل في  
 اليوم والليلة خمس مرّات وكانت الاطعمة حسنة نظيفة الا انها  
 قليلة الملح والنضج فكاننا نعافها لعدم اعنيادنا على مثلها في بلادنا  
 وكان ائتماننا في اغلب الاحيان بالخبز والزيتون والسلك  
 المعروف بالسردين واشباه ذلك وهكذا خبزهم لا يشبه خبزنا فلا  
 ادري أهو من المحنطة ام غيرها ولو وجدنا سواه ما اكلناه وكثيراً  
 ما سمعت والذي يقول لو علمت حال الخبز من قبل لتزودنا  
 خبزاً غيره من الاسكدرية ولما رأى الانكليزي عدم رغبتنا صار  
 يعيده لنا في النار ويشويه ويأتي لنا كل يوم بدجاجة فيذبحها  
 والذي وانا اتولى طبخها بيدي واكثر لنا من المربيات  
 فكانا نأتمم بها في بعض الاوقات وبالجمله فقد اتقضت ايام  
 السفر ولم يحصل لنا في السفينة ادنى ضرر والان وصلنا ثغر  
 مرسليليا وبعد ثلاثة ايام تقوم وتركب عربة السكة الحديد  
 وتتوجه الى مدينة باريس وهي قاعدة بلاد الفرنسيين فاذا  
 وصلنا الى هناك بعون الله ومشيتته سطرت لك خطاباً غير  
 هذا اضمنه ما اراه وما اسمعه بعد الآن ورجائي ان يدوم لي حسن  
 رضاك في جميع المحال والاحوال فهو لي نهاية الامال وراس مال  
 القبول والاقبال وارجوايضاً ان تبليغي اذكي التحيات الى اخواتي  
 وعامي واقبل يد خالي العزيز ادام الله بقاءه ويسر لي لقاءك

ولقاءه وارجو منه ان يقر لي الفاتحة بمقام الامامين لعل الله تعالى  
يردنا سالمين بلغنا الله واياكم الامال وجمعنا في احسن  
الاحوال امين والمحمد لله رب العالمين

ثم انه ختم الجواب وظرفه واذا بالخواجاجا دخل عليه وسأله  
عن الوالد فقال له ان عنده بعض فتور وقد اضطلع في فراشه  
ليستريح فان شئت ذهبت اليه لانيه فمنعه عن ذلك وقال  
اني متظره في حجرتي فاذا قام فاخبره فاجابه برهان الدين لذلك  
ثم اراه ذلك الكتاب في ظرفه وقال له هذا كتاب سطرته الى  
والدني بمصر بانن والدي واريد ارساله اليها فارجوكم ان تفضل  
بتوصيله الى البوسطة فقال حبا وكرامة واخذه وتكفل بتوصيله  
وانصرف

انتهى الجزء الاول



## فهرست الجزء الاول

من كتاب

علم الدين



صفحة	المسامح	حج
٠٠٣		مقدمة الكتاب
٠٠٩	الاولى	السفر
٠٢٢	الثانية	السفر والعودة
٠٢٨	الثالثة	الزواج
٠٤١	الرابعة	العيلة
٠٤٤	الخامسة	محاورة
٠٦٩	السادسة	الساخ الانكليزي
٠٨٨	السابعة	الحكة الحديدية
١٢٣	الثامنة	طنطا
١٢٩	التاسعة	الموالد والاعياد والمواسم
١٦٤	العاشرة	شنى
١٨٥	الحادية عشرة	الخانات واللوكندات
١٩٩	الثانية عشرة	النساء
٢١٥	الثالثة عشرة	الهوستة

صفحة	المسامرة	ب
٢٢٠	الرابعة عشر	المكتبة
٢٢٧	الخامسة عشر	الملاحة
٢٤١	السادسة عشر	التعلم والتعليم
٢٥٨	السابعة عشر	البحر وعجائبه
٢٨٥	الثامنة عشر	البراكين
٢٠٢	التاسعة عشر	شذور
٢٢١	العشرون	العرب
٢٤٧	الحادية والعشرون	كتاب برهان الدين
٢٥٢	الثانية والعشرون	برهان الدين وصاحب (نممة من الكتاب)
٢٦٢	الثالثة والعشرون	الجغرافية والتاريخ (نممة من الكتاب)
٢٦٩	الرابعة والعشرون	العبادات (نممة من الكتاب)
٢٧٦	الخامسة والعشرون	الانسان وهياة الاجتماع (نممة من الكتاب)
٢٨٢	السادسة والعشرون	ختم كتاب برهان الدين

## تقريظ الكتاب

ما تسع الأيدي بيدي وإنما يبقى لنا ما تسع الأقدام  
الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين  
وبعد فإني تصفحت هذا الكتاب بل العجب العجاب الذي نسبت للشيخ علم  
الدين روايته وأسندت للمصنف الإنكليزي حكايته فوجدته نزهة للناظر وسلوة  
للخاطر فيه للقلوب ارتياح وللخواطر نشاط وانشراح تعرب مبانيه عن لطف  
معانيه وتفصح روائع الفاظه الرائقة عن بدائع مضامينه الفائقة ويشهد لمولفه  
بعلو المقدار ولصنفته بحسن الاختيار جمع فيه من غرائب النون ونقائض  
المجد والمجون الضب والنون وقرن الى أسنى المقاصد اشرف المطالب فصح  
انه المرغوب لكل طالب اظهر فيه ما خفي من اسرار الصنائع وكشف عن  
وجه مخدرات العلوم البرائع وازاف الى ذلك من حكم الحكماء ما اغفله  
القدماء وشحه بلطائف النوادر وما تفردت به الأواخر واظهرته في هذا  
الدور الاخر فهو مخترع لجميع المخترعات جامع وبديع في بيان معاني  
المبتدعات نافع يتنقل من فصل الى ضد وبحكم الوصل بما ابداه من عند  
فكان مولفه المفضل يقول فيه بلسان الحال

نصديت في انعاب فكري لجمعه فجاه كتابا في اليها لا يشارك  
وكتبت بحمد الله فوه موقفا فإسمي علي في الانام مبارك  
فله در من انشاء وبطراز الحسن والاحسان وشاه فانه اجاد وسلك  
طريق السداد وبلغ به ما فوق المراد بلغه الله تعالى امانيه وكتب حاسه  
وشانيه ولا زال متواصل البقا دائم الارنقا بهجة للياليه وابامه يزين الوجود  
بآثار اقلامه مغنما للشناه الجميل والاجر الجزيل بحرمه سيد الانام الذي  
بحسن بذكره البد والمخنام

وكتبه الفقير المعترف بالنقص تراب اقدام العلماء عبد الجليل بن  
عبد السلام زاده المدني في اواسط شعبان المعظم سنة اربع وتسعين ومائتين  
والف بالمهروسة حامدا مصليا













